

الدولة التاسعة المنتقلة من ملوك اليونانيين المنصرين إلى ملوك العرب المسلمين

قال القاضي صاعد بن احمد الاندلسي صاحب قضاء مدينة طليطلة: ان العرب فرقان فرقة بائدة وفرقة باقية. اما الفرقة البائدة فكانت اماً ضخمة كعاد وتمد وطسم وجديس. ولتقادم انقراضهم ذهب عنا حقيقة اخبارهم وانقطعت عنا اسباب العلم بآثارهم. واما الفرقة الباقية فهي متفرعة من جذمين قحطان وعدنان. ويصتهما حالان حال الجاهلية وحال الاسلام. فأما حال العرب في الجاهلية فحال مشهور عند الأمم من العز والمنعة وكان ملكهم في قبائل قحطان وكان بيت الملك الاعظم في بني حمير وكان منهم الملوك السادة الجبابرة التابعة. واما سائر عرب الجاهلية بعد الملوك فكانوا طبقتين أهل مدرّ وأهل وبر. فاما أهل المدر فهم الخواضر وسكان القرى. وكانوا يحاولون المعيشة من الزرع والنخل والماشية والضرب في الارض للتجارة. واما أهل الوبر فهم قطان الصحارى. وكانوا يعيشون من ألبان الابل ولحومها منتجين بمنابت الكلاب مرتادين لمواقع القطر فيخيمون هنالك ما ساعدتهم الخصب واهكنهم الرعي ثم يتوجهون لطلب العشب وابتغاء المياه فلا يزالون في حل وترحال كما قال بعضهم عن ناقته:

تقول اذا درأت لها وضيبي أهذا دينه ابدأ وديني
أكل الدهر حل وارتحال أما يبني علي ولا يقيني

١ - جذمين و جدّين .

٢ - مدر . وبر و مدن . وبر .

٣ - بمنابت ر لمنابت .

وكان ذلك دأبهم زمان الصيف والربيع . فاذا جاء الشتاء واقشعرت الارض انكمشوا الى ارياف العراق واطراف الشام . فشتوا هناك مقاسين جهد الزمان ومصطبرين على بوئس العيش . وكانت اديانهم مختلفة . فكانت حمير تعبد الشمس . وكنانة القمر . وميسم الدبران . ولحم وجذام المشتري . وطي سهيلاً . وقيس الشعري العبور . واسد عطارد . وثقيف بيتاً بأعلى نخلة يقال لها اللآت . وكان فيهم من يقول بالمعاد ويعتقد ان من نُحرت ناقته على قبره نُحشر ركباً ومن لم يفعل ذلك نُحشر ماشياً . فأما علم العرب الذين كانوا يتفخرون به فعلم لسانهم واحكام لغتهم ونظم الاشعار وتأليف الخطب . وكان لهم مع هذا معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها وعلم بأنواء الكواكب وامطارها على حسب ما ادركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم الى معرفة ذلك في اسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقائق . واما علم الفلسفة فلم يمنحهم الله شيئاً منه ولا هياً طبائعهم للعناية به . فهذه كانت حالهم في الجاهلية . واما حالهم في الاسلام فعلى ما نذكره بأوجز ما يمكننا وأقصر ان شاء الله .

(محمد بن عبد الله عليه السلام) ذكر النسابة ان نسبه ترتقي الى اسماعيل ابن ابراهيم الخليل الذي ولدت له هاجرمة سارة زوجته . وكان ولاده بمكة سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة للاسكندر ١ . ولما مضى من عمره سنتان بالتقريب مات عبد الله ابوه وكان مع امه آمنة بنت وهب ست سنين . فلما توفيت اخذه اليه جده عبد المطلب وحنا عليه . فلما حضرته الوفاة اوصى ابنه ابا طالب بحياضته ٢ فضمه اليه وكفله . ثم خرج به وهو ابن تسع سنين الى الشام . فلما نزلوا بصرى خرج اليهم راهب عارف اسمه بحيرا من صومعته وجعل يتخلل القوم حتى انتهى اليه فأخذه بيده وقال : سيكون من هذا الصبي أمر عظيم ينتشر ذكره في مشارق الارض ومغاربها فانه حيث اشرف اقبل وعليه غمامة تظله . ولما كمل له من العمر خمس وعشرون سنة عرضت عليه امرأة ذات شرف ويسار اسمها خديجة ان يخرج بمالها تاجراً الى الشام وتعطيه افضل ما تعطي غيره . فأجابها الى ذلك وخرج . ثم رغبت فيه وعرضت نفسها عليه فتزوجها وعمرها يومئذ اربعون سنة . واقامت معه الى ان توفيت بمكة اثنتين وعشرين سنة . ولما كمل له اربعون سنة اظهر الدعوة . ولما مات ابو طالب عمه وماتت ايضاً خديجة زوجته اصابته قُرَيْشٍ بعظيم اذى . فهاجر عنهم الى المدينة وهي يثرب . وفي السنة الاولى من هجرته احتفل الناس اليه

١ - والصواب سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة .

٢ - بحياضته ر بحفاضته .

ونصروه على المكثين اعدائه . وفي السنة الثانية من هجرته الى المدينة خرج بنفسه الى غزاة بدر وهي البطشة الكبرى وهزم بثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً من المسلمين انفاً من اهل مكة المشركين . وفي هذه السنة صرفت القبلة عن اجهة البيت المقدس الى جهة الكعبة . وفيها فرض صيام شهر رمضان . وفي السنة الثالثة خرج الى غزاة اُحد . وفيها هزم المشركون المسلمين وشُجَّ في وجهه وكسرت ربايعيته . وفي السنة الرابعة غزا بني النضير اليهود وأجلاهم الى الشام . وفيها اجتمع احزاب شتى من قبائل العرب مع اهل مكة وساروا جميعاً الى المدينة فخرج اليهم . ولأنه هان المسلمين أمرهم أمر بحفر خندق وبقوا بضعةً وعشرين يوماً لم يكن بينهم حرب . ثم جعل واحد من المشركين يدعو الى البراز . فسعى نحوه عليُّ بن ابي طالب وقتله وقتل بعده صاحباً له . وكان قتلها سبب هزيمة الاحزاب على كثرة عددهم ووفرة عددهم . وفي السنة الخامسة كانت غزاة دومة الجندل وغزاة بني لحيان . وفي السنة السادسة خرج بنفسه الى غزاة بني المصطلق وأصاب منهم سبياً كثيراً . وفي السنة السابعة خرج الى غزاة خيبر مدينة اليهود . وينقل عن عليِّ بن ابي طالب انه عالج باب خيبر واقتلعه وجعله مجناً وقاتلهم . وفي الثامنة كانت غزاة الفتح فتح مكة وعهد الى المسلمين ان لا يقتلوا فيها الا من قاتلهم وأمن من دخل المسجد ومن أغلق على نفسه بابه وكفَّ يده ومن تعلق بأستار الكعبة سوى قوم كانوا يؤذونه . ولما أسلم ابوسفيان وهو عظيم مكة من تحت السيف ورأى جيوش المسلمين قال للعباس يا ابا الفضل لقد اصبح ملك ابن اخيك عظيماً . فقال له : وبحك انها النبوة . قال نعم اذن . وفي السنة التاسعة خرج الى غزاة تبوك من بلاد الروم ولم يحتج فيها الى حرب . وفي السنة العاشرة حجَّ حجة الوداع . وفيها تنبأ بالهامة مسيلمة الكذاب وجعل يسجع مضاهياً للقرآن فيقول : لقد انعم الله على الحبلى اخرج منها نسمةٌ تسعى من بين صفاق وحشاً . وفي هذه السنة وعك عليه السلام ومرض وتوفي يوم الاثنين لليلتين بقيتا من صفر . وكان عمره بجملته ثلاثاً وستين سنة منها اربعون سنة قبل دعوة النبوة ومنها بعدها ثلث عشرة سنة مقيماً بمكة ومنها بعد الهجرة عشر سنين مقيماً بالمدينة . ولما تُوفي اراد اهل مكة من المهاجرين رده اليها لانها مسقط رأسه . وأراد اهل المدينة من الانصار دفنه بالمدينة لانها دار هجرته ومدار نصرته . وأرادت جماعة نقله الى بيت المقدس لانه موضع دفن الانبياء . ثم اتفقوا على دفنه بالمدينة فدفنوه بحجرته حيث قبض . واختلفوا في عدد ازواجه . واكثر ما قالوا سبع عشرة امرأة سوى السراري . ووُلد له سبعة اولاد

ثلاثة بنين واربع بنات كلهم من خديجة الأبرهيم ابنه فانه من ماريّة القبطية التي بعث بها المقوقس الى الاسكندرية مع اختها شيرين . ولم يمّت من نسائه قبله الا اثنتان . ولم يعش من اولاده بعده الا ابنة واحدة هي فاطمة زوجة عليّ بن ابي طالب وتوفيت بعد ايها بثلاثة اشهر .

• • •

وقد وقع في الاسلام اختلافات شتى كما وقع في غيره من الاديان بعضها في الاصول وهي موضوع علم الكلام وبعضها في الفروع وهي موضوع علم الفقه . والخلاف في الاصول فينحصر في اربع قواعد الاولى الصفات والتوحيد . الثانية القضاء والقدر . الثالثة الوجود والوعيد . الرابعة النبوة والامامة .

وكبار فرق الاصوليين ستّ . المعتزلة ثم الصفاتية وهما متقابلتان تقابل التضاد . وكذلك القدرية تضاد الجبرية . والمرجئة الوعيدية . والشيعية الخوارج . ويتشعب عن كل فرقة اصناف فتصل الى ثلث وسبعين فرقة ^١ . اما المعتزلة فالذي يعمّمهم من الاعتقاد القول بنبي الصفات القديمة عن ذات البارئ تعالى هرباً من اقانيم النصارى . فنهّم من قال انه تعالى عالم لذاته لا بعلم وكذلك قادرٌ وحّي . ومنهم من قال انه عالم بعلم وهو ذاته وكذلك قادرٌ وحّي . فالاول نفى الصفة رأساً والثاني اثبت صفةً هي بعينها ذات . واتفقوا ^٢ على ان كلامه تعالى محدث بخلقه ^٣ في محلّ وهو حرف وصوت وكتب مثاله ^٤ في المصاحف . وبالجملة نفي الصفات مقتبس من الفلاسفة الذين اعتقدوا ان ذات الله تعالى واحدة لا كثرة فيها بوجه . وبازاء المعتزلة الصفاتية وهم يشبّهون الله صفات ازلية من العلم والقدرة والحياة وغيرها . وبلغ بعضهم في اثبات الصفات كالسمع والبصر والكلام الى حدّ التجسيم فقال : لا بدّ من اجراء الآيات الدالّة عليها كالاستواء على العرش والخلق باليد وغيرهما على ظاهرها من غير تعرّض للتأويل . الا ان قوماً منهم كأبي

١ - دونك ما قاله الشهرستاني في الصفحة ٢ و ٣ من كتابه الملل والنحل :

« والمسلمون على ثلث وسبعين فرقة والناسجية ابدأ من الفرق واحدة اذ الحق من القضيتين المتقابلتين في واحدة ولا يجوز ان يكون قضيتان متناقضتان متقابلتان على شرائع التقابل الا وان تقتضا الصدق والكذب فيكون الحق في احديهما دون الاخرى ومن المحال الحكم على المتخاصمين المتضادين في اصول المقولات بأنهما محققان صادقان واذا كان الحق في كل مسألة عقلية واحداً فالحق في جميع المسائل يجب ان يكون مع فرقة واحدة . »

٢ - مخلقه و مخلقة .

٣ - مثاله و أمثاله .

الحسن الأشعري وغيره لما باشروا علم الكلام منعوا التشبيه وصار ذلك مذهباً لأهل السنة والجماعة وانتقلت سنة الصفاية الى الأشعرية.

وأما القدرية فهم معتزلة أيضاً وإنما لقبوا بالقدرية لفهم القدر لا لاثباتهم إياه فانهم يقولون ان العبد قادر خالق لافعاله خيرا وشرها مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً. فالرب تعالى منزّه عن ان يضاف اليه شر وظلم. وسموا هذا النمط عدلاً. وحدوه بأنه اصدار الفعل على وجه الصواب والمصلحة لمقتضى العقل من الحكمة. وبإزاء القدرية الجبرية الذين ينفون الفعل والقدرة على الفعل عن العبد ويقولون ان الله تعالى يخلق الفعل ويخلق في الانسان قدرة متعلقة بذلك الفعل ولا تأثير لتلك القدرة على ذلك الفعل. ومنهم من ثبت للعبد قدرة ذات اثر ما في الفعل ويقولون ان الله مالك في خلقه يفعل فيهم ما يشاء ولا يسأل عما يفعل. فلو ادخل الخلاق بأجمعهم الجنة لم يكن حيفاً. ولو ادخلهم النار لم يكن جوراً بل هو في كل ذلك عادل لأن العدل على رأيهم هو التصرف فيما يملكه المتصرف.

وأما المرجئة فهم يقولون بارجاء حكم صاحب الكبيرة من المؤمنين الى القيامة اي بتأخيرها اليها. فلا يقضون عليه بحكم ما في الدنيا من كونه ناجياً او هالِكاً ويقولون ايضاً انه لا يضر مع الايمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة. وبإزاء المرجئة الوعيدية القائلون بتكفير صاحب الكبيرة وتخليده في النار وان كان مؤمناً لكن يكون عقابه اخف من عقاب الكفار. وأما الشيعة فهم الذين شايعوا علي بن ابي طالب وقالوا بامامته بعد النبي. وان الامامة لا تخرج من اولاده الا بظلم. ويجمعهم القول بشبوت عصمة الأئمة وجوباً عن الكبار والصغار. فان الامامة ركن من اركان الدين لا يجوز للشي اغفاله ولا تفويضه الى العامة. ومن غلاة الشيعة النصيرية القائلون بان الله تعالى ظهر بصورة علي ونطق بلسانه مخبراً عما يتعلقت بباطن الاسرار. وقوم منهم غلوا في حق أئمتهم حتى اخرجوهم من حدود الخليفة وحكموا فيهم بأحكام الالهية. وبإزاء الشيعة الخوارج فهم من خطأ علي بن ابي طالب فيما تصرف فيه ومنهم من تخطى عن تخطئه الى تكفيره ومنهم من جوز ان لا يكون في العالم امام اصلاً وان احتيج اليه فيجوز ان يكون عبداً او حرّاً او نبلياً او قرشياً اذا كان عادلاً. فان عدل عن الحق وجب عزله وقتله. فهذا اقتصاص مذهب الأصوليين على سبيل الاختصار.

١- سنة ر سمة.

٢- لمقتضى ر يقتضى.

واما مذاهب الفروعيين المختلفين في الاحكام الشرعية والمسائل الاجتهادية فالمشهوره منها اربعة: مذهب مالك بن أنس . ومذهب محمد بن ادريس الشافعي . ومذهب احمد ابن حنبل . ومذهب ابي حنيفة النعمان بن ثابت . واركان الاجتهاد ايضاً اربعة: الكتاب والسنة والاجماع والقياس . وذلك لانه اذا وقعت لهم حادثة شرعية من حلال وحرام فزعوا الى الاجتهاد وابتدأوا بكتاب الله تعالى . فان وجدوا فيه نصاً تمسكوا به والا فزعوا الى سنة النبي فان رأوا لهم في ذلك خيراً نزلوا الى حكمه والا فزعوا الى اجماع الصحابة لانهم راشدون حتى لا يجتمعون على ضلال . فان عثروا بما يناسب مطلوبهم اجروا حكم الحادثة على مقتضاه والا فزعوا الى القياس لان الحوادث والوقائع غير متناهية والنصوص متناهية فلا يتطابقان فعلم قطعاً ان القياس واجب الاعتبار ليكون بصدد كل حادثة شرعية اجتهاد قياسي . ومن الأئمة داود الاصفهاني نفى القياس اصلاً . وابو حنيفة شديد العناية به وربما يقدم القياس الجلي على آحاد الاخبار . ومالك والشافعي وابن حنبل لا يرجعون الى القياس الجلي ولا الخفي ما وجدوا خيراً او امراً . وبينهم اختلاف في الاحكام ولم فيها تصانيف وعليها مناظرات ولا يلزم بذلك تكفير ولا تضليل . وبالجملة اصول شريعة الاسلام الطهارة في حواشي الانسان واطرافه لارسالها وملاقاتها النجاسات . والصلاة وهي خضوع وتواضع لرب العزة . والزكاة وهي مؤساة ومعونة وافضال . والصيام وهو رياضة وتذليل وقع الشهوة تحصل به رقة القلب وصفاء النفس . والحج وهو مثال الخروج عن الدنيا والاقبال على الآخرة واكثر ما فيه من المناسك امتحان وابتلاء العبد بامثاله ما شرع له وذلك كالسعي والهرولة في الطواف ورمي الجمار . واما الجمعة والاعياد فجعلت مجعاً للأمة يتلاقون ويتزاورون ويستريحون فيها عن كد الكدح . واما الختان فهو سنة فيه ابتلاء وامتحان وتسلية . واما تحريم الميتة والدم ففي كراهية النفس ونفار الطبع ما يوجب الامتناع منها .

(ابو بكر الصديق) اعظم خلاف بين الأئمة الاسلامية خلاف الامامة وعليه سلّ السيف . وقد اتفق ذلك في الصدر الاول فاختلف المهاجرون والانصار فيها . فقالت الانصار: منا امير ومنكم امير . فاستدركهم ابو بكر وعمر في الحال . وقبل ان يشتغلوا بالكلام مد عمر يده الى ابي بكر فبايعه وبايعه الناس وسكنت الثائرة . وبُوع له في شهر ربيع الاول في اول سنة احدى عشرة يوم توفي النبي عليه السلام في سقيفة

بني ساعدة . وقيل لما بلغ ذلك عليّ بن ابي طالب لم ينكره^١ . واكثر ما روي انه قال : ما شاورتني . فقال له ابو بكر : ما اتسع الوقت للمشورة وانا خفنا ان يخرج الامر منا . ثم صعد المنبر فقال : أقبولني من هذا الامر فلست بخيركم . فقال عليّ : لا ثقيلك ولا نستقيلك . فأجمع المهاجرون والانصار على خلافته . ولما ذاع خبر وفاة النبي عليه السلام ارتدّ خلق كثير من العرب ومنعوا الزكاة واشتد رعب المسلمين بالمدينة لاطباقهم على الردة . فأووا الذراري والعيال الى الشعاب . فأمر ابو بكر خالد بن الوليد على الناس وبعثه في اربعة آلاف وخمسمائة . فسار حتى وافى المرتدة وناوشهم القتال وصبي ذراريهم وقسم اموالهم . وضحّ أيضاً المسلمون الى ابي بكر فقالوا : الا تسمع ما قد انتشر من ذكر هذا الكذاب مسيلمة بأرض اليمامة وادعائه النبوة . فأمر خالد بن الوليد بالمسير الى محاربه . فسار بالناس حتى نزل بموضع يسمى عقرباء . وسار مسيلمة في جمع من بني حنيفة فنزل حذاء خالد . وكان بينهما وقعت واشتدت الحرب بين الفريقين واقتحم المسلمون بأجمعهم على مسيلمة واصحابه فقاتلوهم حتى احمرت الارض بالدماء . ونظر عبد اسود اسمه وحشي الى مسيلمة فرماه بحربة فوقعت على خاصرته فسقط عن فرسه قتيلاً . ومن هناك توجه خالد الى ارض العراق فزحف الى الحيرة ففتحها صلحاً . وكان ذلك اول شيء افتتح من العراق . وقد كان ابو بكر وجهه قبل ذلك ابا عبيدة بن الجراح في زهاء عشرين الف رجل الى الشام . وبلغ هرقل ملك الروم ورود العرب الى ارض الشام فوجه اليهم سرجيس البطريق في خمسة آلاف رجل من جنوده ليحاربهم . وكذب ابو بكر الى خالد عند افتتاحه الحيرة يأمره ان يسير الى ابي عبيدة بأرض الشام . ففعل والتقى العرب الروم فانهزم الروم وقتل سرجيس البطريق وذلك انه في هربه سقط من فرسه فركبه غلامه فسقط فركبوه ثانياً فهبط ايضاً وقال لهم : فوزوا بأنفسكم واتركوني أقتل وحدي . وفي سنة ثلث عشرة للهجرة مرض ابو بكر خمسة عشر يوماً ومات رحمه الله يوم الاثنين لثمان خلون^٢ من جمادى الآخرة وهو ابن ثلث وستين سنة . وكانت خلافته سنتين واربعه اشهر الاثمانية ايام . وفيها وهي سنة تسعمائة وست واربعين للاسكندر خالف هرقل الناموس وتزوج مرطياني ابنة اخيه وولدت منه ابناً غير ناموسي وسماه باسمه مصغراً هريقل .

(عمر بن الخطاب) ويكنى ابا حفص . قيل ان ابا بكر لما دنا أجله قال لعثمان

١- لما بلغ ... لم ينكره ر لم يبلغ ... واذا بلغ ينكره .

٢- وفي الكامل لابن الاثير « لثمان بقين من جمادى الآخرة » ولعله هو الصواب .

ابن عفان كاتبه : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عمده عبد الله بن ابي قحافة وهو في آخر ساعات الدنيا وبأول ساعات الآخرة . ثم غمي عليه . فكتب عثمان : الى عمر ابن الخطاب . فلما أفاق قال : من كتبت . قال : عمر . قال : قد اصبت ما في نفسي . ولو كتبت نفسك لكنت أهلاً له . واجمعوا على ذلك . وكان يُدعى خليفة خليفة رسول الله . قالوا : هذا يطول . فسَمي امير المؤمنين . وهو اول من سَمي بذلك . ولما استخلف قام في الناس خطيباً فقال بعد الحمدلة : ايها الناس لولا ما أرجوه من خيركم وقوامكم عليه لما اوليتكم الى غير ذلك . فلما ولي الامر لم يكن اه همة الا العراق . فعقد لأبي عبيد بن مسعود على زهاء الف رجل وأمره بالمسير الى العراق ومعه المثني بن حارثة وعمرو بن حزم وسليط بن قيس . فساروا حتى نزلوا الثعلبية . فقال سليط : يا ابا عبيد اياك وقطع هذه اللجة فاني ارى للعجم جمعاً كثيرة . والرأي ان تعبر بنا الى ناحية البادية وتكتب الى امير المؤمنين عُمر فتسأله المدد . فاذا جاءك عبرت اليهم فتناجزهم الحرب . فقال ابو عبيد : جنبت والله يا سليط . فقال المثني : والله ما جبن ولكن اشار عليك بالرأي فاياك ان تعبر اليهم فلتني نفسك واصحابك وسط ارضهم فتشيب بك محالبيهم^١ . فلم يقبل منها ابو عبيد وعقد الجسر وعبر بمن معه على كره منها . فعبرا معه . وعبي ابو عبيد اصحابه ووقف هو في القلب . فزحف اليهم العجم فرشقوهم بالنشاب حتى كثرت في المسلمين الجراحات . فحمل العرب حملة رجل واحد وكشفوا العجم . ثم ان العجم ثابوا وحملوا على المسلمين . فكان ابو عبيد اول قتيل وقُتل من المسلمين عالم . فولى الباقرن مارين نحو الجسر والمثني يقاتل من ورائهم لجميعهم حتى عبروا جميعاً وعبر المثني في آخرهم وقطعوا الجسر . وكتب الى عُمر بما جرى من المحاربة . وكتب اليه عُمر ان يُقيم الى ان يأتيه المدد . وكانت هذه الواقعة في شهر رمضان يوم السبت سنة ثلث عشرة من التاريخ . ثم ان عُمر أرسل رسله الى قبائل العرب يستنفرهم^٢ . فلما اجتمعوا عنده بالمدينة ولتى جرير بن عبد الله البجلي أمرهم . فسار بهم حتى وافي الثعلبية . وانضم اليه من هناك . ثم سار حتى نزل دبر هند . ووجه سراياه للغارة بأرض السواد مما يلي الفرات . فبلغ ذلك ازرميدخت ملكة العجم فأمرت ان يتدب من مقاتليها اثنا عشر

١- سمي و تسمى .

٢- عبيد و عبيدة .

٣- محالبيهم و محالبيهم .

٤- يستنفرهم و يستنفرهم .

الف فارس من ابطاهم . فانتدبوا وولت عليهم مهران بن مهرويه عظيم المرازبة . فسار بالجيش حتى وافى الحيرة . ورجعت سرايا العرب واجتمعوا وتهايا الفريقان للقتال وزحف بعضهم الى بعض وتطاعنوا بالرماح وتضاربوا بالسيوف . وتوسط المثنى العجم يحالدهم بسيفه . ثم رجع منصوراً الى قومه . وصدقهم العجم القتال فثبت بعض العرب وانهمز البعض . فقبض المثنى على لحيته ينتفها . فحملت قبائل العرب وحملت عليهم العجم فاقتتلوا من وقت الزوال الى ان توارت الشمس بالحجاب . ثم حملوا على العجم . وخرج مهران فوقف امام اصحابه . فحمل عليه المثنى . فضربه مهران فنيا السيف عن الضربة . وضربه المثنى على منكبه فغزّ ميتاً وانهمز العجم لاحقين بالمدائن . وثاب المسلمون يدفنون موتاهم ويداونون جراحهم^١ . فلما نظرت العجم الى العرب وقد أخذت اطراف بلادهم وشنوا الغارة في ارضهم قالوا: انما أوتينا من تملكنا النساء علينا. فاجتمعوا على خلع ازرميدخت^٢ بنت كسرى وتمليك غلام اسمه يزدرج^٣ . وقد كان نجم من عقب كسرى بن هرمز . فأجلسوه وباعوه على السمع والطاعة . فاستجاش يزدرج جنوده من آفاق مملكته وولى عليهم رجلاً عظيماً من عطاء مرازبته له سنٌّ وتجربة يقال له رستم . فوجهه الى الحيرة ليحارب من ورد عليه هناك من العرب . وعقد ايضاً لرجل آخر من حرّ سادات العجم يسمى الهرمزان في جنود كثيرة وجهه الى ناحية الاهواز لمحاربة ابي موسى الاشعري ومَن معه. وعند الالتقاء قتل هاذان المرزبانان العظيمان . ومَرّت العرب في اثر العجم يقتلون من ادركوا منهم.

وفي خلافة عُمر فتح ابو عبيدة دمشق بعد حصار سبعة اشهر. وصالح اهل ميسان وطبرية وقيسارية وبعلبك . وفتح حصص بعد حصار شهرين. وفيها كتب عمر الى معاوية بن ابي سفيان بولاية دمشق . وفيها دخل ميسرة بن مسروق العبسي ارض الروم في اربعة آلاف وهو اول جيش دخل الى الروم . وفيها فتح عمرو بن العاص مصر عنوةً وفتح الاسكندرية صلحاً. وفيها دخل عياض بن غنم سروج والرُّها صلحاً . وفيها افتتح ايضاً الرقة وأمد ونصيبين وطور عدين وماردين صلحاً . وفتح حبيب بن مسلمة قريشياً صلحاً. وفيها فتح عُتْبة بن غزوان قرى^٤ البصرة ثم سار حتى وافى الأبلّة

١- جراحهم و جراحاتهم .

٢- ازرمي دخت و ازرميدخت من اوزميدخت ٥٥٥ زرمن دخت .

٣- جلس يزدرج على سرير الملك وعمره ٢١ سنة .

٤- قرى و قرا و فرات و قراة . غزوان و عرفان .

هو عليه . فلم يرجع . فأسقطوه عن منزلته . وعاش الى ان فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية . ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه عمرو وسمع من الفاظه الفلسفية التي لم تكن للعرب بها انسة ما هاله ففتن به . وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكان لا يفارقه .

ومن الاطباء المشهورين في هذا الزمان بولس الاجانيطي طبيب مذكور في زمانه وكان خيراً خبيراً بلعل النساء كثير المعاناة لهن . وكانت القوابل يأتيه ويسألنه عن الامور التي تحدث للنساء عقيب الولادة فينعم بالجواب لهن ويحيين عن سؤلهن بما يفعله . فلذلك سمّوه بالقوابلي . وله كتاب في الطب تسع مقالات نقل حنين بن اسحق . وكتاب في علل النساء . ومنهم مغنوس له ذكر بين الاطباء ولم نر له تصنيفاً .

(عثمان بن عفان) ويكنى ابا عمرو . بويع له اللينين بقيتا من ذي الحجة سنة ثلث وعشرين للهجرة . قيل لما ضرب ابو لؤلؤة عمر بالخنجر وشرب اللبن فخرج من جراحتة فقالوا له : اعهد الى من تكون الخلافة بعدك . قال : لو كان سالم حياً لم اعدل به . قيل له : هذا علي بن ابي طالب وقد تعرف قرابته وتقدمه وفضله . قال : فيه دعاية اي مزاج . قيل : فعثمان بن عفان . قال : هو كلف بأقاربه . قيل : فهذا الزبير بن العوام حوارى النبي عليه السلام . قال : بخيل . قيل : فهذا سعد . قال : فارس مقنّب . والمقنّب ما بين الثلثين الى الاربعين من الخيل . قيل : فهذا طلحة ابن عم ابي بكر الصديق . قال : لولا بأو فيه اي كبر وخيلاء . قيل : فابنك . قال : يكنى ان يسأل واحد من آل الخطاب عن امرة امير المؤمنين . ولكن جعلت هذا الامر شورى بين ستة نفر وهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وابو عبيدة وسعد بن ابي وقاص الى ثلثة ايام . فلما دُفن عمر جاء ابو عبيدة الى علي بن ابي طالب فقال له : هل انت مبايعي علي

١- « وكان مقامهم (المسلمين) على حصار الاسكندرية اربعة عشر شهراً فلما فتحوا الاسكندرية وهرب من هرب من الروم مضى عمرو بن العاص في طلب من هرب من الروم في البر . فرجع من كان هرب منهم في البحر الى الاسكندرية فقتلوا من كان فيها من المسلمين . فبلغ ذلك عمرو بن العاص ففكر راجعاً . وقتلوه قتلاً شديداً على الحصن ثم فتحها . وهرب الروم ايضاً الى المراكب . فكتب عمرو بن العاص الى عمر ابن الخطاب اني فتحت مدينة لا اصف ما فيها . غير اني اصبت فيها اربعة آلاف سيده (مسجد) واربعة آلاف حمام واربعين الف يهودي عليهم الجزية واربعمئة ملهى للملوك واثنى عشر الف بقال يبيعون البقل الاخضر . واني فتحتها عنوة بغير عهد . ويعلمه ان المسلمين طلبوا قسمتها . فكتب اليه عمر بن الخطاب يقبح رأيه ويأمره ان لا يتجاوزها ولا يقسمها ويترك خرجها فيها المسلمين وقوة لهم على جهاد عدوم . فأقر بها عمرو وأحصى اهلها وفرض عليهم الخراج » (من نسخة خطية من تاريخ سعيد بن البطريق) .

كتاب الله وسنة نبيه وسنة الشيخين. قال: اما كتاب الله وسنة نبيه فنعم. واما سنة الشيخين فأجتهد رأيي. فجاء الى عثمان فقال له: هل انت مباعي على كتاب الله وسنة نبيه وسنة الشيخين. قال: اللهم نعم. فبايعه ابو عبيدة والجماعة ورضوا به. واول ما فتح في خلافته ماهُ البصرة وما كان بقى من حدود اصفهان والرّي على يد ابي موسى الاشعري. ثم بعث عثمان عبد الله بن عامر الى اسطخر وبها يزدجرد. فخرج الى دارايجرد. فأرسل عبد الله مجاشع بن مسعود في اثر يزدجرد. فركب المفازة حتى أتي كرمان وأخذ على طريق سجستان يريد الصين. وجاء مجاشع الى سجستان. ثم انصرف لما لم يدرك يزدجرد وعاد الى فارس. فاشتد خوف يزدجرد واستمدّ طرخان التركي لنصرته. ولما ورد استخف به وطرده لكلام تكلم به بعض الترك. وعند انصرافهم ارسل ماهويه مرزبان مرو وكان قد خامر على يزدجرد الى طرخان أن: كرّ عليه فاني اظاهرك. فكرّ طرخان على يزدجرد. فولّى يريد المدينة. فاستقبله ماهويه فزقه كل ممزق. وقيل ان يزدجرد انتهى الى طاحونة بقرية من قرى مرو فقال للطحان: اخفني ولك منطقتي وسواري وخاتمي. فقال الرجل: ان كرى الطاحونة كل يوم اربعة دراهم. فان اعطيتنيها عطلتها والا فلا. فبينما هو في راجعته اذ غشيته الخيل فقتلوه. وانتزع عثمان عمرو بن العاص عن الاسكندرية وأمر عليها عبد الله بن مسعود اخاه لأمة. فغزا افريقية وغزا معاوية قبرس وانقرة فافتتحها صلحاً. ثم ان الناس نقموا على عثمان اشياء منها كلفه بأقاربه. فأوى الحكم بن العاص بن أمية طريد النبي عليه السلام. وأعطى عبد الله بن خالد اربعمائة الف درهم. واعطى الحكم مائة الف درهم. ولما ولي صعد المنبر فتنم ذروته حيث كان يقعد النبي عليه السلام. وكان ابو بكر ينزل عنه درجة وعمر درجتين. فتكلم الناس عن ذلك واطهروا الطعن. فخطب عثمان وقال: هذا مال الله اعطيه من شئت وامنعه ممن شئت. فارغم الله انف من رغم انفه. فقام عمّار بن ياسر فقال: انا اول من رُغم انفه. فوثب بنو أمية عليه وضربوه حتى غشي عليه. فحنقت العرب على ذلك وجمعوا الجموع ونزلوا فرسخاً من المدينة وبعثوا الى عثمان من يكلمه ويستعته ويقول له: إما أن تعدل او تعتزل. وكان اشد الناس على عثمان طلحة والزبير وعائشة. فكتب عثمان اليهم كتاباً يقول فيه: اني انزع عن كل شيء انكرتموه وأتوب الى الله. فلم يقبلوا

١- دارايجرد و دارايجرد.

٢- خامر على يزدجرد و خامر يزدجرد.

٣- عمار و عماد.

منه وحاصروه عشرين يوماً . فكتب الى عليّ: اترضى ان يُقتل ابن عمك ويُسلب ملكك . قال عليّ: لا والله . وبعث الحسن والحسين الى بابه بحرسانه . فتسوّر محمد ابن ابي بكر مع رجلين حائظ عثمان فضربه احدهم بغتةً بمشقص في اوداجه وقتله الآخر والمصحف في حجره وذلك لعشر مضيّن من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين وكانت خلافته اثني عشرة سنة بالتقريب وعمره نيّف وثمانون سنة ١ .

(عليّ بن ابي طالب) لما قُتل عثمان اجتمع الناس من المهاجرين والانصار فأتوا عليّاً وفيهم طلحة والزبير ليبياعوه . فقال عليّ لطلحة والزبير : ان احببنا ان تبايعاني وان احببنا بايعتكما . قالوا له : لا بل نبايعك . فخرجوا الى المسجد وبايعه الناس يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين للهجرة . وكان اول مبايعه طلحة . وكان في اصبعه شلل فتطيرّ منها حبيب بن ذؤيب وقال : يد سلاء لا يتم هذا الامر ما اخلقه ان ينتكث . وتخلّف عن بيعة عليّ بنو أمية مروان بن الحكم وسعيد بن العاص والوليد ابن عتبة . ولم يبايعه العثمانية من الصحابة وكانت عائشة تؤلّب ٢ على عثمان وتطعن فيه وكان هواها في طلحة . فبينما هي قد اقبلت راجعة من الحج استقبلها راكب . فقالت : ما وراءك . قال : قُتل عثمان . قالت : كأني انظر الى الناس يبايعون طلحة . فجاء راكب آخر . فقالت : ما وراءك . قال : بايع الناس عليّاً . قالت : وا عثماناه ما قتله الا عليّ . لاصبح من عثمان خير من طباق الارض امثالهم . فقال لها رجل من اخوالها : والله اول من أمال حرفه لأنت . ولقد كنت تقولين : اقتلوا نَعَشَلًا فقد كفر . قالت : انهم استتابوه ثم قتلوه . ونعتل اسم رجل كان طويّل اللحية وكان عثمان اذا نيل منه وعُيِب شُبّه به لطول لحيته . ثم انصرفت عائشة الى مكة وضربت فسطاطاً في المسجد . واراد عليّ ان ينزع معاوية عن الشام فقال له المغيرة بن شعبة : اقرر معاوية على الشام فانه يرضى بذلك . وسأل طلحة والزبير ان يوليها البصرة والكوفة . فأبى وقال : تكونان عندي اتجمل بكما فاني استوحش لفراقكما . فاستأذناه في العُمره فأذن لها . فقدمت على عائشة وعظماً أمر عثمان . ولما سمع معاوية بقول عائشة في عليّ ونقض طلحة والزبير البيعة ازداد قوة وجراءة وكتب الى الزبير : اني قد بايعتك ولطلحة من بعدك فلا يفوتكما ٣ العراق . واعانها بنو أمية وغيرهم وخرجوا بعائشة حتى قدموا البصرة فأخذوا ابن حنيف اميرها من قبل

١ - وسمي يوم قتله يوم الدار لانهم هجموا عليه في داره وقتلوه بها .

٢ - تؤلّب و تولّت .

٣ - يفوتكما و يفوتنكما .

عليّ فنالوا من شعره ونفوا لحيته وخلّوا سبيله فقصده عليّاً وقال له: بعثتني ذا لحية وقد جثتكم امرد. قال: أصبت اجراً وخيراً. وقتلوا من خزنة بيت المال خمسين رجلاً وانتهبوا الاموال. وبلغ ذلك عليّاً فخرج من المدينة وسار بتسمائة رجل. وجاءه من الكوفة ستة آلاف رجل. وكانت الوقعة بالخرّيبّة. فبرز القوم للقتال وأقاموا الجمل وعائشة في هودج ونشبت الحرب بينهم فخرج عليّ ودعا الزبير وطلحة وقال للزبير: ما جاء بك. قال: لا اراك لهذا الامر أهلاً. وقال لطلحة: أجتت بعرس النبي تقاتل بها وخبّيت عرسك في البيت. اما بايعتاني. قالوا: بايعناك والسيف على عنقنا. واقبل رجل سعديّ من اصحاب عليّ فقال بأعلى صوته: يا أمّ المؤمنين والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون انه قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكت سترك وأبحت حرمتك. ثم اقتتل الناس. وفارق الزبير المعركة فاتبعه عمرو بن جرموز وطعنه في جُربان درعه فقتله. واما طلحة فأتاه سهم فأصابه فأردفه غلامه فدخل البصرة وأنزله في دار خربة ومات بها. وقتل تسعون رجلاً على زمام الجمل. وجعلت عائشة تنادي: البقية البقية. ونادى عليّ: اعقروا الجمل. فضربه رجل فسقط. فحمل الهودج موضعاً واذا هو كالقنفة لما فيه من السهام. وجاء عليّ حتى وقف عليه وقال لمحمد بن ابي بكر: انظر أحيّة هي أم لا. فأدخل محمد رأسه في هودجها. فقالت: من انت: قال: اخوك البرّ. فقالت: عقق. قال: يا أحيّة هل اصابك شيّ. فقالت: ما انت وذاك. ودخل عليّ البصرة ووبخ اهلها وخرج منها الى الكوفة. ولما بلغ معاوية خبر الجمل دعا اهل الشام الى القتال والمطالبة بدم عثمان. فبايعوه اميراً غير خليفة. وبعث عليّ رسولاً الى معاوية يدعوه الى البيعة. فأبى. فخرج عليّ من الكوفة في سبعين الف رجل. وجاء معاوية في ثمانين الف رجل فنزل صفين وهو موضع بين العراق والشام فسبق عليّاً على شريعة الفرات. فبعث عليّ الأشتر النخعي فقاتلهم وطردهم وغلّبهم على الشريعة. ثم ناضوا الحرب أربعين صباحاً حتى قُتل من العراقيين خمسة وعشرون ألفاً ومن الشاميين خمسة واربعون ألفاً. ثم خرج عليّ وقال لمعاوية: علام تُقتل الناس بيني وبينك. أحاكمك الى الله عزّ وجلّ فإينما قتل صاحبه استقام الامر له. فقال معاوية لاصحابه: يعلم انه لا يبارزه احد إلا قتله. فأمرهم ان ينشروا المصاحف وينادوا: يا اهل العراق بيننا وبينكم كتاب الله ندعوكم اليه. قال عليّ: هذا كتاب الله فمن يحكم بيننا. فاختر الشاميون عمرو بن العاص والعراقيون ابا موسى الاشعري. فقال الاحنف: ان ابا موسى

رجلٌ قريب القعر كلليل الشفرة اجعلني مكانه آخذ لك بالوثيقة واضعك من هذا الامر بحيث تحبّ . فلم يرضَ به اهل اليمن . فكتبوا القضية على ان يحكم الحكمان بكتاب الله والسنة والجماعة وصبروا الأجل شهر رمضان . ورحل عليّ الى الكوفة ومعاوية الى الشام . فلما دخل عليّ الكوفة اعترل اثنا عشر الفاً من القراء وهم ينادونه : جزعت من البلية ورضيت بالقضية وحكمت الرجال والله يقول : ان الحكم الا لله . ثم اجتمع ابو موسى الاشعري وعمرو بن العاص للتحكم بموضع بين مكّة والكوفة والشام بعد صفتين بثمانية اشهر وحضر جماعة من الصحابة والتابعين . فقال ابن عباس لابني موسى : مهما نسيت فلا تنس ان علياً ليست فيه خلّة واحدة تباعده من الخلافة وليس في معاوية خصلة واحدة تقرّبه من الخلافة . فلما اجتمع ابو موسى وعمرو للحكومة ضربا فسطاطاً . وقال عمرو : يجب ان لا نقول شيئاً الا كتبناه حتى لا نرجع عنه . فدعا بكتاب وقال له سرّاً : ابدأ باسمي . فلما اخذ الكاتب الصحيفة وكتب بالبسملة بدأ باسم عمرو . فقال له عمرو : احه وابدأ باسم ابي موسى فانه افضل مني وأولى بأن يُقدّم . وكانت منه خديعة . ثم قال : ما تقول يا ابا موسى في قتل عثمان . قال : قُتل والله مظلوماً . قال : اكتب يا غلام . ثم قال : يا ابا موسى ان اصلاح الأمة وحقق الدماء خير مما وقع فيه عليّ ومعاوية . فان رأيت أن تخرجها وتستخلف على الأمة من يرضى به المسلمون فان هذه امانة عظيمة في رقابنا . قال : لا بأس بذلك . قال عمرو : اكتب يا غلام . ثم ختم على ذلك الكتاب . فلما قعدا من الغد للنظر قال عمرو : يا ابا موسى قد اخرجنا علياً ومعاوية من هذا الامر فسمّ له من شئت . فسمّى عدّة لا يرتضيهم عمرو . فعرف ابو موسى انه يتلعّب به .

ثم قال عمرو : ان هذا قد خلع صاحبه وانا ايضاً خلعت كما خلعت هذا الخاتم من يدي . وافترقا . وعزم عليّ المسير الى معاوية . وبايعه ستون الفاً على الموت . فشغلته الخوارج وقتلهم . واخذ معاوية في تسريب السرايا الى النواحي التي يليها عمال^٢ عليّ وشن الغارات وبعث جيشاً الى المدينة ومكّة . فبايعه بقية اهلها . ثم تعاهد ثلاثة نفر من الخوارج داود^٣ والبرك وابن ملجم ان يقتلوا عمرو بن العاص ومعاوية وعلياً ويريحوا العباد من أيمة الضلال . اما داود فانه أتى الى مصر ودخل المسجد وضرب خارجه

١- اصلاح ر صلاح .

٢- عمال ر اعمال .

٣- وروى زادويه وداوديه . وروى : عمرو بن بكير .

ابن حذافة قتلته وهو يظنه عمراً. وأخذ داوديه فقتل. وأما البرك فانه مضى الى الشام ودخل المسجد وضرب معاوية فقطع منه عرقاً فانقطع منه النسل. فأخذ البرك فقتلته ولا يولد لمعاوية. ففرض عنقه. وأما ابن ملجم فانه أتى الى الكوفة وسم سيفه وشحذه وجاء فبات بالمسجد. فدخل عليّ المسجد ونبّه النيام فركل ابن ملجم برجله وهو ملتفت بعباءة وفتح ركعتي الفجر. فأثاه ابن ملجم فضربه على ضلعه ولم تبلغ الضربة مبلغ القتل ولكن عمل فيه السم. فثار الناس اليه وقبضوا عليه. فقال عليّ: لا تقتلوه فان عشت رأيت فيه رأيي وان مت فشاؤنكم به. فعاش ثلثة ايام ثم مات يوم الجمعة لسبع عشرة من رمضان^١. فقتل ابن ملجم.

(الحسن بن عليّ بن ابي طالب) ثم بُويع الحسن بن عليّ بالكوفة. وبُويع معاوية بالشام في مسجد ايليا. فسار الحسن عن الكوفة الى لقاء معاوية. وكان قد نزل مسكين من ارض الكوفة. ووصل الحسن الى المدائن وجعل قيس بن سعد على مقدمته في اثني عشر الفاً. وقدم معاوية على مقدمته بشر بن ارطاة. فكانت بينه وبين قيس مناوشة. ثم تحاجزا وانتظروا الحسن. (قالوا) فنظر الحسن الى ما يسفك من الدماء ويتهك من المحارم فقال: لا حاجة لي في هذا الامر وقد رأيت ان أسلمته الى معاوية فيكون في عنقه تبعته وأوزاره. فقال له الحسين: انشدك الله ان تكون اول من عاب اباہ ورجب عن رأيه. فقال الحسن: لا بدّ من ذلك. وبعث الى معاوية يذكر تسليمه الامر اليه. فكتب اليه معاوية: اما بعد فأنت أول مني بهذا الامر لقرابتك وكذا وكذا. ولو علمت انك اضبط له وأحوط على حريم هذه الأمة وأكيد للعدو لبايعتك. فاسأل ما شئت. فكتب الحسن اموالاً وضياعاً واماناً لشيعه عليّ وأشهد على ذلك شهوداً من الصحابة. وكتب في تسليم الامر كتاباً. فالتقى معاوية مع الحسن على منزل من الكوفة ودخلا الكوفة معاً. ثم قال: يا ابا محمد جدت بشي لا تجود بمثله نفوس الرجال فقم وأعلم الناس بذلك. فقام الحسن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ايها الناس ان الله عزّ وجلّ هداناكم بأولنا وحقن دماءكم بأخرنا. وان معاوية نازعني حقاً لي دونه فرأيت ان امنع الناس الحرب وأسلمته اليه. وان لهذا الامر مدة. والدنيا دُول. فلما قالها قال له معاوية: اجلس. وحقدتها عليه. ثم قام خطيباً فقال: اني كنت شرطت شروطاً اردت بها نظام

١ - وكان عمره ثلاثاً وستين سنة ومدة خلافته اربع سنين وتسعة اشهر ويوماً واحداً. وللناس خلاف في مدة عمره وفي قدر خلافته

الالفه . وقد جمع الله كلمتنا وأزال فرقنا . فكل شرط شرطه فهو مردود . فقام الحسن وقال : ألا وأنا اخترت العار على النار . وسار الى المدينة وأقام بها الى ان مات سنة سبع واربعين من الهجرة^١ . وكانت خلافته خمسة اشهر .

(معاوية بن ابي سفيان) وصار الامر الى معاوية سنة اربعين من الهجرة . وكان ولياً لعمر وعثمان عشرين سنة . ولما سلم الحسن الامر اليه ولي الكوفة المغيرة بن شعبة وولّى البصرة وخراسان عبد الله بن عامر وولى المدينة مروان بن الحكم . وانصرف معاوية الى الشام فولى عبد الله بن حازم . ومات عمرو بن العاص بمصر يوم عيد الفطر فصلّى عليه ابنه عبد الله ثم صلى بالناس صلاة العيد . وكان معاوية قد اذكى العيون على شيعة عليّ فقتلهم ابن أصحابهم .

وفي سنة ست واربعين من الهجرة وهي سنة تسعمائة وسبع وثمانين^٢ للاسكندر ارسل سابور المتغلب على ارمانيا الى معاوية رسولاً اسمه سرجي يطلب منه النجدة على الروم . وارسل قسطنطين الملك ايضاً رسولاً الى معاوية لاندررا^٣ الخصي وهو من اخص خواصه . فأذن معاوية لسرجي ان يدخل اولاً فدخل ثم دخل اندرا . فلما رآه سرجي نهض له لانه كان عظيماً . فوبّخ معاوية لسرجي وقال : اذا كان العبد هالك فكيف مولاه . فقال سرجي : خدعت من العادة . ثم سأل معاوية لاندررا : لماذا جئت . فقال : الملك سيرني لثلاً تصغوا الى كلام هذا المتمرّد ولا يكون الملك والمملوك عندك بالسواء . فقال معاوية : كلّكم اعداء لنا . فأيكم زاد لنا من المال راعيناه . فلما سمع ذلك اندرا خرج . ومن الغد حضر وسرجي قد سبقه بالدخول . فلما دخل اندرا لم ينهض له . فشتمه اندرا فقال له : يا يوثوس استخففت بي . فمذّفه سرجي قذف المخائث . قال اندرا : سوف ترى . ثم اعاد كلامه الاول على معاوية فقال له معاوية : ان اعطيتمونا كل خراج بلادكم نبي لكم اسم المملكة والا ازحناكم عنها . قال اندرا : كأنك تزعم ان العرب هم الجسم والروم الخيال . نستعين بربّ السماء . ثم استأذن للرحيل وسار مجتازاً على ملطية . وتقدّم الى مستحفظي الثغور ان يكمنوا لسرجي في الطريق ويلزموه ويحملوه الى ملطية وينزعوا خصيتيه ويعلقوها في رقبته ثم يسمره . ففعلوا به كذلك .

١- قال الدميري : « كانت وفاته سنة تسع واربعين وقيل سنة خمسين » . وقال ابن الاثير : « في هذه السنة (اي سنة تسع واربعين) توفي الحسن بن علي سمته زوجته جملة بنت الاشعث الكندي » .

٢- والصواب : تسعمائة وتسع وسبعين . من تسعمائة وسبع وسبعين .

٣- لاندررا ر لاندر و لاندررا و اندرا من امة اندرا .

وقيل ان معاوية اول من خطب قاعداً لانه كان بطيناً بادناً . واول من قدّم الخطبة على الصلاة خشية ان يتفرق الناس عنه قبل ان يقول ما بدا له . ثم اخذ بيعة اهل المدينة ومكة ليزيد ابنه بالسيف وبايعه الشاميون ايضاً . ثم مات معاوية بدمشق في رجب سنة ستين وهو ابن ثمانين سنة . وبايع اهل الشام يزيد بن معاوية .

(يزيد بن معاوية) لما مات معاوية استدعى الوليد بن عتبة بن ابي سفيان وهو على المدينة الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزبير في جوف الليل ونعى اليهما معاوية واخذهما بالبيعة لابنه يزيد . فقالا : مثلنا لا يبايع سراً ولكن اذ نُصبح . وانصرفا من عنده وخرجا من تحت الليل الى مكة وأبيا ان يبايعا . وبلغ اهل الكوفة امتناعهما عن بيعة يزيد فكتبوا الى الحسين في القدوم عليهم . فأرسل الحسينُ مُسلم بن عَقيل بن ابي طالب الى الكوفة ليأخذ بيعة اهلها . فجاء واجتمع اليه خلق كثير من الشيعة يبايعون الحسين . وبلغ الخبر عبيد الله بن زياد وهو بالبصرة فتمّ الى الكوفة^١ . فسار اليه الشيعة وقتلوه حتى دخل القصر واغلق بابيه . فلما كان عند المساء وتفرق الناس عن مسلم بعث ابن زياد خيلاً في خفية فقبضوا عليه ورفعوه بين شرف القصر ثم ضربوا عنقه . ولما بلغ الخبر الحسين هم بالرجوع الى المدينة . وبعث اليه ابن زياد الحر بن يزيد التميمي في الف فارس . فلقى الحسين بزبالة وقال له : لم أؤمر بقتالك انما أمرت ان أقدمك الكوفة . فاذا أبيت فخذ طريقاً لا يدخلك الى الكوفة ولا يردك الى المدينة حتى اكتب الى ابن زياد . فتياسر عن طريق العذيب والقادسية والحرة يسايره حتى انتهى الى الغاضرية فنزل بها . وقدم عليه عمر بن سعد بن ابي وقاص في اربعة آلاف ومعه شمر ذو الجيوش فنزلوا بين نهري كربلاء وحرت الرسل بينهم وبين الحسين ومنعوه ومن معه الماء ان يشربوا وناهضهم القتال يوم عاشوراء وهو يوم الجمعة ومعه تسعة عشر انساناً من اهل بيته فقتل الحسين عطشاناً وقتل معه سبعة من ولد عليّ بن ابي طالب وثلاثة من ولد الحسين . وتركوا عليّ ابن الحسين لانه كان مريضاً . فنه عقب الحسين الى اليوم . وقتل من اصحابه سبعة وثمانون انساناً . وساقوا عليّ بن الحسين مع نسائه وبناته الى ابن زياد . فزعموا انه وضع رأس الحسين في طست^٢ وجعل ينكّ في وجهه بقضيب ويقول : ما رأيت مثل حسن هذا الوجه قط . ثم بعث به وبأولاده الى يزيد بن معاوية . فأمر نساءه وبناته فأقن

١- لما بلغ يزيد مراسلة اهل الكوفة الحسين عزل عنها النعمان بن بشير وأمر عليها عبيد الله بن زياد امير البصرة سابقاً واستخلف على البصرة عثمان بن زياد اخا عبيد الله .

٢- طست و طشت .

بلدحة المسجد حيث توقف الاسارى^١ لينظر الناس اليهم. وقتل الحسين سنة احدى وستين من الهجرة يوم عاشوراء وهو يوم الجمعة. وكان قد بلغ من السن ثمانياً وخمسين سنة. وكان يخضب بالسواد. ثم بعث يزيد بأهله وبناته الى المدينة. وللروافض في هذه القصة زيادات وتهاويل كثيرة. ولما احتضر يزيد بن معاوية بايع ابنه معاوية ومات وهو ابن ثمانين سنة. وكان ملكه ثلث سنين وثمانية اشهر.

(معاوية بن يزيد) ولما مات يزيد صار الامر الى ولده معاوية وكان قديراً لان عمر المقصوص كان علمه ذلك فدان به وتحققه. فلما بايعه الناس قال للمقصوص: ما ترى. قال: اما ان تعتدل او تعترزل. فخطب معاوية بن يزيد فقال: ان جدّي معاوية نازع الامر من كان اولى به واحق. ثم تقلده ابي. ولقد كان غير خليق به. ولا احب ان ألقى الله عزّ وجلّ بتبعاتكم. فشأنكم وأمركم ولّوه من شئتم. ثم نزل واغلق الباب في وجهه وتخلّى بالعبادة حتى مات بالطاعون. وكانت ولايته عشرين يوماً^٢. فوثب بنو أمية على عمر المقصوص وقالوا: انت افسدته وعلمته. فطمره ودفنوه حياً. واما ابن الزبير فلما مات يزيد دعا الناس الى البيعة لنفسه وادّعى الخلافة فظفر بالحجاز والعراق وخراسان واليمن ومصر والشام الأ الاردن^٣.

(مروان بن الحكم) بويع بالاردن سنة اربع وستين للهجرة وهو اول من اخذ الخلافة بالسيف. وسار اليه الضحاك بن قيس فاقتلوا بمرج راهط من غوطة دمشق. فقُتل الضحاك. وخرج سليمان بن صرد الخزاعي من الكوفة في اربعة آلاف من الشيعة يطلبون بدم الحسين فبعث اليه مروان بن الحكم عبيد الله بن زياد فالتقوا برأس العين فقُتل سليمان وتفرق اصحابه. ومات مروان بدمشق وكانت ولايته سبعة اشهر واياماً^٤. وبايع اهل الشام عبد الملك بن مروان.

• • •

قال ابن جلجل الاندلسي ان ماسرجويه الطيب البصري سرياني اللغة يهودي

١- الاسارى و اليسارى.

٢- وقيل كانت ولايته اربعين يوماً. وقيل: ثلاثة اشهر. ويروى انه مات مسموماً.

٣- وقيل تسعة اشهر وبعض شهر. وَاخير الفخري عن سبب موته قال: « كان مروان حين بويع قد تزوج أم خالد زوجة يزيد بن معاوية ليصغر بذلك شأن خالد فيسقط عن درجة الخلافة. فدخل خالد يوماً على مروان فقال له مروان: يا ابن الرطبة ونسبه الى الحمق ليصغر أمره عند اهل الشام. فخبيل خالد ودخل على أمه واخبرها بما قاله له مروان. فقالت: لا يعلمن احد انك اعلمتني وانا اكفيك. ثم ان مروان نام عندها ليلة فوضعت على وجهه وسادة ولم ترّفها حتى مات. واراد ابنه عبد الملك ان يقتلها فقيل له: يتحدث الناس ان اباك قتلته امرأة. فتركها ».

المذهب . وهو الذي تولى في ايام مروان تفسير كناش اهرن القس الى العربي . وحدث ايوب بن الحكم انه كان جالساً عند ماسرجويه اذ اتاه رجل من الخوز فقال : اني بليت بداء لم يُبيلَ احد بمثله . فسأله عن دائه . فقال : اُصبح وبصري مظلم عليّ وانا اصيب مثل لحس الكلاب في معدتي فلا تزال هذه حالي الى ان اطعم شيئاً فاذا طعمت سكن ما اجد الى وقت انتصاف النهار . ثم يعاودني ما كنت فيه . فاذا عاودت الأكل سكن ما بي الى وقت صلاة العتمة . ثم يعاودني فلا اجد له دواء الا معاودة الأكل . فقال له ماسرجويه : على دائك هذا غضب الله . فانه أساء لنفسه الاختيار حين قرنه بسفلة مثلك ولوددت ان هذا الداء تحوّل اليّ والى صبياني فكنت اعوّضك مما نزل بك مثل نصف ما أملك . فقال له الخوزي : ما أفهم عنك . قال ماسرجويه : هذه صحة لا تستحقها أسأل الله نقلها عنك الى من هو احقُّ بها منك .

(عبد الملك بن مروان) بويح سنة خمس وستين بالشام . واما ابن الزبير فبعث اخاه مصعباً على العراق . فقدم البصرة واعطاه اهلها الطاعة واستولى مصعب على العراقيين . فسار اليه عبد الملك بن مروان فالتقوا بسكين^١ . وقتل مصعب واستقام العراق لعبد الملك . وكان الحجاج بن يوسف على شرطه . فرأى عبد الملك من نفاذه وجلادته ما أعجب به ورجع الى الشام ولا هم له دون ابن الزبير . فأتاه الحجاج فقال : ابعثنى اليه فاني ارى في المنام كأني اقتله واسلخ جلده . فبعثه اليه . فقتله وسلخ جلده وحشاه تبناً وصلبه . وكانت فتنة ابن الزبير تسع سنين منذ موت معاوية الى ان مضت ست سنين من ولاية عبد الملك . وولي الحجاج الحجاز واليهامة . وباع اهل مكة لعبد الملك بن مروان . وزعم قوم ان الحجاج بلاءٌ صبه الله على اهل العراق . ولما قدم الكوفة دخل المسجد وصعد يوماً المنبر وسكت ساعة ثم نهض وقال : والله يا اهل العراق اني ارى رؤوساً قد اينعت وحان قطافها واني لصاحبها . فكأنني انظر الى الدماء من فوق العمام واللحى . وفي سنة سبعين للهجرة وهي سنة الف للاسكندر استجاش يوسطينيانوس ملك الروم على من بالشام من المسلمين . فصالحه عبد الملك على ان يوذي اليه كل يوم جمعة الف دينار . وقيل كل يوم الف دينار وفرساً ومملوكاً . وفي سنة ثلث وثمانين بنى الحجاج مدينة واسط . وفي سنة ست وثمانين توفي عبد الملك بن مروان . وكان يقول : اخاف الموت في شهر رمضان . فيه ولدت وفيه فطمت وفيه جمعت القرآن وفيه

١- في الكامل لابن الاثير : مسكن . وفي معجم البلدان : « سكن بفتح اوله وكسر ثانيه موضع بارض الكوفة عن العمري قال وفيه نظر . واخاف ان يكون اراد مسكين » .

بايع لي الناس . فمات في النصف من شوال حين امن الموت على نفسه . وكان ابن ستين سنة وكانت خلافته من لدن قتل ابن الزبير ثلث عشرة سنة .

واختصَّ بخدمة الحجاج بن يوسف تياذوق وثاودون الطيبان . اما تياذوق فله تلاميذ اجلاء تقدموا بعده ومنهم من أدرك الدولة العباسية ككفرات بن شحاننا في زمن المنصور . واما ثاودون فله كناش كبير عمله لابنه . وقيل دخل الى الحجاج يوماً فقال له الحجاج : اي شيء دواء اكل الطين . فقال : عزيمة مثلك ايها الامير . فرمى الحجاج بالطين ولم يعد الى اكله بعدها .

(الوليد بن عبد الملك) لما ولي الامر اقر العمال على النواحي . وفي ولايته خرج قتيبة بن مسلم الى ما وراء النهر . فجاشت الترك والسغد والشاش وفرغانة واحدقوا به اربعة اشهر . ثم هزمهم وافتتح بخارا . ثم مضى حتى اناخ على سمرقند فافتتحها صلحاً . وفي ايامه مات الحجاج . ذكروا انه اخذه السل وهجره النوم والرقاد . فلما احتضر قال لمنجم عنده : هل ترى ملكاً يموت . قال : نعم ارى ملكاً يموت اسمه كليب . فقال : انا والله كليب بذلك سمعتي أمي . قال المنجم : انت والله تموت كذلك دللت عليه النجوم . قال له الحجاج : لا قدمنك امامي . فأمر به فضرب عنقه . ومات الحجاج وقد بلغ من السن ثلثاً وخمسين سنة . وولي الحجاز والعراق عشرين سنة . وكان قتل من الاشراف والرؤساء مائة الف وعشرين الفاً سوى العوام ومن قتل في معارك الحروب . وكان مات في حبسه اً خمسون الف رجل وثلثون الف امرأة . ومات الوليد سنة ست وتسعين وكانت ولايته تسع سنين وثمانية اشهر . وبنى مسجد دمشق وكان فيه كنيسة فهدمها . وبنى مسجد المدينة والمسجد الاقصى . واعطى المخدمين ومنعهم من السؤال الى الناس . واعطى كل مُقعد خادماً وكل ضريبر قائداً . ومنع الكتاب النصارى من ان يكتبوا الدفاتر بالرومية لكن بالعربية . وفتح في ولايته الاندلس وكاشغر والهند . وكان يمرُّ بالبقال فيقف عليه يأخذ منه حزمة بقل فيقول : بكم هذا . فيقول : بفلس . فيقول : زد فيها . وكان صاحب بناء واتخاذ للمصانع والضياح . وقيل انه كان لحاناً لا يحسن النحو . دخل عليه اعرابي فتمَّ اليه بصهر له . فقال له الوليد : من ختنك بفتح النون . فقال : بعضُ اطباء . فقال سليمان : انما يُريد امير المؤمنين من ختنك وضمَّ النون . فقال الاعرابي : نعم فلان . وذكر ختنه . وعاتبه ابوه عبد الملك على ذلك وقال له : لا يلي العربَ الا من يُحسن كلامهم . فجمع أهل النحو ودخل بيتاً ولم يخرج منه ستة

شهر . ثم خرج وهو أجهل منه يوم دخله . فقال عبد الملك . قد أعذر .

(سليمان بن عبد الملك) وفي سنة ست وتسعين بُويع سليمان بن عبد الملك في اليوم الذي فيه مات الوليد اخوه . قالوا انه كان خيراً فصيحاً نشأ بالبادية عند اخواله بني عبس . وردّ المظالم وآوى المشترين وأخرج المحبس . وفي سنة ثمانى وتسعين من الهجرة وهي سنة الف وسبعة وعشرين للاسكندر جهز سليمان جيشاً مع اخيه مسلمة ليسير الى القسطنطينية . وسار حتى بلغها في مائة الف وعشرين الفاً وعبر الخليج وحاصر المدينة . فلما برح بأهلها الحصار ارسلوا الى مسلمة يعطونه عن كل رأس ديناراً . فأنى ان يفتتحها إلا عنوة . فقالت الروم للاون البطريق : ان صرفت عنا المسلمين ملكناك علينا . فاستوثق منهم وأتى مسلمة وطلب الامان لنفسه وذويه ووعد ان يفتح له المدينة غير انه ما يتبأ ذلك ما لم يتنح عنهم ليطمثوا ثم يكرّ عليهم . فارتحل مسلمة وتنحى الى بعض الرساتيق . ودخل لاون فلبس التاج وقعد على سرير الملك . واعتزل الملك ثاودوسوس ولبس الصوف منعكفاً في بعض الكنائس . ولأن مسلمة لما دنا من القسطنطينية أمر كل فارس ان يحمل معه مدين من الطعام على عجز فرسه الى القسطنطينية لما دخل لاون المدينة وتنحى مسلمة اعدّ لاون السفن والرجال فنقلوا في ليلة ذلك الطعام ولم يتركوا منه الا ما لم يُذكر واصبح لاون محارباً وقد خدع مسلمة خديعة لو كانت امرأة لعيبت بها . وبلغ الخبر لمسلمة فأقبل راجعاً ونزل بفناء القسطنطينية ثلثين شهراً فشتا فيها وصاف وزرع الناس . ولقي جنده ما لم يلقه جيش آخر حتى كان الرجل يخاف ان يخرج من العسكر وحده من البلغاريين الذين استجاشهم لاون ومن الافرنج الذين في السفن ومن الروم الذين يحاربونهم من داخل . وأكلوا الدواب والجلود واصول الشجر والورق . وسليمان بن عبد الملك مقيم بدابق ونزل الشتاء فلم يقدر ان يمدهم حتى مات لعشر بقين من صفر سنة تسع وتسعين . فرحل مسلمة عن القسطنطينية وانصرف وكانت خلافته اعني سليمان سنتين وثمانية اشهر . وكان بايع ابنه ايوب فمات قبله فاستخلف عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم . ولما احتضر سليمان قيل له : اوص . قال : ان بني صبية صغار . افلح من كانت له كبار .

(عمر بن عبد العزيز) لما استخلف عمر بن عبد العزيز^١ وبُويع له صعد المنبر وأمر بردّ المظالم ووضع اللعنة عن أهل البيت وكانوا يعنونهم على المنابر وحض على

١ - ويلقب بالأشج لشجته كانت في وجهه من رَمع دابة .

التقوى والتواصل وقال: واهه ما اصبحت وليا على أحد من أهل القبلة موجدة الأ على اسراف ومظلمة . ثم تصدق بثوبه ونزل . وتوفي عمر بن عبد العزيز في رجب لحمس بقين منه سنة احدى ومائة . وكانت شكواه عشرين يوماً^١ . ولا مرض قيل له : لو تداويت . فقال : لو كان دوائي في مسح أذني ما مسحها نيم المذهب اليه ربي . وكان موته بدير سمعان ودُفن به . وكانت خلافته سنتين وخمسة اشهر . وكان عمره تسعاً وثلاثين سنة . قال مسلمة بن عبد الملك : دخلت على عمر أعوده فاذا هو على فراش من ليف وتحتة وسادة من أديم مسجى بشملة ذابل الشفة كاسف اللون وعليه قميص وسخ . فقلت لاختي فاطمة وهي امرأته : اغسلوا ثياب امير المؤمنين . فقالت : تفعل . ثم عدت فاذن القميص على حاله . فقلت : ألم آمركم ان تغسلوا قميصه . فقالت : والله ما له غيره . فسبحت لله وبكيت وقلت : يرحمك الله لقد خوَّفنا بالله عزّ وجلّ وأبقيت لنا ذكراً في الصالحين . قيل وكانت نفقته كل يوم درهمين . وفي ايامه تحركت دولة بني هاشم .

(يزيد بن عبد الملك) يكنى ابا خالد . عاشر بني مروان . ولا ولي الامر استعمل على العراقيين وخراسان عمر بن هبيرة الفزاريّ وبعث مسلمة بن عبد الملك لقتال يزيد ابن المهلب . فقتله وبعث برأس يزيد الى يزيد وكان يزيد بن عبد الملك صاحب لهُو وقصيفٍ وشُغف بحبابة المغنية واشتهر بذكراها . وقيل كان يزيد قد حجّ ايام سليمان اخيه فاشترى حباية باربعة آلاف دينار فقال سليمان : لقد هممت ان أحجر على يزيد . فلما سمع يزيد ردّها فاشترها رجل من اهل مصر . فلما أفضت الخلافة اليه قالت له امرأته سعدة : هل بقي من الدنيا شيءٌ تمناه . فقال : نعم حباية . فأرسلت فاشترتها وصنعها وأتت بها يزيد واجلسها من وراء الستر فقالت : يا امير المؤمنين أبتى من الدنيا شيءٌ تمناه . قال : قد اعلمتك . فرفعت الستر وقالت : هذه حباية . وقامت وتركها عنده . فحظيت سعدة عنده واكرمها . وقال يوماً وقد طرب بغناء حباية : دعوني أطير . وأهوى ليطير . فقالت : يا امير المؤمنين ان لنا فيك حاجة . فقال : والله لأطيرن . فقالت : فعلى من تدع الأمة والملك . قال لها : عليكِ والله . وقبّل يدها . فخرج بعض خدمه وهو يقول : سخنت عينك ما اسخفك . وخرجت معه الى ناحية الاردن يتزهران . فرماها

١- ولي ر وبى .

٢- قال ابو الفداء : « كان موته بالسم عند اكثر اهل التاريخ . فان بني أمية علموا انه اذا امتدت ايامه اخرج الامر من ايديهم وانه لا يعهده بعده الا لمن يصلح للامر فجالجوه وما امهلوه » .

مجة عنب فاستقبلتها بفيها فدخلت حلقها فشرقت ومرضت بها وماتت . فتركها ثلاثة ايام لا يدفنها حتى تنتت وهو يشتمها ويقبلها وينظر اليها ويبكي . فلما دُفنت بقي بعدها خمسة عشر يوماً ومات ودُفن الى جانبها سنة خمس ومائة . وكانت ولايته اربع سنين وشهراً وله اربعون سنة .

(هشام بن عبد الملك) وفي هذه السنة استخلف هشام بن عبد الملك لليال يقين من شعبان . وكان عمره يومئذ اربعاً وثلثين سنة . اتاه البريد بالخاتم والقضيب وسلم عليه بالخلافة وهو بالرصافة . فركب منها حتى أتى دمشق . وفي ايامه خرج زيد بن علي ابن الحسين بن علي بن ابي طالب فقدم الكوفة وأسرت اليه الشيعة وقالوا: لئرجو ان يكون هذا الزمان الذي تهلك فيه بنو أمية . وجعلوا يباعدونه سراً . وبايعه اربعة عشر الفاً على جهاد الظالمين والرفع عن المستضعفين . وبلغ الخبر يوسف بن عمر وهو امير البصرة فجذب في طلب زيد . وتواعدت الشيعة بالخروج وجاءوا الى زيد فقالوا: ما تقول في ابي بكر وعمر . قال: ما اقول فيها الا خيراً . فتهربوا منه ونكثوا بيعته وسعوا به الى يوسف . فبعث في طلبه قوماً . فخرج زيد ولم يخرج معه الا اربعة عشر رجلاً . فقال: جعلتموها حُسينية . ثم نأوشهم القتال . فأصابه سهم بلغ دماغه فحمل من المعركة ومات تلك الليلة ودُفن . فلما اصبحوا استخرجوه من قبره فصلبوه . فأرسل هشام الى يوسف: احرق عجل العراق . فأحرقه . وهرب ابنه يحيى حتى أتى بلخ . قيل كان هشام محشواً عقلاً . وتفقد هشام بعض ولده فلم يحضر الجمعة . فقال: ما منعك من الصلاة . قال: نفقت دابتي . قال: أفعجرت عن المشي . فنهه الدابة سنة . وأتى هشام برجل عنده قيان وخمر وبربط . فقال: اكسروا الطنبور على رأسه . فبكى الرجل لما ضربه . فقيل: عليك بالصبر . فقال: أتراني ابكي للضرب بل انما ابكي لاحتقاره البربط اذ سماه طنبوراً . وقيل: وكتب اليه بعض عماله: قد بعثت الى امير المؤمنين بسلة دراقن . فكتب اليه: قد وصل الدراقن فأعجبنا فزد منه واستوثق من الوعاء . وكتب الى عامل آخر قد بعث بكماة: قد وصلت الكماة وهي اربعون وقد تغير بعضها . فاذا بعثت شيئاً فأجد حشوها في الظرف بالرمل حتى لا يضطرب ولا يصيب بعضها بعضاً . وقيل له: اتطمع في الخلافة وانت بجحيل جبان . قال: ولم لا اطمع فيها وانا حلیم عفيف . ومات

هشام بالرصافة سنة خمس وعشرين ومائة . وكانت ولايته عشرين سنة وعمره خمساً وخمسين سنة وكان مرضه الذبحمة .

• • •

قيل اول من قدم خراسان من دعاة بني العباس سنة تسع ومائة زياد في ولاية أسد بعثه محمد الامام ابن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب وقال له : الطف بمُضَر. ونهاه عن رجل من نيسابور يقال له غالب لانه كان مفرطاً في حب بني فاطمة . فلما قدم زياد دعا الى بني العباس وذكر سيرة بني أمية وظلمهم . وقدم عليه غالب وتناظرا في تفضيل آل علي وآل العباس واقتربا . وأقام زياد بمرو . ورُفِع أمره الى أسد وخوف من جانبه فأحضره وقتله وقتل معه عشرة من اهل الكوفة . وفي سنة ثمانى عشرة ومائة توجه عمّار ابن يزيد الى خراسان ودعا الى محمد بن علي بن عبد الله ابن عباس . فأطاعه الناس وتسمى بخداش وأظهر دين الحرّمية^١ ورخص لبعضهم في نساء بعض وقال لهم : انه لا صوم ولا صلاة ولا حج . وان تأويل الصوم ان يصام عن ذكر الامام فلا يباح باسمه . والصلاة فالدعاء له والحج فالقصد اليه .

(الوليد بن يزيد بن عبد الملك) كان يزيد ابوه عقد ولاية العهد له بعد اخيه هشام ابن عبد الملك . فلما ولي هشام اخو يزيد اكرم الوليد بن يزيد حتى ظهر من الوليد مجون وشرب الشراب وتهاون بالدين واستخف به . فتنكّر له هشام وأصرّ به وكان يعتبه ويتنقصه ويقصر به . فخرج الوليد ومعه ناس من خاصته ومواليه فنزل بالازرق . وكان يقول لاصحابه : هذا المشؤوم قدّمه ابي على أهل بيته فصيرّه ولي عهده ثم يصنع بي ما ترون لا يعلم ان لي في احد هوّى الا عبث به . ولم يزل الوليد مقيماً في تلك البرية حتى مات هشام . وأتاه رجلان على البريد فسلا عليه بالخلافة . فوجم ثم قال : أمات هشام . فقالا : نعم . فأرسل الى الخزان فقال : احتفظوا بما في ايديكم . فأفاق هشام فطلب شيئاً . فنعموه . فقال : انا لله كأننا كنا خزاناً للوليد . ومات في ساعته . وخرج عياض كاتب الوليد من السجن ففتح ابواب الخزان وأنزل هشاماً عن فراشه . وما وجدوا له قفماً يسخن له فيه الماء حتى استعاروه . ولا وجدوا كفنّاً من الخزان . فكفّته غالب مولاه . وضيّق الوليد على اهل هشام واصحابه وكان يقول : كلناهُ بالصاع الذي كاله وما ظلّمناه به اصعباً . فلما ولي الوليد أجرى على زمني اهل الشام وعميانهم وكساهم وأخرج

١- عمار و عمان .

٢- الحرّمية و الحرامية .

لعائلات الناس الطيب والكسوة وزاد الناس في العطاء عشرات ولم يقل في شيء يسأله : لا . ثم عقد لابنيه الحكم وعثمان البيعة من بعده وجعلها وليي عهده احدهما بعد الآخر . وفي هذه السنة اعني سنة خمس وعشرين ومائة قُتل يحيى بن زيد بن علي بن الحسين ابن علي ابن ابي طالب بيجران وصلب ثم أنزل وأحرق ثم رُضَّ وحمل في سفينة وُدُرَّ في الفرات . وفيها قُتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك قتله ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك وكان سبب قتله ما تقدم من خلاعته ومجانته . فلما ولي الخلافة ولم يزد من الذي كان فيه من اللهو والركوب للصيد وشرب الخمر ومنادمة الفساق الا تماًدياً نقل ذلك على رعيته وجنده وكرهوا امره . ولما حاصروه في قصره دنا من الباب وقال لهم : ألم أزد في اعطياتكم ا ألم ارفع المؤن عنكم . ألم أعط فقراءكم . فقالوا : انا ما ننقم عليك في انفسنا انما ننقم عليك في انتهاك ما حرم الله وشرب الخمر ونكاح امهات اولاد ابيك . قال : حسبكم فلعمري لقد اكثرتم واغرقتم والله لا يرتق فتقكم ولا يُلم شعثكم ولا تجمع كلمتكم . فنزل من الحائط اليه عشرة رجال فاحتزوا رأسه وسيروه الى يزيد . فنصبه على رمح وطاف به بدمشق . وسجن ابنه الحكم وعثمان . وكان قتله لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة . وكانت مدة خلافته سنة وثلاثة اشهر . وكان عمره اثنتين واربعين سنة .

* * *

وفي هذه السنة وجّه ابراهيم بن محمد الامام ابا الهاشم بكبير الى خراسان . فقدم مرو وجمع النقباء والدعاة فنعى لهم محمد الامام ودعاهم الى ابنه ابراهيم الامام . فقبلوه ودفعوا اليه ما اجتمع عندهم من نفقات الشيعة شيعة بني العباس .

(يزيد بن الوليد بن عبد الملك) سُمي الناقص لانه نقص الزيادة التي كان الوليد زادها في عطيات الجند . وكان محمود السيرة مرضي الطريقة . أمر بالبيعة لاخيه ابراهيم ومن بعده لعبد العزيز بن الحجّاج بن عبد الملك . وتوفي بدمشق لعشر بقين من ذي الحجة سنة ست وعشرين ومائة . وكانت خلافته ستة اشهر . وكان عمره ستاً واربعين سنة . وكانت أمّه أم ولد اسمها شاه فرند ابنة فيروز ابن يزدجرد بن شهريار بن كسرى وهو القائل :

انا ابن كسرى وابي مروانُ وقبصر جدّي وجدّي خاقانُ

١- اعطياتكم ر عطياتكم .

٢- فرند ر فريد .

وانما جعل قيصر وخاقان جدّيه لأنّ أمّ فيروز ابنة كسرى وأمّها ابنة قيصروا
كسرى ابنة خاقان ملك الترك .

(ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك) فلما مات يزيد بن الوليد قام بالامر اخوه ابراهيم
بعده غير انه لم يتم له الامر وكان يسلم عليه تارةً بالخلافة وتارةً بالامارة وتارةً لا يسلم
عليه بواحدة منهما . فمكث سبعين يوماً ثم سار اليه مروان بن محمد فخلعه . ثم لم يزل
حيّاً حتى أصيب سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

(مروان بن محمد بن مروان بن الحكم)^١ لما مات يزيد بن الوليد بن عبد الملك
سار مروان في جنود الجزيرة الى الشام لمحاربة ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك . ولما دخل
دمشق أتى بالغلامين الحكم وعثمان ابني الوليد بن يزيد بن عبد الملك مقتولين فدقتهما
وبايعه الناس . فلما استقرّ له الامر رجع الى منزله بجرّان فطلب منه الامان لابراهيم
ابن الوليد وسليمان بن هشام بن عبد الملك فأمتنهما . وفي هذه السنة اعني سنة سبع وعشرين
ومائة حارب سليمان بن هشام بن عبد الملك مروان بن محمد وانهزم اصحاب سليمان وقُتل
منهم نحو ستة آلاف . وفيها توجه سليمان بن كثير ولاهز بن قريظ وقحطبة الى مكة
فلقوا ابراهيم بن محمد الامام بها واوصلوا الى مولّي له عشرين الف دينار وماتت الف
درهم ومسكاً ومتاعاً كثيراً . وكان معهم ابو مسلم^٢ . فقال سليمان لابراهيم الامام : هذا
مولاك . فأمر ابراهيم ابا مسلم على خراسان . وفي سنة تسع وعشرين ومائة بعث ابراهيم
الامام الى ابي مسلم بلواء يدعى الظل وراية تدعى السحاب فعهدهما على رعيين واطهر
الدعوة العباسية بخراسان وتأول الظل والسحاب ان السحاب يطبق الارض وكما ان الارض
لا تخلو من الظل كذلك لا تخلو من خليفة عباسي آخر الدهر . وفي سنة احدى وثلاثين
ومائة حجّ ابراهيم بن محمد الامام ومعه اخواه ابو العباس وابو جعفر وولده وعنه ومواليه
على ثلاثين نجيباً عليهم الثياب الفاخرة والرحال والانتقال . فشهره اهل الشام واهل البوادي
والحرمين معاً انتشر في الدنيا من ظهور امرهم . وبلغ مروان خبر حجهم فكتب الى
عامله بدمشق يأمره بتوجيه خيل اليه . وكان مروان بأرض الشام . ووجه العامل خيلاً

١- ويقال له الحمدي : ويقال له الحمار . وقيل لقب بالحمار لانه آخر الخلفاء الامويين لان الحمار يراد به
الآخر . وفي التاريخ السرياني انه لقب بهذا اللقب لكلفه زهر الزعفران لان هذا الزهر يسمى الحمار .
قيل لقب بالحمار لصبره في الحرب .

٢- قيل ان ابا مسلم حر من ولد بزرجمهر وانه ولد باصهبان ونشأ بالكوفة . فانصل بابراهيم الامام فغير اسمه
وكناه بابي مسلم .

فهمجوا على ابراهيم فأخذوه وحملوه الى سخن حران فأثقلوه بالحديد وضيقوا عليه الحلقة حتى مات^١. ولما احس ابراهيم بالطلب أوصى الى اخيه ابي العباس ونعى نفسه اليه وأمره بالمسير الى الكوفة بأهل بيته. فسار معه اخوه ابو جعفر وعمه وستة رجال حتى قدموا الكوفة مستخفين.

(ابو العباس السفاح) وفي سنة اثنتين وثلاثين ومائة خرج ابو العباس بن محمد الامام بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ليلة الجمعة لاثنتي عشرة خلت من ربيع الاول من دار ابي مسلمة^٢ بالكوفة فصلى المغرب في مسجد بني ايوب ودخل منزله. فلما اصبح غدا عليه القواد في التعبية والهيئة وقد اعدوا له السواد والمركب والسيف. فخرج ابو العباس فيمن معه الى القصر الذي للامارة. ثم خرج الى المقصورة وصعد المنبر وبايعه الناس. ثم وجه عمه عبدالله الى مروان وهو نازل بالزاب. فواقع عبدالله مروان فهزمه. فرّ مروان على وجهه ومضى فعبر جسر الفرات فوق حران وجمع جمعاً عظيماً بنهر فطرس من ارض فلسطين. وعبر ايضاً عبدالله الفرات وحاصر دمشق حتى افتتحها وقتل من بها من بني أمية وهدم سورها حجراً حجراً ونبش عن قبور بني أمية واحرق عظامهم بالنار. ثم ارتحل نحو مروان فهزمه واستباح عسكره. وهرب مروان الى ارض مصر فاتبعه جيش عبدالله واستدلّوا عليه وهو في كنيسة في بوصير قطعنه رجل فصرعه واحتز آخر رأسه وبعث به الى ابي العباس السفاح. وكان قتله ليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة. وفي سنة ست وثلاثين ومائة مات السفاح بالانبار مدينته التي بناها واستوطنها لثلاث عشرة سنة مضت من ذي الحجة بالجدري. وكان له يوم مات ثلث وثلاثون سنة. وكانت ولايته من لدن قتل مروان اربع سنين. وكان ابو العباس رجلاً طويلاً^٣ ابيض اللون حسن الوجه يكره الدماء ويحامي^٤ على اهل البيت (ابو جعفر المنصور) هو عبدالله بن محمد الامام بن علي بن عبدالله بن العباس بويق له سنة سبع وثلاثين ومائة. وفي هذه السنة قُتل ابو مسلم الخراساني قتله المنصور بسبب انها حجاً معاً في ايام السفاح. وكان ابو مسلم يكسو الاعراب ويصلح الآبار والطرق. وكان الذكر له. فحقد ابو جعفر ذلك عليه. ولما صدر الناس عن الموسم تقدم ابو مسلم في الطريق على ابي جعفر فأتاه خبر وفاة السفاح فكتب الى ابي جعفر يعزيه

١- وقيل انه مات مسوياً

٢- مسلمة ر سلمة.

٣- طويلاً ر طولاً.

٤- يحامي ر يحابي.

عن اخيه ولم يهنه بالخلافة ولم يُقَمَّ حتى يلحقه ولم يرجع اليه . فخافه ابو جعفر المنصور واجمع الرأي وعمل المكاييد وهجر النوم الى ان اقتنصه . وكان ابو مسلم استشار رجلاً من اصحابه بالرأي في رجوعه الى المنصور فقال : لا أرى ان تأتيه وارى ان تمتد الى خراسان . فلما لم يقبل منه وسار نحو المنصور قيل له : تركت الرأي بالرأي فذهب مثلاً . فلما دنا ابو مسلم من المنصور امر الناس بتلقيه واكرامه غاية الكرامة . ثم قدم فدخل على المنصور وقبل يده . فأمره أن ينصرف ويروح نفسه ليلته ويدخل الحمام . فانصرف . فلما كان من الغد أعد المنصور من اصحاب الحرس اربعة نفر واكنهم خلف الرواق وقال لهم : اذا انا صفقت بيدي فشأنكم . وأرسل الى ابي مسلم يستدعيه ودخل على المنصور فأقبل عليه يعاتبه ويذكر عثرته . فما عدَّ عليه ان قال : ألتست الكاتب اليّ تبدأ بنفسك . ودخلت الينا وقلت : ابن ابن الحارثية . ويأتيك كتابي فتقرأه استهزاءً ثم تلقيه الى مالك ابن الهيثم ويقراه وتضحكان . فجعل ابو مسلم يعنذر اليه ويقبل الارض بين يديه . فقال المنصور : قتلي الله ان لم اقتلك . وشفق بيديه فخرج الحرس يضربونه بسيوفهم وهو يصرخ ويستأمن ويقول : استبقيني لعدوك يا امير المؤمنين . فقال له المنصور : وائي عدو لي أعدى منك . وقيل كانت عند ابي مسلم ثلث نسوة وكان لا يطأ المرأة منهم في السنة الا مرة واحدة . وكان من أغبر الناس لا يدخل قصره احد غيره وفيه كوى يطرح منها لنسائه ما يحتجن اليه . قالوا ليلة زفت اليه امرأته أمر بالبرذون الذي ركبته فذبح وأحرق سرجه لثلا يركبه ذكر بعدها . قالوا وكان من اشد الناس طمعاً واكثرهم طعماً يخبز كل يوم في مطبخه ثلثة آلاف قرف ويطبخ مائة شاة سوى البقر والطيور . وكان له الف طبّاخ وآلة المطبخ تحمل على الف وماتني رأس من الدواب . وقيل كان ابو مسلم شجاعاً ذا رأي وعقل وتدبير وحزم ومروءة . وقيل بل كان فاتكاً قليل الرحمة قاسي القلب سوطه سيفه قتل ستمائة الف ممن يُعرف صبراً سوى من لا يُعرف ومن قُتل في الحروب والهيجات . وسئل بعضهم : ابو مسلم كان خيراً او الحجاج . قال : لا اقول ان ابا مسلم خير من احد ولكن الحجاج كان شراً منه . وزعم قوم ان ابا مسلم كان من قرية من قرى مرو . ويقال : بل كان من العرب سمع الحديث وروى الاشعار . وقيل كان عبداً . وقد نسبة بعض الشعراء الى الاكراد حين هجاه . وفي سنة اربعين ومائة سير المنصور عبد الوهاب ابن اخيه ابراهيم بن محمد الامام في سبعين الف مقاتل الى ملطية . فنزلوا عليها وعمرها ما كان خربة الروم منها . ففرغوا من العمارة في ستة اشهر . واسكنها المنصور اربعة آلاف من الجنود واكثر فيها من السلاح والذخائر وبنى حصن

قلوذية. وفي هذه السنة خرج الراوندية على المنصور بمدينة الهاشمية وهم قوم من اهل خراسان يقولون بتناسخ الارواح ويزعمون ان ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو المنصور. وجعلوا يطوفون بقصره ويقولون: هذا قصر ربنا. فأنكر ذلك المنصور وخرج اليهم ماشياً اذ لم يكن في القصر دابة. ونودي في اهل السوق فاجتمعوا وحملوا عليهم وقتلوهم فقتلوا اعني الراوندية جميعاً وهم يومئذ ستمائة رجل. وفي السنة الرابعة والاربعين أخذ المنصور من اولاد الحسين بن علي بن ابي طالب اثني عشر انساناً ورحلهم من المدينة الى الكوفة وحبسهم في بيت ضيق لا يمكن احد من مقعده يبول بعضهم على بعض ويتغوط ولا يدخل عليهم روح الهواء ولا تخرج عنهم رائحة القذارة حتى ماتوا عن آخرهم. فخرج محمد^١ بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب بالمدينة وجمع الجموع وتسمى بالمهدي. وخرج ابراهيم اخوه بالبصرة في ثلثين الفاً. وقتلوا ولم ينجحوا. وفي سنة خمس واربعين ومائة ابتداء المنصور في بناء عمارة مدينة بغداد. وسبب ذلك انه كان قد ابنتى الهاشمية بناحي الكوفة. فلما ثارت الراوندية به فيها كره سُكناها لذلك وجوار اهل الكوفة ايضاً فانه كان لا يأمن اهلها على نفسه وكانوا قد افسدوا جنده. فخرج بنفسه يرتاد موضعاً يسكنه هو وجنده. فقال له اهل الحدق: انا نرى يا امير المؤمنين ان يكون على الصراة^٢ وبين انهار لا يصل اليك عدوك الا على جسر فاذا قطعته لم يصل اليك. وانت متوسط للبصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد. ودجلة والفرات والصراة خنادق مدينتك. وتحيثك الميرة فيها من البر والبحر. فازداد المنصور حرصاً على النزول في ذلك الموضع. ولما عزم على بناء بغداد أمر بنقض المذائن وابوان كسرى. فنقضه ونقله الى بغداد. فنقضت ناحية من القصر الابيض وحمل نقضه. فنظر وكان مقدار ما يلزمهم له اكثر من ثمن الحديد فأعرض عن الهدم. وجعل المدينة مدورة لثلاثاً يكون بعض الناس اقرب الى السلطان من بعض. وعمل لها سورين الداخل اعلى من الخارج. وبنى قصره في وسطها والمسجد الجامع بجانب القصر وقبلته غير

١- وكان يدعى بالنفس الزكية لزهده ونسكه.

٢- قال ياقوت في معجم البلدان: « صراة نهران ببغداد الصراة الكبرى والصراة الصغرى ولا اعرف انا الا واحدة وهو نهر يأخذ من نهر عيسى من عند بلدة يقال لها المحول بينها وبين بغداد فرسخ ويسى ضياع بادوريا ويتفرع منه انهار الى ان يصل الى بغداد فيمر بقنطرة العباس ثم قنطرة الصبيبات ثم قنطرة رحا البطريق ثم القنطرة العتيقة ثم القنطرة الجديدة ويصب في دجلة ولم يبق عليه الآن الا القنطرة العتيقة والجديدة يحمل من الصراة هر يقال له خندق طاهر بن الحسين اوله اسفل من فوهة الصراة يدور حول مدينة السلام مما يلي الحربية وعليه قنطرة باب الحرب ويصير في دجلة امام باب البصرة من مدينة المنصور. واما اهل الاثر فيقولون: الصراة العظمى حفرها بنو ساسان بعد ما ابادوا النبط.»

مستقيمة يحتاج المصلّي ان ينحرف الى باب البصرة . وكانت الاسواق في مدينته فجاءه رسول الملك الروم . فأمر الربيع فطاف به في المدينة . فقال : كيف رأيت . قال : رأيت بناء حسناً الا اني رأيت اعداءك معك وهم السوقة . فلما عاد الرسول عنه أمر باخراجهم الى ناحية الكرخ وأمر ان يُجعل في كل ربع من مدينته بقال يبيع البقل واخزل حسب . في سنة خمسين ومائة مات ابو حنيفة النعمان بن ثابت الامام . وفي سنة ثمانى وخمسين ومائة سار المنصور من بغداد ليحجّ فنزل قصر عبدويه فانقضّ في مقامه هناك كوكب بعد اضاءة الفجر وبقي اثره بيتاً الى طلوع الشمس . فأحضر المهدي ابنه وكان قد صحبه ليوذعه فوصه بالمال والسلطان . وقال له ايضاً : اوصيك بأهل بيتك ان تظهر كرامتهم فانّ عزك عزهم وذكرهم لك وما اظنك تفعل . وانظر مواليك وأحسن اليهم واستكثر منهم فانهم مادتك لشدة ان نزلت بك وما اظنك تفعل . وانظر هذه المدينة واياك ان تبني المدينة الشرقية فانك لا تتم بناءها واظنك ستفعل . واياك ان تدخل النساء في امرك واظنك ستفعل . هذه وصيتي اليك والله خليفتي عليك . ثم ودّعه وبكى كل منهما الى صاحبه . ثم سار الى الكوفة وكلما سار منزلاً اشتد وجعه الذي مات به وهو القيام . فلما وصل الى بئر ميمون مات بها مع السحر لست خلون من ذي الحجة سنة ثمانى وخمسين ومائة . وحمل الى مكة وحفروا له مائة قبر ليعموا على الناس ودُفن في غيرها مكشوف الرأس لاحرامه وكان عمره ثلاثاً وستين سنة وكانت مدة خلافته اثنتين وعشرين سنة . وقيل في صفته وسيرته انه كان اسمر نحيفاً خفيف العارضين وكان من احسن الناس خلقاً ما لم يخرج الى الناس واشدّهم احتمالاً لما يكون من عبث الصبيان . فاذا لبس ثيابه وخرج هابه الاكابر فضلاً عن الاصاغر . ولم يُر في داره لهُ ولا شيء من اللعب والعبث . قال حماد التركي : كنت واقفاً على رأس المنصور فسمع جلبة فقال : انظر ما هذا . فذهبت فاذا خادم له قد جلس وحوله الجوارى وهو يضرب لهن بالطنبور وهنّ يضحكن فأخبرته فقال : واي شيء الطنبور . فوصفته له . فقال : ما يُدريك انت ما الطنبور . قلت : رأيت بخراسان . فقام ومشى اليهنّ . فلما رأينه تفرّقن . فأمر بالخادم فضرب رأسه بالطنبور حتى تكسّر الطنبور وأخرجه فباعه . ولما افضى اليه الامر أمر بتغيير الزى وتطويل القلانس . فجعلوا يحتلون لها بالقصب من داخل . وأمر بعدد دور اهل الكوفة وقسمة خمسة دراهم على كل دار . فلما عرف عددهم جباهم اربعين درهماً اربعين درهماً .

وكان المنصور في صدر امره عندما بنى بغداد ادركه ضعف في معدته وسوء استمراء وقلة شهوة . وكلما عالجها الاطباء ازداد مرضه . فقيل له عن جيورجيس بن بختيشوع الجنديسابوري انه افضل الاطباء . فتقدم باحضاره . فأنفذه العامل بجنديسابور بعد ما اكرمه . فخرج ووصى ولده بختيشوع بالبهارستان واستصحب معه تلميذه عيسى ابن شهلائثا ولما وصل الى بغداد أمر المنصور باحضاره . فلما وصل الى الحضرة دعا له بالفارسية والعربية . فعجب المنصور من حسن منطقه ومنظره وأمره بالجلوس وسأله عن اشياء فأجابه عنها بسكون . وخبره بمرضه . فقال له جيورجيس : انا ادبرك بمشيئة الله وعونه . فأمر له في الوقت بلعلة جليلة وتقدم الى الربيع بانزاله في اجمل موضع من دوره واكرامه كما يكرم اخص الاهل . ولم يزل جيورجيس يتلطف له في تدبيره حتى برئ من مرضه وفرح به فرحاً شديداً . وقال له يوماً : من يخدمك ههنا . قال : تلامذتي . فقال له الخليفة : سمعت انه ليست لك امرأة . فقال : لي زوجة كبيرة ضعيفة لا تقدر على النهوض من موضعها . وانصرف من الحضرة ومضى الى البيعة . فأمر المنصور خادمه سالماً ان يحمل من الجوارى الروميات الحسان ثلاثاً الى جيورجيس مع ثلاثة آلاف دينار . ففعل ذلك . فلما انصرف جيورجيس الى منزله عرفه عيسى بن شهلائثا تلميذه بما جرى وأراه الجوارى . فأنكر أمرهن وقال لعيسى : يا تلميذ الشيطان لم ادخلت هؤلاء الى منزلي . اردت ان تنجسني . امض وردهن على اصحابهن . فمضى الى دار الخليفة وردهن على الخادم . فلما اتصل الخبر الى المنصور احضره وقال له : لم رددت الجوارى . قال : لا يجوز لنا معشر النصارى ان نتزوج بأكثر من امرأة واحدة وما دامت المرأة حية لا نأخذ غيرها . فحسن موقع هذا من الخليفة وزاد موضعه عنده . وهذا ثمرة العفة . ولما كان في سنة اثنتين وخمسين ومائة مرض جيورجيس مرضاً صعباً . ولما اشتد مرضه أمر المنصور بحمله الى دار العامة وخرج ماشياً اليه وتعرف خبره . فخبّره وقال له : ان رأى امير المؤمنين ان يأذن لي في الانصراف الى بلدي لانظر اهلي وولدي وان مت قُبرت مع آبائي . فقال له : يا حكيم اتق الله وأسلم وانا اضمن لك الجنة . قال جيورجيس قد رضيت حيث آبائي في الجنة او في النار . فضحك المنصور من قوله ثم قال : اني منذ رأيتك وجدت راحة من الامراض التي كانت تعتادني . فقال جيورجيس : انا اخلف بين يدي امير المؤمنين عيسى تلميذي فهو ماهر . فأمر لجيورجيس بعشرة آلاف دينار واذن له بالانصراف وانفذ معه خادماً وقال : ان مات في الطريق فاحمله

الى منزله ليدفن هناك كما احب . فوصل الى بلده حياً . ثم أمر المنصور باحضار عيسى ابن شهلائثا. فلما مثل بين يديه سأله عن اشياء فوجده ماهراً فاتخذته طبيباً . ولما استصحبه المنصور بدأ في التشاور والأذية خاصة على المطارنة والاساقفة ومطالبتهم بالرشى . ولما خرج المنصور في بعض اسفاره وصل الى قريب نصيبين . فكتب عيسى الى قوفريان مطران نصيبين يتهدده ويتوعده ان منع عنه ما التمس منه . وكان عيسى قد التمس ان ينفذ له من آلات البيعة اشياء جلييلة ثمينة لها قدر . وكتب في كتابه الى المطران: ألسنت تعلم أن أمر الخليفة في يدي ان اردت أمرضته وان اردت شفتيه . فلما وقف المطران على الكتاب احتال في التوصل الى الربيع وشرح له صورة الحال فأمره الكتاب واوصله الربيع الى الخليفة ووقفه على حقيقة الامر . فأمر المنصور بأخذ جميع ما يملكه عيسى الطبيب وتأديبه ونفيه . ففعل به ذلك ونُفي اقبج نني . وهذا ثمرة الشره . وكان نوبخت المنجم الفارسي يصحب المنصور وكان فاضلاً حاذقاً خبيراً باقتران الكواكب وحوادثها . ولما ضعف عن الصحة قال له المنصور: أحضر ولدك ليقوم مقامك . فسير ولده ابا سهل . قال ابو سهل: فلما دخلت على المنصور ومثلت بين يديه قيل لي: تسم لأمير المؤمنين . فقلت: اسمي خرشاذماه طيهاذاه^١ ما باذار خسرو ابهمشاذ^٢ . فقال لي المنصور: كل ما ذكرت فهو اسمك . (قال) قلت: نعم . فتبسم المنصور ثم قال: ما صنع ابوك شيئاً فاخترتني احدى خلتين اما ان اقتصر بك من كل ما ذكرت على طيهاذ واما ان تجعل لك كنية تقوم مقام الاسم وهي ابو سهل . قال ابو سهل: قد رضيت بالكنية . فبقيت كنيته وبطل اسمه .

(المهدي بن المنصور) لما مات المنصور بيثر ميمون لم يحضره عند وفاته الا خدمه والربيع مولاه. فكم الربيع موته وألبسه وسنده وجعل على وجهه كلة خفيفة يرى شخصه منها ولا يفهم أمره وأدى اهله منه . ثم قرب منه الربيع كأنه يخاطبه . ثم رجع اليهم وأمرهم عنه بالبيعة للمهدي بن المنصور بن محمد الامام ولابن عمه عيسى بن موسى بن محمد الامام بعده . فبايعوا . ثم اخرجهم . وبعد ذلك خرج اليهم باكباً مشقوق الجيب لاطماً رأسه . ثم وجه الى المهدي بنجر وفاة المنصور وبالبيعة له ولابن عمه عيسى بن موسى بعده . فأبى عيسى بن موسى من البيعة للمهدي وامتنع بالكوفة واراد ان يتحصن بها .

١- استصحبه ر استصحبه .

٢- ر وطيهاذاه .

٣- ر خسرو أبهشاد .

فبعث المهدي ابا هريرة في الف فارس فأخذه الى المهدي . ولم يزل يراوضه ويراوده حتى اجاب الى خلع نفسه . فعوضه عنها عشرة آلاف دينار وباع للمهدي ولابنه موسى الهادي . وفي ايام المهدي خرج بخراسان^١ رجل يقال له يوسف البرم واستغوى خلقاً فبعث اليه المهدي جيوشاً ففوضوا جموعه وأسرته وحملوه الى المهدي . فأمر به فصلب . وخرج المقنع وادعى النبوة وقال بتناسخ الارواح واتبعه اناس كثيرون . وكان هذا رجلاً قصيراً اعور من قرية بمر و يقال لها كَرَه . وكان لا يسفر عن وجهه لاصحابه فلذلك قيل له المقنع . وكان يُحسن شيئاً من الشعبذة وابواب النيرنجيات فاستغوى اهل العقول الضعيفة واستمالهم ، فبعث المهدي في طلبه فصار الى ما وراء النهر وتحصن في قلعة نكس^٢ وجمع فيها من الطعام والعلوفة وبثّ الدعاة في الناس وادعى احياء الموتى وعلم الغيب . وألح المهدي في طلبه فحوصر . فلما اشتد الحصار عليه وأيقن بالهلاك جمع نساءه واهله كلهم وسقاهم السم فاتوا عن آخرهم . واحرق كلما في القلعة من دابة وثوب وطعام . وألقى نفسه في النار لثلاثا يلقى جسده العدو . ودخل العسكر القلعة ووجدوها خالية خاوية . وكان ذلك مما زاد في افتتان من بقي من اصحابه بما وراء النهر . وكان وعدهم ان تتحول روحه الى قالب رجل اشمط على بردون اشهب وانه يعود اليهم بعد كذا سنة ويملكهم الارض . فهم بعد ينتظرونه ويسمّون المبيضة . وفي سنة خمس وستين ومائة سير المهدي ابنه الرشيد لغزو الروم . فسار حتى بلغ خليج القسطنطينية . وصاحب الروم يومئذ ايريني امرأة لاون الملك . وذلك ان ابنها كان صغيراً قد هلك ابوه وهو في حجرها . فجذعت المرأة من المسلمين وطلبت الصلح من الرشيد . فجرى الصلح بينهم على الفدية وان تقيم له الادلاء والاسواق في طريقه . وذلك انه دخل مدخلا ضيقاً مخوفاً من احد جانبيه جبل وعر ومن جانبه الآخر نهر ساغريس . فأجابته الى ذلك ومقدار الفدية سبعون الف دينار لكل سنة . ورجع عنها . ولو كانت ذات همة لامكنها منع المسلمين من الخروج والفتك بهم . وفي سنة تسع وستين ومائة عزم المهدي على خلع ابنه موسى الهادي والبيعة للرشيد بولاية العهد . فبعث اليه وهو بمرجان في المعنى . فلم يفعل وامتنع من القدوم ايضاً . فسار المهدي يريده . فلما بلغ ماسبذان عمدت حسنة جاريته الى كثرى فأهدته الى جارية أخرى كان المهدي يتحفظها وسّمت منه

١ - خرج بخراسان الخ ر خرج رجل يقال له يوسف الزم (ر اليزم) واستغوى خلقاً وخرج بوسا (ر بوشا) وادعى النبوة فبعث الخ .

٢ - نكس و تكش .

كثرة هي احسن الكمثرى . فاجتاز الخادم بالمهدي وكان يعجبه الكمثرى فأخذ تلك الكمثرى المسمومة فأكلها . فلما وصلت الى جوفه صاح : جوفي جوفي . فسمعت حسنة بموته فجاءت تبكي وتلطم وجهها وتقول : اردت ان انفرد بك فقتلتك . فمات من يومه وكان موته في المحرم لثان بقين منه سنة تسع وستين ومائة وكانت خلافته عشر سنين وتوفي وهو ابن ثلث واربعين سنة ودُفن تحت جوزة كان يجلس تحتها .

• • •

حكى انه لما هم المهدي بالخروج الى ماسبدان تقدم الى حسنة حظيته ان تخرج معه . فأرسلت الى توفيل بن توما النصراني المنجم الرهاوي وهو رئيس منجمي المهدي قائلة له : انك اشرت على امير المؤمنين بهذا السفر فجشمتنا سفاً لم يكن في الحساب . فعجل الله موتك واراحنا منك . فلما بلغته رسالتها قال للجارية التي اتت بها : ارجعي اليها وقولي لها ان هذه الاشارة ليست مني . واما دعاؤك عليّ بتعجيل الموت فهذا شيء قد قضى الله به وموتي سريع فلا تتوهمي ان دعوتك استجيب . ولكن اعدّي لنفسك تراباً كثيراً . فاذا انا مت فاجعليه على رأسك . فما زالت متوقعة تأويل قوله منذ توفي حتى توفي المهدي بعد عشرين يوماً . وكان توفيل هذا على مذهب الموارنة الذين في جبل لبنان من مذاهب النصارى . وله كتاب تاريخ حسن ونقل كتابي اميروس الشاعر على فتح مدينة ايليون في قديم الدهر من اليونانية الى السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة . وفي هذا الزمان اشتهر في الطب ابو قريش طيب المهدي وهو المعروف بعيسى الصيدلاني . ولم يذكر هذا في جملة الاطباء لانه كان ماهراً بالصناعة وانما يذكر لطريف خبره وما فيه من العبرة وحسن الاتفاق . وهو ان هذا الرجل كان صيدلانياً ضعيف الحال جداً . فتشككت الخيزران حظية المهدي وكانت من مولدات المدينة . وتقدمت الى جارتها بأن تخرج القارورة الى طيب غريب لا يعرفها . وكان ابو قريش بالقرب من القصر الذي للمهدي . فلما وقع نظر الجارية عليه ارته القارورة . فقال لها : لمن هذا الماء . فقالت : لامرأة ضعيفة . فقال : بل للملكة جليلة عظيمة الشأن وهي حبلي بملك . وكان هذا القول منه على سبيل الرزق . فانصرفت الجارية من عنده واخبرت الخيزران بما سمعت منه . ففرحت بذلك فرحاً شديداً وقالت : ينبغي ان تضعي علامة على دكانه حتى اذا صحّ قوله اتخذناه طبيباً لنا . وبعد مدة ظهر الحبل وفرح به المهدي فرحاً شديداً . فأنفذت الخيزران الى ابي قريش خلعتين فاخرتين وثلاثمائة دينار وقالت : استعن بهذه على أمرك . فان صحّ ما قلته استصحبناك . فعجب ابو قريش من ذلك وقال :

هذا من عند الله جلّ وعزّ لاني ما قلته للجارية الا وقد كان هاجساً من غير اصل .
ولما ولدت الخيزران موسى الهادي سر المهدي سروراً عظيماً . وحدثته الخيزران الحديث
فاستدعى ابا قريش وخاطبه . فلم يجد عنده علماً بالصناعة الا شيئاً يسيراً من علم
الصيدلة . الا انه اتخذه طبيباً لما جرى منه واستصحبه واكرمه الاكرام التام وحظي
عنده^١ .

(الهادي بن المهدي) لما توفي المهدي كان الرشيد معه في ماسبذان . فكتب الى
الآفاق بوفاة المهدي والبيعة لموسى الهادي . وسار نصير الوصيف الى الهادي بجزان
يعلمه بوفاة المهدي والبيعة له . فنأدى بالرحيل . ولما قدم بغداد استوزر الربيع . وفي
هذه السنة وهي سنة تسع وستين ومائة تتبع الهادي الزنادقة وقتل منهم جماعة كانوا اذا
نظروا الى الناس في الطواف يهزلون ويقولون: ما اشبههم بيقر تدوس البيدر . وقتل ايضاً
يعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب .
وفي سنة سبعين ومائة توفي الهادي . وسبب وفاته انه لما ولي الخلافة كانت أمه
الخيزران تستبد بالامور دونه . وكلمته يوماً في أمر لم يجد الى اجابتها سبيلاً . فقالت :
لا بد من الاجابة اليه . فغضب الهادي وقال : والله لا قضيتها لك . قالت : اذا والله
لا اسألك حاجة ابداً . قال : لا أبالي . فقامت مغضبة . فقال : مكانك . والله لئن
بلغني انه وقف في بابك احد من قوايدي لأضربن عنقه . ما هذه المواكب التي تغدو
وتروح الى بابك . اما لك مغزل يشغلك او مصحف يذكرك او بيت يصونك . فانصرفت وهي
لا تعقل . ووضعت جواربها عليه لما مرض فقتلته بالغم وبالجلوس على وجهه . فمات
ليلة الجمعة للنصف من ربيع الاول . وكانت خلافته سنة وثلاثة اشهر وكان عمره ستاً
وعشرين سنة .

(هرون الرشيد بن المهدي) لما توفي الهادي بويع الرشيد هرون بالخلافة في الليلة
التي مات فيها الهادي . وكان عمره حين ولي اثنتين وعشرين سنة . وأمّه الخيزران . ولما
مات الهادي خرج الرشيد فصلى عليه بعيساباذ . ولما عاد الرشيد الى بغداد وبلغ الجسر
دعا الغواصين وقال : كان ابي قد وهب لي خاتماً شراؤه مائة الف دينار . فأتاني رسول

١ - قال ابن ابي اصيبعة : « فوجه المهدي الى ابي قريش فأحضره وأقيم بين يديه . فلم يزل يطرح عليه الخلع
وبدر الدنانير والدرهم حتى علت رأسه وصير هرون وموسى في حجره وكناه ابا قريش اي ابا العرب... فصار
ابو قريش نظير جيورجيس ابن جبريل بل اكبر منه حتى تقدمه في المرتبة . وتوفي المهدي واستخلفه
هرون الرشيد وتوفي جيورجيس وصار ابنه تبع ابي قريش في خدمة الرشيد . ومات ابو قريش وخلف
اثنتين وعشرين الف دينار مع نعمة سنية . »

الهادي اخي يطلب الخاتم وانا ههنا فألقيته في الماء. فغاصوا عليه وأخرجوه فُسْرَ به .
ولما مات الهادي هجم خزيمه بن خازم تلك الليلة على جعفر بن الهادي فأخذه من
فراشه وقال له لتخلعنها او لأضربن عنقك. فأجاب الى الخلع . وأشهد الناس عليه .
فحظي بها خزيمه .

وقيل لما مات الهادي جاء يحيى بن خالد البرمكي الى الرشيد فأعلمه بموته . فبينما
هو يكلمه اذا اتاه رسول آخر يبشره بمولود . فسماه عبد الله وهو المأمون . فقيل : في ليلة
مات خليفة وقام خليفة وولد خليفة . وفي هذه السنة ولد الامين واسمه محمد في شوال
وكان المأمون اكبر منه . ولما ولي الرشيد استوزر يحيى البرمكي .

وفي سنة اثنتين وثمانين ومائة بايع الرشيد لعبد الله المأمون بولاية العهد بعد الامين
وولاه خراسان وما يتصل بها الى همذان ولقبه المأمون وسلمه الى جعفر بن يحيى البرمكي .
وفيها حملت بنت خاقان الخزر الى الفضل بن يحيى البرمكي . فانت بيرذعة فرجع من
معها الى ابيها فأخبروه انها قُتلت غيلة فتجهز الى بلاد الاسلام . وفيها سمت الروم عيني
ملكهم قسطنطين بن لاون وأقرأوا أمه ايريني . وغزا المسلمون الصائفة فبلغوا افسوس مدينة
اصحاب الكهف . وفي سنة ثلث وثمانين ومائة خرج الخزر بسبب ابنة خاقان من باب
الابواب فأوقعوا بالمسلمين واهل الذمة وسبوا اكثر من مائة الف رأس وانهكوا أمراً عظيماً
لم يسمع بمثله في الارض .

وفي سنة ست وثمانين ومائة أخذ الرشيد البيعة للقاسم ابنه بولاية العهد بعد المأمون
وسماه المؤمن . وفي سنة سبع وثمانين ومائة خلعت الروم ايريني الملكة وملك نيقيفور
وهو من اولاد جبلة . فكتب الى الرشيد : من نيقيفور ملك الروم الى هرون ملك العرب .
اما بعد فان الملكة ايريني حملت اليك من اموالها ما كنت حقيقاً بحمل اضعافه اليها .
لكن ذلك ضعف النساء وحقهن . فاذا قرأت كتابي هذا فاردد ما اخذت والى فالسيف
بيننا وبينك . فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب وكتب في ظهر الكتاب : من هرون
امير المؤمنين الى نيقيفور زعيم الروم . قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون ما
تسمعه . ثم سار من يومه حتى نزل على هرقله فأحرق وخرّب ورجع . وفي هذه السنة
اوقع الرشيد بالبرامكة وقتل جعفر بن يحيى البرمكي وحبس اخاه الفضل واباه يحيى
بالرقة حتى ماتا . وكتب الى العمال في جميع النواحي بالقبض على البرامكة واستصفي

اموالهم^١ . وفي سنة تسعين ومائة ظهر رافع بن الليث بما وراء النهر مخالفاً للرشد
بسمرقند . وفي سنة اثنتين وتسعين ومائة سار الرشيد من الرقة الى بغداد يريد خراسان
لحرب رافع . ولما صار ببعض الطريق ابتدأت به العلة . ولما بلغ جرجان في صفر اشتد
مرضه . وكان معه ابنه المأمون . فسيره الى مرو ومعه جماعة من القواد . وسار الرشيد
الى طوس . واشتد به المرض حتى ضعف عن الحركة . ووصل اليه هناك بشير بن الليث
اخو رافع اسيراً فقال له الرشيد : والله لو لم يبق من اجلكي الا ان احرك شفتي بكلمة
لقلت : اقتلوه . ثم دعا بقصّاب فأمر به ففصل اعضاءه . فلما فرغ منه أنعمي عليه ثم
مات ودفن بطوس سنة ثلث وتسعين ومائة . وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة . وكان
عمره سبعاً واربعين سنة . وكان جميلاً وسيماً ابيض جعداً قد ونحطه الشيب . وكان بعهد
ثلاثة الامين وأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور ثم المأمون وأمّه ام ولد اسمها مراجل ثم
المؤمن وأمّه ام ولد . قيل : وكان الرشيد يصلي كل يوم مائة ركعة الى ان فارق الدنيا الا
من مرض . وكان يتصدق من صلب ماله كل يوم بالف درهم بعد زكاته .

* * *

قيل ان الرشيد في بدء خلافته سنة احدى وسبعين ومائة مرض من صداع لحقه .
فقال ليحيى بن خالد بن برمك : هؤلاء الاطباء ليسوا يفهمون شيئاً وينبغي ان تطلب
لي طبيباً ماهراً . فقال له عن بختيشوع بن جيورجيس^٢ . فأرسل البريد في طلبه الى
جنديسابور^٣ . ولما كان بعد ايام ورد ودخل على الرشيد . فأكرمه وخلع عليه خلعة
سنية وهب له مالاً وافراً وجعله رئيس الاطباء . ولما كان في سنة خمس وسبعين ومائة
مرض جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك . فتقدم الرشيد الى بختيشوع ان يخدمه .
ولما افاق جعفر من مرضه قال لبختيشوع : أريد ان تختار لي طبيباً ماهراً اكرمه واحسن

١ - وقد اختلف العلماء في سبب نكبة الرشيد للبرامكة . والارجح ان سبب ذلك ما كان من امر جعفر مع العباسية
بنت المهدي وهذا هو رأي المؤرخ . وقد اورد الاتليدي هذا الخبر مطولاً في الصفحة ١٦٥ من كتابه
اعلام الناس . واخبر عن عظم النكبة فقال : « ثم اظهر وجهه لقصور جعفر ودوره وقبض على ابيه واخيه وجميع
اولاد البرامكة ومواليهم وغلماهم واستباح ما فيها ووجه مسروراً الى العسكر فاخذ جميع ما فيه من مضارب
وخيام وسلاح وغير ذلك . فلما اصبح يوم السبت فاذا هو قد قتل من البرامكة وحاشيتهم نحو الف انسان
وترك من بقي منهم لا يرجع الى وطنه وشتت شملهم في البلاد ولم يقدر واحد منهم على كسرة خبز »
(١٧٤) .

٢ - بختيشوع ثلاثة اطباء وهم بختيشوع بن جيورجيس وبختيشوع بن جبريل وبختيشوع بن يوحنا وسيأتي
ذكر هذا في الكلام على خلافة المعتدر . قال ابن ابي اصيبعة : « معنى بختيشوع عبد المسيح لان في اللغة
السرانية البخت العبد » . وعندني ان البخت لفظة فارسية معناها الحظ والسعد .

٣ - طلبه الى جنديسابور ورحله من نيسابور .

اليه . قال له بختيشوع : لست اعرف في هؤلاء الاطباء احدق من ابني جبريل . فقال له جعفر : أحضرني . فلما أحضره شكاه اليه مرضاً كان يخفيه . فدبره في مدة ثلاثة ايام وبرئ . فأحبه جعفر مثل نفسه . وفي بعض الايام تمطت حظية الرشيد ورفعت يدها فبقيت مبسوطة لا يمكنها ردها والاطباء يعالجونها بالتمريخ والادهان فلا ينفع ذلك شيئاً . فقال له جعفر عن جبريل ومهارته . فأحضره وشرح له حال الصبية . فقال جبريل : ان لم يسخط امير المؤمنين عليّ فلها عندي حيلة . قال له الرشيد : ما هي . قال : تخرج الجارية الى هاهنا بحضرة الجمع حتى اعلم ما اريد وتتمهل عليّ ولا تسخط عاجلاً . فأمر الرشيد فخرجت وحين رآها جبريل ابرع اليها ونكس رأسها وأمسك ذيلها فانزعجت الجارية ومن شدة الحياء والانزعاج استرسلت اعضاؤها وبسطت يدها الى اسفل وأمسكت ذيلها . فقال جبريل : لقد برئت يا أمير المؤمنين . فقال الرشيد للجارية ابسطي يدك يمينه ويسرة . ففعلت . فعجب الرشيد وكل من حضر وأمر لجبريل في الوقت بخمسمائة الف درهم واحبه . ولما سُئل عن سبب العلة قال : هذه الصبية انصبّت الى اعضائها وقت الغشيان خلط رقيق بالحركة وانتشار الحرارة ولاجل ان سكون حركة الغشيان تكون بغتة جمحت الفضلة في بطون الاعصاب وما كان يحلها الأ حركة مثلها فاحتلت حتى انبسطت حرارتها وحلت الفضلة فبرئت .

ومن اطباء الرشيد يوحنا بن ماسويه النصراني السرياني ولأه الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة . وخدم الرشيد ومن بعده الى ايام المتوكل وكان معظماً ببغداد جليل القدر وله تصانيف جميلة . وكان يعقد مجلساً للنظر ويجري فيه من كل نوع من العلوم القديمة بأحسن عبارة . وكان يدرس ويجتمع اليه تلاميذ كثيرون . وكان في يوحنا دعابة شديدة يحضره من يحضره لاجلها في الاكثر . وكان من ضيق الصدر وشدة الحدة على اكثر مما كان عليه جبريل بن بختيشوع . وكانت الحدة تُخرج من يوحنا الفاظاً مضحكة . فما حفظ من نوادره ان رجلاً شكاه اليه علة كان شفاه منها القصد فأشار عليه به . فقال له : لم اعتد الفصد . قال له يوحنا : ولا احسبك اعتدت العلة من بطن أمك . وصار اليه قسيس وقال : قد فسدت عليّ معدتي . فقال له يوحنا : استعمل جوارشن الخوزي . فقال له : قد فعلت . قال : فاستعمل الكموني . قال : قد استعملت منه ارطالاً . فأمره باستعمال البنداذيقون . فقال : قد شربت منه جرة . قال : استعمل الروسي . فقال له : قد فعلت واكثر . فغضب يوحنا وقال له : ان اردت ان تبرا فأسلم فان الاسلام يصلح المعدة . وكان بختيشوع بن جبريل يداعب يوحنا كثيراً . فقال له في مجلس ابراهيم بن

المهدي وهم في معسكر المعتصم بالمداخن سنة عشرين ومائتين : انت ابا زكريا اخي ابن ابي . فقال يوحنا لابراهيم : اشهد على اقراره فوالله لأقسامته ميراثه من ابيه . فقال له بختيشوع : ان اولاد الزنا لا يرثون . فانقطع يوحنا ولم يحر جواباً . ومن الاطباء في ايام الرشيد صالح بن بهلة الهندي . ومن عجيب ما جرى له ان الرشيد في بعض الايام قدّمت له الموائد . فطلب جبريل بن بختيشوع يحضر اكله على عادته في ذلك فلم يوجد فلعله الرشيد . فبينما هو في لعنته اذ دخل عليه . فقال له : اين كنت وطفق يذكره بشر . فقال : ان اشتغل امير المؤمنين بالبكاء على ابن عمه ابراهيم بن صالح وترك تناولني بالسب كان اشبه . فسأله عن خبر ابراهيم . فأعلمه انه خلفه وبه رمق ينقضي آخره وقت صلاة العتمة . فاشتد جزع الرشيد من ذلك وأمر برفع الموائد وكثر بكائه . فأشار جعفر ابن يحيى البرمكي ان يمضي صالح الطبيب الهندي اليه ويعاينه ويحس نبضه . فمضى وتأمله ورجع الى جعفر قائلاً : ان مات هذا من هذه العلة كل امرأة لي طالق ثلاثاً بتاتاً . فلما كان وقت العتمة ورد كتاب صاحب البريد بوفاة ابراهيم على الرشيد فأقبل يلعن الهنـد وطبهم . فحضر صالح بين يدي الرشيد فقال : الله الله ان تدفن ابن عمك حياً فوالله ما مات . قم حتى اريك عجباً . فدخل اليه الرشيد ومعه جماعة من خواصه . فأخرج صالح ابرة كانت معه وادخلها بين ظفر ابهام يده اليسرى ولحمه . فجذب ابراهيم يده وردها الى بدنه . فقال صالح : يا امير المؤمنين هل يحس الميت بالوجع . ثم نفخ شيئاً من الكندس في أنفه . فكث مقدار سدس ساعة ثم اضطرب بدنه وعطس وجلس وكتّم الرشيد وقبّل يده . وسأله الرشيد عن قضيته . فذكر انه كان نائماً نوماً لا يذكر انه نام مثله قط طيباً الا انه رأى في منامه كلباً قد اهوى اليه فتوقاه بيده فعض ابهام يده اليسرى عضه انقبه بها وهو يحسّ بوجعها وأراه موضع الابرة . وعاش ابراهيم بعد ذلك دهنراً وولي مصر وتوفي بها وهناك قبره .

(الامين بن الرشيد) انتهى الامر اليه بعد ابيه باثني عشر يوماً . بويج له في عسكر الرشيد وكان المأمون حينئذ بمرو . وفي سنة اربع وتسعين ومائة قدم الفضل ابن الربيع العراق من طوس ونكث عهد المأمون وسعى في اغراء الامين وحثه على خلع المأمون والبيعة لابنه موسى بولاية العهد . فأمر الامين بالدعاء على المنابر لابنه موسى ونهى عن الدعاء للمأمون . وأمر بابطال ما ضرب المأمون من الدراهم والدنانير بخراسان . ونذب الامين علي بن عيسى بن ماهان للقاء المأمون . ولما عزم على المسير من بغداد

ركب الى باب زبيدة ام الامين ليودعها . فقالت له : يا عليّ اعرف لعبد الله المأمون حق ولادته ولا تقتصره اقتسار العبيد اذا ظفرت به ولا تعنف عليه في السير وان شتمك فاحتمله . ثم دفعت اليه قيداً من فضة وقالت : قيده بهذا القيد . ثم خرج عليّ في عشرة آلاف فارس . وبلغ الخبر المأمون فتسمى بامير المؤمنين وانفض هرثمة بن اعين في اقل من اربعة آلاف فارس وعلى مقدمته طاهر بن الحسين . ثم خرج طاهر في اصحابه من الري على خمسة فراسخ . وسار اليه عليّ وزحف الناس بعضهم الى بعض وحملت ميمنة عليّ وميسرته على ميسرة طاهر وميمنته فأزالتاها عن موضعيهما . وحمل قلب طاهر على قلب عليّ فهزموه . ورجع المنهزمون من معسكر طاهر على من بازائهم فهزمهم . ورمى رجل اسمه داود شاه علياً بسهم فقتله . وحمل راسه الى طاهر وأنفذه الى المأمون . وكان عليّ قليل الاحتياط من طاهر . وكان يقول لاصحابه : ما بينكم وبين ان ينقصف طاهر انفصاف الشجر من الريح الا ان نعبراً عقبة همدان . ولما قتل عليّ بعث المأمون الى طاهر بالهدايا وأمره ان يمضي الى العراق . فأخذ طاهر على طريق الاهواز وأخذ هرثمة على طريق حلوان . فشغب الجند على محمد الامين ووثبوا عليه وخلعوه وحبسوه مع أمه زبيدة وولده . ثم اخرجوه وباعوه وكان حبسه يومين . ثم حاصر طاهر وهرثمة محمداً الامين وجعلا يحاربان اصحابه سنة ببغداد فقل اصحابه وخفت يده من المال وضعف أمره . فوجه الى هرثمة يسأله الامان . فأمنه وضمن له الوفاء من المأمون . فلما علم ذلك طاهر اشتد عليه وأبى ان يدعه يخرج الى هرثمة وقال : هو في حيزي والجانب الذي انا فيه وانا اخرجته بالحصار حتى طلب الامان فلا ارضى ان يخرج الى هرثمة فيكون له الفتح دوني . وكان الامين يكره الخروج الى طاهر لئلا يراه . فلما كان ليلة الاحد لخمس بقين من محرم سنة ثمانى وتسعين ومائة خرج بعد العشاء الآخرة الى صحن الدار ودعا بابنيه وضمهما اليه وقبلهما وقال : استودعكما الله عز وجل . ثم جاء راكباً الى الشط . فاذا حراقة هرثمة فصعد اليها وأمر هرثمة الحراقة ان تدفع . فأدركهم اصحاب طاهر في الزواريق وحملوا على الحراقة بالنفط والحجارة فانكفأت بمن فيها وسقط هرثمة الى الماء فتعلق الملاح بشعره فأخرجه . واما الامين فانه لما سقط الى الماء شق ثيابه وسبح حتى خرج بشط البصرة . فأخذه اصحاب طاهر وجاءوا الى بيت وهو عريان عليه سراويل وعمامة وعلى كتفه خرقة خلقة فحبسوه هناك . فلما انتصف الليل دخل عليه قوم من العجم معهم

السيوف مسلولة. فلما رأهم جعل يقول: ويحكم انا ابن عمّ رسول الله انا ابن هرون انا اخو المأمون. الله الله في دمي. فضربه رجل منهم بالسيف في مقدم رأسه ونحسه آخر في خاصرته وركبوه فذبحوه ذبحاً وأخذوا رأسه ومضوا به الى طاهر. فبعث به الى المأمون. وكانت خلافة الامين اربع سنين وثمانية اشهر وكان عمره ثمانياً وعشرين سنة. وقيل: لما ملك الامين وكتبه المأمون واعطاه بيعته طلب الخصيان وابتاعهم وغالى فيهم وصبرهم لخلوته في ليله ونهاره وأمره ونهيه ووجهه الى جميع البلدان في طلب اصحاب اللهب وضمّهم اليه وأجرى عليهم الارزاق وقسم ما في بيوت الاموال من الجواهر في خصيائه ونسائه الاحرار وعمل خمس حراقات في دجلة على صورة الاسد والفيل والعقاب والحية والفرس. فقال ابو نواس في ذلك:

عجب الناس اذ رأوك على صوت رة ليث يمرّ مرّ السحاب
سبّحوا اذ رأوك سرت عليه كيف لو أبصرك فوق العقاب

واحتجب عن اخوته واهل بيته واستخف بهم وبقواده وأمر ببناء مجالس لمنتزهاته وطوه واحبته. وأمر قيّمة جواريه ان تهبي له مائة جارية صانعة فتصعد اليه عشر عشر بأيديهن العيدان يغنين بصوت واحد. وقيل انه لما اتاه نعمي عليّ بن عيسى كان يصطاد السمك. فقال للذي اخبره بذلك: دعني فان كوثراً قد اصطاد سمكتين وانا ما اصطدت شيئاً بعد. وبالجملة لم يوجد في سيرته ما يستحسن ذكره من حكمة ومعدلة او تجربة حتى تذكر.

(المأمون بن الرشيد) لما خلاص الامر للمأمون بعث الى عليّ بن موسى بن جعفر ابن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن ابي طالب فأقدمه خراسان وجعله ولي عهد المسلمين والخليفة من بعده وزوجه ابنته ام حبيبة ولقبه الرضا من آل محمد. وأمر جنده بطرح السواد ولبس ثياب الخضرة وكتب بذلك الى الآفاق انه نظر في بني العباس وبني عليّ فلم يجد احداً افضل ولا اروع ولا اعلم من عليّ بن موسى فلذلك عقد له العهد من بعده. فشق ذلك على بني هاشم وغضب بنو العباس فقالوا: لا تخرج الخلافة منّا الى اعدائنا. فخلعوا المأمون وبايعوا ابراهيم بن المهدي بن المنصور بن محمد الامام ابن عليّ بن عبد الله بن عباس وسموه المبارك. وفي سنة ثلث ومائتين مات عليّ بن موسى الرضا وكان سبب موته انه اكل عنباً فأكثر منه فمات فجأة في آخر صفر بمدينة طوس فدفنه المأمون عند قبر ابيه الرشيد. وفي هذه السنة خلع أهل بغداد ابراهيم بن المهدي فاختنى

ليلة الاربعاء لثلاث عشرة بقيت من ذي الحجة ولم يزل متوارباً . وقدم المأمون ببغداد وانقطعت الفتن . وفي هذه السنة وهي سنة اربع ومائتين مات الامام محمد بن ادريس الشافعي . وفي سنة عشر ومائتين في ربيع الآخر أخذ ابراهيم بن المهدي وهو منتقّب مع امرأتين وهو في زبي امرأة أخذه حارس اسود ليلاً فقال : من انتنّ واين تردنّ هذا الوقت . ولما استراب بهنّ رفعهنّ الى صاحب المسلحة . فأمرهنّ ان يسفرنّ . فامتنع ابراهيم . فجذبه فبذت لحيته فرفعه الى باب المأمون واحتفظ به الى بكرة . فلما كان الغد أقعد ابراهيم في دار المأمون والمقنعة في عنقه والملحفة على صدره ليراه بنو هاشم . ثم عفا عنه وامته ونادمه . وفي سنة سبع عشرة ومائتين سار المأمون الى بلد الروم فأناخ على لؤلؤة مائة يوم . ثم رحل عنها وترك عليها عجباً . فخذعه اهلها وأسروه فبقي عندهم ثمانية ايام ثم اخرجوه . وفي سنة ثمانى عشرة ومائتين كتب المأمون الى اسحق بن ابراهيم في امتحان القضاة والمحدثين بالقرآن فمن اقر انه مخلوق محدث خلّى سبيله ومن أبى أعلمه به ليأمر فيه برأيه . وفي هذه السنة مرض المأمون مرضه الذي مات به لثلاث عشرة خلت من جمادى الآخرة . وكان سبب مرضه انه كان جالساً على شاطئ البدندون واخوه ابو اسحق المعتصم عن يمينه وهما قد دلّيا ارجلها في الماء . فبينما هو متعجب من عنوبته وصفائه وشدة برده اذ جاءته الالطاف من العراق وكان فيها رطب ازاذا كأنما جني تلك الساعة . فأكل منه وشرب من ذلك الماء فما قام الا وهو محموم وكانت منيته من تلك العلة . فلما انه مرض خلع اخاه القاسم المؤمن وأخذ البيعة لاختيه ابى اسحق المعتصم وأمر ان يكتب الى البلاد الكتب من عبد الله المأمون امير المؤمنين واخيه الخليفة من بعده ابى اسحق المعتصم بن هرون الرشيد . ولما حضره الموت كان عنده ابن ماسويه الطبيب . وكان عنده من يلقنه فعرض عليه الشهادة . فأراد الكلام فعجز عنه . ثم انه تكلم فقال : يا من لا يموت ارحم من يموت . ثم توفي من ساعته . فحمله ابنه العباس واخوه المعتصم الى طرسوس^١ فدفناه بدار خاقان خادم الرشيد . وكانت خلافته عشرين سنة . وكان ربعة ابيض جميلاً طويل اللحية رقيقها قد ونخه الشيب وقيل كان اسمر تعلوه صفرة . وكان عمره ثمانياً واربعين سنة .

• • •

قال القاضي صاعد بن احمد الاندلسي ان العرب في صدر الاسلام لم تُعنّ بشيء من العلوم الا بلغتها ومعرفة احكام شريعتها حاشا صناعة الطب فانها كانت موجودة عند

١- طرسوس و طرطوس .

افراد منهم غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس طراً اليها . فهذه كانت حال العرب في الدولة الاموية . فلما ادال الله تعالى للهاشمية وصرف الملك اليهم ثابت الهمم من غفلتها وهبت الفطن من ميّتها . وكان اول من عُني منهم بالعلوم الخليفة الثاني ابو جعفر المنصور . وكان مع براعته في الفقه كلفاً في علم الفلسفة وخاصة في علم النجوم . ثم لما افضت الخلافة فيهم الى الخليفة السابع عبد الله المأمون بن هرون الرشيد تمّم ما بدأ به جده المنصور فأقبل على طلب العلم في مواضعه وداخل ملوك الروم وسألم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة . فبعثوا اليه منها ما حضرهم فاستجاد لها مهرة الترجمة وكلفهم احكام ترجمتها فترجمت له على غاية ما امكن . ثم حرص الناس على قراءتها ورغبتهم في تعليمها فكان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظراتهم ويلتذ بمذاكرتهم علماً منه بان اهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده لانهم صرفوا عنايتهم الى نيل فضائل النفس الناطقة وزهدوا فيما يرغب فيه الصين والترك ومن نزع منزعهم من التنافس في دقة الصنائع العملية والتباهي بأخلاق النفس الغضبية والتفاخر بالقوى الشهوانية اذ علموا ان البهائم تشركهم فيها وتفضلهم في كثير منها . اما في احكام الصنعة فكان النحل المحكمة لتسديس مخازن قوتها . واما في الجرأة والشجاعة فكان الأسد وغيره من السباع التي لا يتعاطى الانسان اقدامها ولا يدعي بسالتها . واما في الشبق فكان الخنزير وغيره مما لا حاجة الى ابانته . فلهذا السبب كان اهل العلم مصابيح الدجى وسادة البشر وأوحشت الدنيا لفقدهم . فن المنجمين في ايام المأمون حبش الحاسب المروزي الاصل البغدادي الدار . وله ثلاثة ازياج . اولها المؤلف على مذهب السند هند . والثاني الممتحن وهو اشهرها ألفه بعد ان رجع الى معاناة الرصد وأوجبه الامتحان في زمانه . والثالث الزيج الصغير المعروف بالشاة^١ . وله كتب غير هذه . وبلغ من عمره مائة سنة . ومنهم احمد بن كثير الفرغاني صاحب المدخل الى علم هيئة الافلاك يحتوي على جوامع كتاب بطليموس^٢ بأعذب لفظ وأبين عبارة . ومنهم عبد الله بن سهل بن نوبخت كبير القدر في علم النجوم . ومنهم محمد بن موسى الخوارزمي . كان الناس قبل الرصد وبعده يعولون على زيجه الاول والثاني ويعرف بالسند هند . ومنهم ما شاء الله اليهودي . كان في زمن المنصور وعاش الى ايام المأمون وكان فاضلاً اوحد زمانه له حظّ قويّ في سهم الغيب . ومنهم يحيى

١- تعليمها و تعلمها .

٢- بالشاة ر بالشاة

٣- بطليموس ر بطليموس .

ابن ابي المنصور رجل فاضل كبير القدر اذ ذاك مكين المكان. ولما عزم المأمون على رصد الكواكب تقدم اليه والى جماعة من العلماء بالرصد واصلاح آلاته . ففعلوا ذلك بالشامية ببغداد وجبل قاسيون بدمشق . قال ابو معشر : اخبرني محمد بن موسى المنجم الجليلس وليس بالخوارزمي قال : حدثني يحيى بن منصور قال : دخلت الى المأمون وعنده جماعة من المنجمين وعنده رجل يدعي النبوة وقد دعا له المأمون بالعاصمي^١ ولم يحضر بعد ونحن لا نعلم . فقال لي ولئن حضر من المنجمين : اذهبوا وخذوا الطالع للدعوى الرجل في شيء يدعيه وعرفوني ما يدل عليه الفلك من صدقه وكذبه . ولم يعلمنا المأمون انه متنبئ^٢ . (قال) فحملنا^٣ الى بعض تلك الصحون فأحكمتنا أمر الطالع وصورنا موضع الشمس والقمر في دقيقة واحدة وسهم السعادة منهم وسهم الغيب في دقيقة واحدة مع دقيقة الطالع والجددي والمشتري في السنبلة ينظر اليه والزهرة وعطارد في العقرب ينظران اليه . فقال كل من حضر من القوم : ما يدعيه صحيح . وانا ساكت . فقال لي المأمون : ما قلت انت . فقلت : هو في طلب تصحيحه وله حجة زهرية عطاردية . وتصحيح الذي يدعيه لا يتم له ولا ينتظم . فقال لي : من اين قلت هذا . قلت : لان صحة الدعاوي من المشتري ومن تثليث الشمس وتسديسها اذا كانت الشمس غير منحوسة وهذا الطالع يخالفه لانه هبوط المشتري والمشتري ينظر اليه نظر موافقة الا انه كاره لهذا البرج والبرج كاره له فلا يتم التصديق والتصحيح . والذي قال من حجة زهرية وعطاردية . انما هو ضرب من التخمين والتزويق والخذاع يتعجب منه ويستحب . فقال لي المأمون : انت لله درك . ثم قال : أتدرون من الرجل . قلنا له : لا . قال : هذا يدعي النبوة . فقلت : يا امير المؤمنين امعه شيء يحتاج به . فسأله . فقال : نعم معي خاتم ذو فصين ألبسه فلا يتعين منه شيء يحتاج به ويلبسه غيري فيضحك ولا يتالك من الضحك حتى ينزعه . ومعني قلم شامي آخذه فأكتب به ويأخذه غيري فلا ينطلق اصبعه . فقلت : يا سيدي هذه الزهرة وعطارد قد عملا عملها . فأمره المأمون بعمل ما ادعاه . قلنا له : هذا ضرب من الطلسمات . فما زال به المأمون اياماً كثيرة حتى اقرّ وتبرأ من دعوة النبوة ووصف الحيلة التي احتالها في الخاتم والقلم . فوهب له الف دينار . فتلقيناه بعد ذلك فاذا هو اعلم الناس بعلم التنجيم . قال ابو معشر : وهو الذي عمل طلسم الخنافس في دور كثيرة من دور بغداد . قال ابو معشر : لو كنت مكان القوم لقلت اشياء ذهبت

١- بالمعاصمي و بالمعصي و بالمعصي .

٢- فحملنا ر فجئنا .

عليهم كنت اقول: الدعوى باطلة لان البرج منقلب والمشتري في الوبال والقمر في المحاق والكوكبان الناظران في برج كذاب وهو العقرب . ومن الحكماء يوحنا بن البطريق الترحمان مولى المأمون كان اميناً على ترجمة الكتب الحكمية حسن التأدية للمعاني ألكن اللسان في العربية وكانت الفلسفة اغلب عليه من الطب . ومن اطباء سهل بن سابور ويعرف بالكوسج . كان بالاهاوز وفي لسانه لكنة خوزية وتقدم بالطب في ايام المأمون . وكان اذا اجتمع مع يوحنا ابن ماسويه وجيورجيس بن بختيشوع وعيسى بن الحكم وزكريا الطيقوري قصر عنهم في العبارة ولم يقصر عنهم في العلاج . ومن دعاياته انه تمارض واحضر شهوداً يشهدهم على وصيته وكتب كتاباً اثبت فيه اولاده فأثبت في اوله جيورجيس ابن بختيشوع والثاني يوحنا بن ماسويه وذكر انه اصاب أميها زناً فأجلها . فعرض لجيورجيس زعم من الغيظ وكان كثير الالتفات . فصاح سهل: **صُرِي وَهَكَ الْمَسِيهِ اُخْرَوْا فِي أُذْنِهِ آيَةَ خُرْسِي** . اراد بالعجمة التي فيه: **صُرَع وَحَق الْمَسِيح اَقْرَوْا فِي أُذْنِهِ آيَةَ الْكُرْسِي** . ومن دعاياته انه خرج في يوم الشعانين يريد المواضع التي تخرج اليها التصاري فرأى يوحنا بن ماسويه في هيئة احسن من هيئته . فحسده على ذلك فصار الى صاحب مسلحة الناحية فقال له: ان ابني يعقني وان انت ضربته عشرين درة موجعة اعطيتك عشرين ديناراً . ثم اخرج الدنانير فدفعها الى من وثق به صاحب المسلحة ثم اعتزل ناحية الى ان بلغ يوحنا الموضع الذي هو فيه فقدمه الى صاحب المسلحة وقال: هذا ابني يعقني ويستخف بي . فجحد ان يكون ابنه . فقال: يهذي هذا . قال سهل: انظر يا سيدي . فغضب صاحب المسلحة ورمى يوحنا من دابته وضربه عشرين مقرعة ضرباً موجعاً مبرحاً . ومن اطباء المأمون جبريل الكحال . كانت وظيفته في كل شهر الف درهم وكان اول من يدخل اليه في كل يوم . ثم سقطت منزلته بعد ذلك . فستل عن سبب ذلك فقال: اني خرجت يوماً من عند المأمون فسألني بعض مواليه عن خبره فأخبرته انه قد اغفى . فبلغه ذلك فأحضرني ثم قال: يا جبريل اتخذتك كحالاً او عاملاً للاخبار علي . اخرج من داري . فأذكرته حرمتي فقال: ان له لحومة فليقتصر به على اجراء مائة وخمسين درهماً في الشهر ولا يؤذن له في الدخول .

(المتعصم بن الرشيد) هو ابو اسحق محمد بن هرون الرشيد . بويج له بعد موت المأمون فشغب الجند ونادوا باسم العباس بن المأمون . فخرج اليهم العباس فقال: ما هذا الحب البارد وقد بايعت عمي . فسكنوا . ودخل كثير من اهل الجبال وهمذان

واصفهان وماسبذان وغيرهم في دين الحرمة^١ وتجمعوا فمسكروا في عمل همدان. فوجه اليهم المعتصم العساكر فأوقعوا بهم فقتل منهم ستون ألفاً وهرب الباقون الى بلد الروم . وفي سنة تسع عشرة ومائتين احضر المعتصم احمد بن حنبل وامتحنه بالقرآن . فلما لم يجب بكونه مخلوقاً أمر به فجلد جلدأ شديداً حتى غاب عقله وتقطع جلده . وكان ابو هريرة بن البكاء من العلماء المنكرين لخلق القرآن يقر بكونه مجعولا لقول الله : انا جعلناه قرآناً عربياً . ويسلم ان كل مجعول مخلوق ويحجم عن النتيجة ويقول : لا اقول مخلوق ولكنه مجعول . وهذا عجب عجب . وفي سنة عشرين ومائتين عقد المعتصم للأفشين حيدر بن كاوس على الجبال ووجهه خرب بابك فسار اليه . وكان ابتداء خروج بابك سنة احدى ومائتين وهزم من جيوش السلطان عدةً وقتل من قواده جماعة ودخل الناس رعب شديد وهول عظيم واستعظموه واحتوى^٢ اليه القطاع واصحاب الفتن وتكاثفت جموعه حتى بلغ فرسانه عشرين ألفاً سوى الرجالة وأخذ يمثل^٣ بالناس . وكان اصحابه لا يدعون رجلاً ولا امرأة ولا صبيلاً ولا طفلاً مسلماً او ذمياً الا قطعوه وقتلوه وأحصي عدد القتلى بأيديهم فكان مائتي الف وخمسة وخمسين ألفاً وخمسمائة انسان . فلما انتدب الافشين لحرب بابك قاومه الافشين سنة وانهم من بين يديه غير مرة وعاوده . وآل الامر الى ان انتحى^٤ بابك الى البند^٥ مدينته . فلما ضاق أمره خرج هارباً ومعه اهله الى بلاد الروم في زبي التجار . فعرفه سهل بن سباط^٦ الارمني البطريق فأسره . فافتدى نفسه منه بمال عظيم . فلم يقبل منه وبعثه الى الافشين بعد ما ركب الارمن من أمه واخته وامراته الفاحشة بين يديه . وكذا كان يفعل الملعون بالناس افة اسرهم مع حرمهم . وحمل الافشين بابك الى المعتصم وهو بسر من رأى . فأمر باحضار سياف بابك فحضر فأمره ان يقطع يديه ورجليه فقطعها فسقط . فأمر بدبحه وشق بطنه . وأنفذ رأسه الى خراسان وصلب بدنه بسامراً . وفي سنة ثلاث وعشرين ومائتين خرج توفيل بن ميخائيل ملك الروم الى بلاد الاسلام فبلغ زبطرة فقتل من بها من الرجال وسبي النرية والنساء . واغار على ملطية وغيرها وسبي المسلمات ومثل بمن صار في يده من المسلمين

١- الحرمة ر الحرمة .

٢- واحتوى ر واجتوى و انطوى .

٣- يمثل ر يميل .

٤- انتحى ر التجأ .

٥- البند ر النبل و النبذ او البند .

٦- سباط ر شباط .

فسمل اعينهم وقطع آنافهم وآذانهم . فلما بلغ الخبر المعتصم استعظمه وتوجه الى بلاد الروم وفتح عمورية وقتل ثلثين ألفاً وأسر ثلثين ألفاً . وفي سنة خمس وعشرين ومائتين تغير المعتصم على الافشين لانه كاتب مازيار أصبهبُذ طبرستان وحسن له الخلاف والمعصية واراد ان ينقل الملك الى العجم فقتله وصلبه بازاء بابك . ووجده بقلفته لم يخن . واخرجوا من منزله اصناماً فأحرقوه بها . وفي سنة سبع وعشرين ومائتين توفي المعتصم ابو اسحق يوم الخميس لثاني عشرة مضت من ربيع الاول عن ثمانية بنين وثمانى بنات وكانت خلافته ثمانى سنين وثمانية اشهر وكان عمره سبعاً واربعين سنة . وحكي ان المعتصم بينما هو يسير وحده قد انقطع عن اصحابه في يوم مطر اذ رأى شيخاً معه حمار عليه شوك وقد زلق الحمار وسقط في ٢ الارض والشيخ قائم . فنزل عن دابته ليخلص الحمار . فقال له الشيخ : بأبي انت وأمي لاتهلك ثيابك . فقال له : لا عليك . ثم انه خلص الحمار وجعل الشوك عليه وغسل يده ثم ركب . فقال له الشيخ : غفر الله لك يا شاب . ثم لحقه اصحابه فأمر له باربعة آلاف درهم . وهذا دليل على غاية ما يمكن ان يكون من طيب اعراق الملوك وسعة اخلاقهم .

• • •

قال حنين : ان سلمويه كان عالماً بصناعة الطبّ فاضلاً في وقته . ولما مرض عاده المعتصم وبكى عنده وقال له : أشر عليّ بعدك بمن يصلحني . فقال : عليك بهذا الفضولي يوحنا بن ماسويه . واذا وصف شيئاً خذ أقله اخلاطاً . ولما مات سلمويه قال المعتصم : سألحق به لانه كان يمسك حياتي ويدبّر جسمي . وامتنع عن الأكل في ذلك اليوم وأمر باحضار جنازته الى الدار وان يصلّي عليها بالشمع والبخور على رأي النصارى . ففعل ذلك وهو يراهم . وكان سلمويه يفصد المعتصم في السنة مرتين ويسقيه عقيب كل فصد دواء . فلما باشره يوحنا اراد عكس ما كان يفعله سلمويه فسقاه الدواء قبل الفصد . فلما شربه حمي دمه وحمّ وما زال جسمه يتقص حتى مات وذلك بعد عشرين شهراً من وفاة سلمويه . وخدم الافشين زكريا الطيفوريّ وذكر : اني كنت مع الافشين في معسكره وهو في محاربة بابك . فجري ذكر الصيادلة فقلت : اعزّ الله الامير ان الصيدلاني لا يطلب منه شيء كان عنده او لم يكن الا اخبر بأنه عنده . فدعا الافشين

١- اصبيد و اصبيد و اصبيد .

٢- وسقط في ر وقع ال .

بدفتر من دفاتر الاسروشنية فأخرج منه نحواً من عشرين اسماً ووجهه الى الصيادلة من يطلب منهم ادوية مسماة بتلك الاسماء . فبعض انكرها وبعض ادعى معرفتها واخذ الدراهم من الرسل ودفع اليهم شيئاً من حانوته . فأمر الافشين باحضار جميع الصيادلة فن انكر معرفة تلك الاسماء اذن له بالمقام في معسكره ونفى الباقين .

(الواثق بالله هرون بن المعتصم) بويج له في اليوم الذي مات فيه ابوه . وفي هذه السنة مات ثوفيل ملك الروم وكان ملكه اثنتي عشرة سنة وملكته بعده امراته ثاودورا وابنها ميخائيل بن ثوفيل وهو صبي . وفي سنة ثماني وعشرين ومائتين غزا المسلمون في البحر جزيرة صقلية وفتحوا مدينة مسيني . وفي سنة احدى وثلاثين ومائتين كان الفداء بين المسلمين والروم على يد خاقان خادم الرشيد واجتمع المسلمون على نهر اللامس على مسيرة يوم من طرسوس وأمر الواثق خاقان خادم الرشيد ان يمتحن اسارى المسلمين فن قال القرآن مخلوق وان الله لا يرى في الآخرة فؤدي به واعطي ديناراً ومن لم يقل ذلك ترك في ايدي الروم . فلما كان في يوم عاشوراء اتت الروم ومن معهم من الاسارى وكان الامر بين الطائفتين فكان المسلمون يطلقون الاسير فيطلق الروم اسيراً فيلتقيان في وسط الجسر فاذا وصل الاسير الى المسلمين كبروا واذا وصل الرومي الى الروم صاحوا: كرياليسون حتى فرغوا . فكان عدة اسارى المسلمين اربعة آلاف واربعمئة وستين نفساً والنساء والصبيان ثمانمئة . واهل ذمة المسلمين مائة نفس . ولما فرغوا من الفدية غزا المسلمون شاتين فأصابهم ثلج ومطر فمات منهم مائتا نفس وأسر نحوهم وغرق بالبدنلون خلق كثير . وفي سنة اثنتين وثلاثين ومائتين مات الواثق في ذي الحجة لست بقين منه وكانت علته الاستسقاء فعولج بالاقعاد في ثنور مسخن فوجد بذلك خفة فأمرهم من الغد بالزيادة في اسنانه ففعل ذلك وقعد فيه اكثر من اليوم الاول فحمي عليه فأخرج منه في محفة فمات فيها ولم يشعر بموته حتى ضرب وجهه المحفة . ولما اشتد مرضه احضر المنجمين منهم الحسن بن سهل بن نوبخت فنظروا في مولده فقدروا له ان يعيش خمسين سنة مستأنفة من ذلك اليوم فلم يعيش بعد قولهم الا عشرة ايام وكانت خلافته خمس سنين وتسعة اشهر وكان عمره اثنتين وثلاثين سنة .

• • •

لهذا حسن المذكور تصنيف وهو كتاب الانواء . قال نوبخت كلهم فضلاء ولم

١- الاسروشنية ر الاسروسية و الاسروشنية .

٢- وجهه ر بوجه

فكرة صالحة ومشاركة في علوم الاوائل ولا مثل هذا . حدث احمد بن هرون الشرايى بمصر ان المتوكل على الله حدثه في خلافة الواثق ان يوحنا بن ماسويه كان مع الواثق على دكان في دجلة وكان مع الواثق قصبة فيها شصّ وقد ألقاها في دجلة ليصيد بها السمك فحرم الصيد فالتفت الى يوحنا وكان على يمينه وقال : قم يا مشووم عن يميني . فقال يوحنا : يا امير المؤمنين لا تتكلم بمحال يوحنا ابوه ماسويه الخوزي وأمه رسالة الصقلية المتباعدة بثأمائة درهم واقبلت به السعادة الى ان صار نديم الخلفاء وسيرهم وعشيرهم حتى نمرته الدنيا فنال منها ما لم يبلغه أمله فن اعظم المحال ان يكون هذا مشووماً ولكن ان احبّ امير المؤمنين بأن أخبره بالمشووم من هو اخبرته . فقال : من هو . فقال : من ولده اربع خلفاء ثم ساق الله اليه الخلافة فترك خلافته وقصورها وقعد في دكان مقدار عشرين ذراعاً في مثلها في وسط دجلة لا يأمن عصف الرياح عليه فيغرقه ثم تشبه بأفقر قوم في الدنيا وشرّهم صيادو السمك . قال المتوكل : فرأيت الكلام قد نجح فيه الا انه امسك لمكاني .

(المتوكل على الله جعفر بن المعتصم) بويج له بعد موت اخيه الواثق وكان عمره يوم بويج ستاً وعشرين سنة . وفي سنة ثلث وثلثين ومائتين وثب ميخائيل بن توفيل بأمه ثاودورا فألزمها الدير وقتل القتيط^١ لانه اتهمها به وكان ملكها ست سنين . وفي سنة خمس وثلثين ومائتين عقد المتوكل البيعة لابنيه الثلاثة بولاية العهد وهم المنتصر والمعتز^٢ والمؤيد وعقد لكل واحد منهم لواءً وولّى المنتصر العراق والحجاز واليمن والمعتز^٢ خراسان والريّ والمؤيد الشام . وفي سنة ست وثلثين ومائتين أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن عليّ وان يبذر ويسقى موضعه وان يمنع الناس من اتيانه . وفي سنة سبع وثلثين ومائتين ولّى المتوكل يوسف بن محمد ارمينية واذريجان ولما صار الى اخلاط أتى بقراط بن اشوط^٣ البطريق فأمر بأخذه وتقييده وحمله الى المتوكل فاجتمع بطارقة ارمينية مع ابن اخي بقراط وتحالفوا على قتل يوسف ووافقهم على ذلك موسى بن زرارة وهو صهر بقراط^٢ على ابنته فوثبوا بيوسف واجتمعوا عليه في قلعة موش في النصف من شهر رمضان وذلك في شدة من البرد وكلّب من الشتاء فخرج اليهم يوسف وقاتلهم فقتلوه وكل من قاتل معه . واما من لم يقاتل فقالوا له : انزع ثيابك وانج بنفسك عرياناً ففعلوا ومشوا عراة حفاة

١ - القتيط ر القنيط و القنيط .

٢ - اشوط ر اسوط .

٣ - بقراط ر ابي بقراط .

فهلك اكثرهم من البرد . فلما بلغ المتوكل الخبر وجه بغا الكبير اليهم طالباً بدم يوسف فسار وأباح على قتلة يوسف فقتل منهم زهاء ثلثين الفاً وسي خلقاً كثيراً ثم سار الى مدينة تفليس وحاصرها ودعا النفاطين فضربوا المدينة بالنار فأحرقوها وهي من خشب الصنوبر فاحترق بها نحو خمسين الف انسان . وفي سنة ثمانى وثلثين ومائتين جاءت ثلثمائة مركب للروم مع ثلاثة رؤساء فأناخ احدهم في مائة مركب بدمياط وبينها وبين الشط شبيه بالبحيرة يكون ماؤها الى صدر الرجل فمن جازها الى الارض أمن من مراكب البحر فجازه قوم من المسلمين فسلموا وغرق كثير من نساء وصبيان . ومن كان به قوة سار الى مصر . واتفق وصول الروم وهي فارغة من الجند فنهبوا واحرقوا وسبوا واحرقوا جامعها وسبوا من النساء المسلمات والذميات نحو ستمائة امرأة وساروا الى مصر ونهبوها ورجعوا ولم يعرض لهم احد . وفي سنة اثنتين واربعين ومائتين كانت زلازل هائلة واصوات منكرة بقومس ورساتيقها في شعبان فهدمت الدور وهلك تحت الهدم بشر كثير قيل كانت عدتهم خمسة واربعين الفاً وستة وتسعين نفساً . وكان اكثر ذلك بالدامغان . وكان بالشام وفارس وخراسان وباليمن مع خسف . وتقطع الجبل الاقرع وسقط في البحر فمات اهل اللاذقية من تلك الهدمة . وفي سنة سبع واربعين ومائتين قُتل المتوكل وهو ثمل بسرّ مرآى ليلة الاربعاء ثالث يوم من شوال قتله غلام تركي اسمه باغر وكانت خلافته اربع عشرة سنة وتسعة اشهر وعمره اربعين سنة وقُتل معه الفتح ابن خاقان لانه رمى بنفسه على المتوكل وقال : ويلكم تقتلون امير المؤمنين فبعجوه بسيوفهم فقتلوه . ويقال ان ابنه المنتصر دسّ لقتله فعاش بعده ستة اشهر . وفي سنة الزلازل اخرج المتوكل احمد ابن حنبل من الحبس ووصله وصرفه الى بغداد وأمر بترك الجدّل في القرآن وان الذمة بريئة ممن يقول بخلق او غير خلق .

• • •

قال بعض الرواة : دخل بختيشوع بن جبريل الطيب يوماً الى المتوكل وهو جالس على سدة في وسط داره الخاصة فجلس بختيشوع على عادته معه فوق السدة وكان عليه درّاعة ديباج رومي وكان قد انشقّ ذيلها قليلاً . فجعل المتوكل يحدث بختيشوع ويعبث

١-واباح و وناح و اناخ على قتل .

٢- ذلك ر من ذلك .

٣- ثالث ر اول .

٤- وتسعة ر وسمة .

٥- فوق ر على .

بذلك الفتق حتى بلغ الى حد التيفق ودار بينهما الكلام يقتضي^١ ان سأل المتوكل بختيشوع بماذا تعلمون ان الموسوس يحتاج الى الشد. قال بختيشوع: اذا بلغ الى فتق دراعة طبيبه الى حد النيفق شددناه. فضحك المتوكل حتى استلقى على ظهره وأمر له بخلعة حسنة ومال جزيل. وهذا يدل على لطف منزلة بختيشوع عند المتوكل وانبساطه معه. وقال المتوكل يوماً لبختيشوع: ادعني. قال: نعم وكرامة. فاضافه واطهر من التجمل والثروة ما اعجب المتوكل والحاضرين. واستكثر المتوكل لبختيشوع ما رآه من نعمته وكمال مروءته فحقد عليه ونكبه بعد ايام سيرة فأخذ له مالا كثيراً وحضر الحسين ابن مخلد فحتم على خزائنه وباع شيئاً كثيراً وبقي بعد ذلك حطب وفحم ونييد وامثال هذه فاشتره الحسين بستة آلاف دينار وذكر انه باع من جملة بائني عشر الف دينار وكان هذا في سنة اربع واربعين ومائتين وتوفي بختيشوع سنة ست وخمسين ومائتين. وفي ايام المتوكل اشتهر حنين بن اسحق الطيب النصراني العبادي ونسبته الى العباد وهم قوم من نصارى العرب من قبائل شتى اجتمعوا وانفردوا عن الناس في قصور ابنتها بظاهر الحيرة وتسموا بالعباد لانه لا يضاف الا الى الخالق واما العبيد فيضاف الى المخلوق والخالق. وكان اسحق والد حنين صيدلانياً بالحيرة فلما نشأ حنين احب الدم فدخل بغداد وحضر مجلس يوحنا بن ماسويه وجعل يخدمه ويقرأ عليه. وكان حنين صاحب سؤال وكان يصعب على يوحنا فسأله حنين في بعض الايام مسألة مستفهم فحرد يوحنا وقال: ما لأهل الحيرة والطب عليك ببيع الفلوس في الطريق. وأمر به فأخرج من داره. فخرج حنين باكياً وتوجه الى بلاد الروم واقام بها سنتين حتى احكم اللغة اليونانية وتوصل في تحصيل كتب الحكمة غاية امكانه وعاد الى بغداد بعد سنتين ونهض من بغداد الى ارض فارس ودخل البصرة ولزم الخليل بن احمد حتى برع في اللسان العربي ثم رجع الى بغداد. قال يوسف الطيب: دخلت يوماً على جبريل بن بختيشوع فوجدت عنده حنيناً وقد ترجم له بعض التشريح وجبريل يخاطبه بالتبجيل ويسميه الربان فأعظمت ما رأيت وتبين ذلك جبريل مني فقال: لا تستكثر هذا مني في أمر هذا الفتى فوالله لئن مدّ له في العمر ليفضحن سرجيس. وسرجيس هذا هو الرأس عيني اليعقوبي ناقل علوم اليونانيين الى السرياني. ولم يزل أمر حنين يقوى وعلمه يتزايد وعجائبه تظهر في النقل والتفاسير حتى صار ينبوعاً للعلوم ومعدناً للفضائل واتصل خبره بالخليفة المتوكل فأمر باحضاره. ولما حضر أقطع اقطاعاً سنياً وقُرّر له جارٍ جيد. واحب امتحانه ليزول عنه

ما في نفسه عليه اذ ظن ان ملك الروم ربما كان عمل شيئاً من الحيلة فاستدعاه وأمر ان يُخلع عليه وأخرج له توقيعاً فيه اقطاع يشتمل على خمسين الف درهم فشكر حنين هذا الفعل. ثم قال له بعد اشياء جرت: اريد ان تصف لي دواءً يقتل عدواً نريد قتله وليس يمكن إشهار هذا ونريده سراً. فقال حنين: ما تعلمت غير الادوية النافعة ولا علمت ان امير المؤمنين يطلب مني غيرها فان احب ان امضي واتعلم فعلت. فقال: هذا شيء يطول بنا. ثم رغبه وهدده وحبسه في بعض القلاع سنة ثم احضره وأعاد عليه القول واحضر سيفاً ونظماً. فقال حنين: قد قلت لامير المؤمنين ما فيه الكفاية. قال الخليفة: فاني اقتلك. قال حنين: لي رب يأخذ لي حتي غداً في الموقف الاعظم. فتبسم المتوكل وقال له: طب نفساً فاننا اردنا امتحانك والطمأنينة اليك. فقبل حنين الارض وشكر له. فقال الخليفة: ما الذي منعك من الاجابة مع ما رأيت من صدق الامر منّا في الحالين. قال حنين: شيئان هما الدين والصناعة. اما الدين فانه يأمرنا باصطناع الجميل مع اعدائنا فكيف ظنك بالاصدقاء. واما الصناعة فانها موضوعة لنفع ابناء الجنس ومقصورة على معالجاتهم ومع هذا فقد جعل في رقاب الاطباء عهد مؤكد بايمان مغلظة ان لا يعطوا دواءً قتالاً لاحد. فقال الخليفة: انهما شرعان جليلان. وأمر بالخلع فافيضت عليه وحمل المال معه فخرج وهو احسن الناس حالاً وجاهاً. وكان الطيفوري النصراني الكاتب بحسد حنيناً وبعاديه. واجتمع يوماً في دار بعض النصراري ببغداد وهناك صورة المسيح والتلاميذ وقنديل يشتعل بين يدي الصورة. فقال حنين لصاحب البيت: لم تضع الزيت فليس هذا المسيح ولا هؤلاء التلاميذ وانما هي صور. فقال الطيفوري: ان لم يستحقوا الاكرام فأبصق عليهم فبصق فأشهد عليه الطيفوري ورفعاه الى المتوكل فسأله اباحة الحكم عليه لديانة النصرانية فبعث الى الجاثليق والاساقفة وسئلوا عن ذلك فأوجبوا حرم حنين فحرم وقطع زناره وانصرف حنين الى داره ومات من ليلته فجأةً وقيل انه سقى نفسه سمّاً. وكان لحنين ولدان داود واسحق. فاما اسحق فخدم على الترجمة وتولاها واتقنها وأحسن فيها وكانت نفسه أميل الى الفلسفة. واما داود فكان طبيباً للعامة وكان له ابن اخت يقال له حبيش بن الاعسم احد الناقلين من اليوناني والسرياني الى العربي. وكان يقدمه على تلاميذه ويصفه ويرضى نقله. وقيل من جملة سعادة حنين صحة حبيش له فان اكثر ما نقله حبيش نسب الى حنين. وكثيراً

ما يرى الجهال شيئاً من الكتب القديمة مترجماً بنقل حبش فيظن الغرّ منهم انه حين وقد مُصَحَّف فيكشطه ويجعله حين.

(المنتصر بن المتوكل) بايع له^١ قتلة ابيه تلك الليلة التي قتلوا المتوكل . فلما اصبح يوم الاربعاء حضر القواد والكتاب والجند والوجوه الجعفرية فقرأ عليهم احمد بن الخصيب^٢ كتاباً يخبر فيه عن المنتصر ان الفتح بن خاقان قتل المتوكل فقتله به فبايع الناس وانصرفوا . وفي سنة ثماني واربعين ومائتين جدّ وصيف وُبعاً وباقي الاتراك في خلع المعتزّ والمؤيد وألحوا على المنتصر وقالوا: نخلعها ونبايع لابنك عبد الوهاب . فلم يزالوا به حتى اجابهم وخلعها بالكره منه ومنهما . ثم دعاها وقال لها: أترياني خلعتكما طمعاً في ان اعيش حتى يكبر ولدي وبايع له والله ما طمعت في ذلك ساعة قط ولكن هوّلاء (وأوما الى سائر الموالي الاتراك ممن هو قائم وقاعد) ألحوا عليّ في خلعتكما . وفي هذه السنة وهي سنة ثماني واربعين ومائتين مات المنتصر يوم الاحد لحمس ليالٍ خلون من ربيع الآخر بالذبحه وكانت علته ثلثة ايام . قيل وكان كثير من الناس حين افضت الخلافة اليه الى ان مات يقولون: انما مدة حياته ستة اشهر مدة شيرويه بن كسرى قاتل ابيه تقوله العامة والخاصة . وكان عمره خمساً وعشرين سنة وستة اشهر وخلافته ستة اشهر .

(المستعين احمد بن محمد بن المعتصم) لما توفي المنتصر اجتمع الموالي في الهاروني من الغسد وفيهم بغا الكبير وبغا الصغير وأتامش وتشاوروا وكرهوا ان يتولى الخلافة واحد من ولد المتوكل لثلاثي غتاهم فاجمعوا على المستعين احمد بن محمد بن المعتصم وبايعوه . وفي سنة تسع واربعين ومائتين شغب الجند والشاكرية ببغداد لما رأوا من استيلاء الترك على الدولة يقتلون من يريدون من الخلفاء ويستخلفون من اجبوه من غير ديانة ولا نظر للمسلمين . فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء والنفير وفتحوا السجون وأخرجوا من فيها واحرقوا احد الحسين وقطعوا الآخر وانتهوا دور اهل اليسار واخرجوا امراءاً كثيرة ففرقوها فيمن نهض الى حفظ الثغور واخرجوا المعتزّ من الحبس واخذوا من شعره وكان قد كثر وبايعوا له بالخلافة وخلعوا المستعين وكانت ايامه سنتين وتسعة اشهر . فسار المستعين الى بغداد سنة احدى وخمسين ومائتين وحوصر بها . ثم في سنة اثنتين وخمسين ومائتين خلع نفسه من الخلافة فبايع للمعتزّ بن المتوكل وخطب للمعتزّ ببغداد . فلما بايع المستعين للمعتزّ وجهه الى البصرة ومنها الى اواسط وتقدم بقتله فقتل وحمل رأسه الى المعتزّ

١- بايع له الخ ر ببيع له ليلة قتل ابوه المتوكل .

٢- الخصيب ر الخطيب .

فقال: ضموه حتى افرغ من الدست . فلما فرغَ نظر اليه وأمر بدفنه . وفي هذه السنة حبس المعتزّ المؤيد اخاه ثم اخرجته ميتاً لا اثر فيه ولا جرح فقيل انه أدرج في لحاف سُمور وأمسك طرفاه حتى مات . وفي سنة اربع وخسين ومائتين ولّى الاتراك احمد بن طولون مصر وكان طولون مملوكاً تركياً للمأمون ووُلد له ولده احمد في سنة عشرين ومائتين ببغداد . وكان احمد عالي الهمةً يستقلّ بعقول الاتراك واديانهم يثقون به في العظام وتشاغل بالخير والصلاح فتمكنت في القلوب محبته وآل أمره الى ان استولى على مصر وجميع مدن الشام . وفي سنة خمس وخسين ومائتين صار الاتراك الى المعتزّ يطلبون ارزاقهم فاطلمهم بمقهم . فلما رأوا انه لا يحصل منه شيء دخل اليه جماعة منهم فجزوا برجله الى باب الحجره وضربوه بالدبابيس وأقاموه في الشمس في الدار وكان يرفع رجلاً ويضع رجلاً لشدة الحرّ . ثم سلّموه الى من يعذبه فنعه الطعام والشراب ثلاثة ايام ثم ادخلوه سرداباً وحصصوا عليه فات . وكانت خلافته من لدن بُويع بسامراً الى ان خلع اربع سنين وسبعة اشهر ١ .

وفي هذه السنة مات سابور بن سهل صاحب بيارستان جنديسابور وكان فاضلاً في وقته وله تصانيف مشهورة منها كتاب الأقربا بدين الموعول عليه في البيارستانات ودكاكين الصيادلة اثنان وعشرون باباً . وتوفي نصرانياً في يوم الاثنين لتسع ٢ بقين من ذي الحجة (المهتدي بن الواثق) بويج له ليلة بقيت من رجب سنة خمس وخسين ٣ ولم تقبل بيعته حتى أتى المعتزّ فخلع نفسه وأقر بالعجز عما أسند اليه وبالرغبة في تسليمها الى محمد بن الواثق فبايعه الخاصة والعامة . وبعد قتل المعتزّ طلبت أمه الامان لنفسها فأمنوها وظفروا لها بخزائن في دار تحت الارض ووجدوا فيها الف دينار وثلثمائة الف دينار وقدر مكوك زمرّد ومقدار مكوك من اللؤلؤ الكبار ومقدار كيلجة من الياقوت الاحمر . وكان طلب منها ابنا المعتزّ مالاً يعطي الاتراك فقالت: ما عندي شيء . فسبّوها وقالوا: عرضت ابنا للقتل في خمسين الف دينار وعندها هذا المال جميعه . وفي منتصف رجب خلع المهتدي وتوفي لاثنتي عشرة ليلة بقيت منه سنة ست وخسين ومائتين وكانت خلافته احد عشر شهراً وعمره ثمانياً وثلثين سنة .

(المعتمد بن المتوكل) ولما أخذ المهتدي وحُبس احضر ابو العباس احمد بن المتوكل

١ - وكان عمره اربعمائة وعشرين سنة .

٢ - لتسع و سبع .

٣ - خمس وخسين و خمسين .

وكان محبوساً بالجوسق فبايعه الاتراك وغيرهم ولُقبَ المعتمد على الله. ثم ان المهتدي مات ثاني يوم بيعة المعتمد. وفي سنة احدى وستين ومائتين ولّى المعتمد ابنه جعفر العهد ولقبه المفوّض الى الله وولّى اخاه ابا احمد العهد بعد جعفر ولقبه الموفّق بالله. وفي سنة اربع وستين ومائتين دخل عبد الله بن رشيد بن كاوس بلد الروم في اربعة آلاف فارس فغنم وقتل . فلما رحل عن البدندون خرج عليه بطريق سلوقية وبطريق خرشنة واصحابها واحدقوا بالمسلمين. فنزل المسلمون فعربقوا دوابهم وقتلوا فقتلوا الأ خمسائة فانهم حملوا حملة رجل واحد ونجوا على دوابهم وقتل الروم من قتلوا وأسر عبدالله بن رشيد وحمل الى ملك الروم . وفي سنة خمس وستين ومائتين وقع خلاف بين المعتمد واحمد بن طولون فسار الى سبيا والي حلب وبقية العواصم فوجده بانطاكية فحاصره بها وفتحها فظفر بسبيا وقتله وجاء الى حلب وملكها وملك دمشق وحمص وحماة وقنسرين الى الرقة . وأمر المعتمد بلعن ابن طولون على المنابر فلعن ببغداد وسائر العراق ولعن ابن طولون المعتمد على المنابر في جميع اعماله بمصر وغيرها . وفي سنة سبعين ومائتين مات ابن طولون في ذي القعدة^١ وخلف سبعة عشر ابناً احدثهم خمارويه وسبع عشرة بنتاً وترك امه والاً جمّة وممالك كثيرة. وكان كثير الصدقات والخيرات . وقام ولده خمارويه بعده بالملك احسن قيام ودبر احسن تدبير . وفي سنة ثمانى وسبعين ومائتين عرض للموفق وجع النقرس واشتد به فلم يقدر على الركوب . فعمل له سرير عليه قبة وكان يقعد عليه هو وخادم له يبرد رجله بالثلج ثم صارت علّة رجله داء الفيل وكان يحمل سريره اربعون رجلاً بالنوبة . فقال لهم يوماً: قد ضجرت من حملي بوذي لو كنت كواحد منكم احمل على رأسي وأكل وانا في عافية . فوصل الى داره لليلتين خلتا من صفر وشاع موته . وعلى يديه جرى اكثر الحروب مع الزنج وباقي الخوارج . ولما مات الموفق اجتمع القواد وبايعوا ابنه ابا العباس بولاية العهد بعد المفوّض ولُقبَ المعتضد بالله. وفي سنة تسع وسبعين ومائتين توفي المعتمد ليلة الاثنين لاحدى عشرة بقيت من رجب وكان قد شرب على الشط في الحسنيّ يوم الاحد شرباً كثيراً وتعشى فأكثر فمات ليلاً. وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة^٢ . وكان في خلافته محكوماً عليه قد تحكّم^٣ عليه ابو احمد الموفق اخوه وضيّق عليه

١- القعدة ر الحجة . - كانت امارته نحو ست وعشرين سنة .

٢- وكان عمره خمسين سنة وستة اشهر وكان اسن من الموفق بستة اشهر. وهو اول الخلفاء انتقل من سر من رأى مذ بنيت ثم لم يعد اليها احد منهم .

٣- تحكّم ر يحكم .

حتى انه احتاج في بعض الاوقات الى ثلثائة دينار فلم يجدها .

• • •

وكان استخصص الموفق اخو المعتمد جعفر بن محمد المعروف بابي معشر البلخي واتخذة منجماً له وكان معه في محاصرته للزنج بالبصرة . وقيل ان ابا معشر كان في اول امره من اصحاب الحديث ببغداد وكان يضاغن ابا يوسف يعقوب بن اسحق الكندي ويفري به العامة ويشنع عليه بعلوم الفلاسفة . فدرس عليه الكندي من حسن له النظر في علم الحساب والهندسة فدخل في ذلك فلم يكمل له فعدل الى علم احكام النجوم وانقطع شره عن الكندي . ويقال انه تعلم النجوم بعد سبع واربعين سنة من عمره . وكان فاضلاً حسن القريحة صنف كتباً عدة في هذا الفن . فصر به المستعين اسواطاً لانه اصاب في شيء أخبر به قبل وقته . وكأى يقول : اصبحتُ فعوقبت . وجاوز ابو معشر المائة من عمره ومات بواسط . وقيل كان ابو معشر مدمناً على شرب الخمر مشتهراً بمعاقرتها وكان يعتره صرع عند اوقات الامتلاآت القمرية . واما يعقوب الكندي فكان شريف الاصل بصرياً وكان ابوه اسحق اميراً على الكوفة للمهدي والرشيد . وكان يعقوب عالماً بالطب والفلسفة والحساب والمنطق وتأليف اللحن والهندسة والهيئة وله في اكثر هذه العلوم تأليف مشهورة من المصنفات الطوال . ولم يكن في الاسلام من اشتهر عند الناس بمعاونة علم الفلسفة حتى سمّوه فيلسوفاً غير يعقوب هذا وعاصر قسطا بن لوقا البعلبكي وقسطا هذا الفيلسوف نصراني في الدولة الاسلامية دخل الى بلاد الروم وحصل من تصانيفهم الكثيرة وعاد الى الشام واستدعي الى العراق ليترجم الكتب وله تصانيف مختصرة بارعة . وقيل اجتذبه سنحاريب الى ارمينية واقام بها الى ان مات هناك وبنى على قبره قبة اكراماً له كاكرام قبور الملوك ورؤساء الشرائع . قال المؤرخ : لو قلت حقاً قلت انه افضل من صنف كتاباً بما احتوى عليه من العلوم والفضائل وما رزق من الاختصار للالفاظ وجمع المعاني .

وفي آخر دولة المعتمد تحرّك بسواد الكوفة قوم يعرفون بالقرامطة وكان ابتداء امرهم ان رجلاً فقيراً قدم من ناحية خوزستان الى سواد الكوفة وكان يظهر الزهد والتشفي ويسيء الخوص ويأكل من كسبه فأقام على ذلك مدة . وكان اذا قعد اليه رجل ذا كره أمر الدين وزهده في الدنيا واعلمه انه يدعو الى امام من اهل بيت النبي عليه السلام .

١- مشتهراً ر مشتهراً .

٢- ويسف ر ويتعافى نفس .

فلم يزل على ذلك حتى استجاب له جمع كثير واتخذ منهم اثني عشر نقيباً على عدد الحواريين وأمرهم ان يدعوا الناس الى مذهبهم . فبلغ خبره عامل تلك الناحية فأخذه وحبسه وحلف انه يقتله واغلق باب البيت عليه وجعل المفتاح تحت ساداته واشتغل بالشرب . فسمعت جارية له يمينه فرقّت للرجل . فلما نام العامل اخذت المفتاح وفتحت الباب وأخرجته ثم اعادت المفتاح الى مكانه . فلما اصبح العامل فتح الباب ليقته فلم يره وشاع ذلك في الناس وافتتن به اهل تلك الناحية وقالوا رُفِع . ثم ظهر في ناحية اخرى ولقي جماعة من اصحابه وغيرهم وقال لهم : لا يمكن ان ينالني احد بسوء . فعظم في اعينهم . ثم خاف على نفسه فخرج الى ناحية الشام ولم يوقف له على خبر وسمي باسم رجل كان ينزل عنده وهو كرمية^١ ثم خُفّف فقيل قرمطة . وكان فيها حكيم عن القرامطة من مذهبهم انهم جاءوا بكتاب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . يقول الفرج بن عثمان وهو من قرية يقال لها نصرانة ان المسيح تصوّر له في جسم انسان وقال له : انك الداعية وانك الحجة وانك الناقة وانك الدابة وانك يحيى بن زكريا وانك روح القدس وعرفه ان الصلاة اربع ركعات ركعتان قبل طلوع الشمس وركعتان قبل^٢ غروبها والصوم يومان في السنة وهما المهرجان والنيروز . وان النبيذ حرام والخمر^٣ حلال ولا يؤكل كل ذي ناب ولا كل ذي مخلب .

(المعتضد بن الموفق) بويغ في صبيحة الليلة التي مات فيها عمه المعتضد . ولما ولي المعتضد بعث خمارويه بن احمد بن طولون له هدايا والطاقاً شريفة ورسولاً وسأله ان يزوجه ابنة خمارويه المسماة قطر الندى بعلي بن المعتضد . فقال المعتضد : انا اتزوجها . فسرّ خمارويه بذلك . وفي سنة احدى وثمانين ومائتين خرج المعتضد الى الموصل قاصداً للاعراب والاكراد فسار اليهم فأوقع بهم وقتل منهم وغرق منهم في الزاب خلق كبير . وسار المعتضد الى الموصل يريد قلعة ماردين وكانت لحمدان فهرب حمدان منها وخلف ابنه بها فنزلها المعتضد وقاتل من فيها يومه ذلك . فلما كان الغد ركب المعتضد فصعد الى باب القلعة وصاح : يا ابن حمدان . فأجابته . فقال : افتح الباب . ففتحه فقعد المعتضد في الباب وأمر بنقل ما في القلعة وهدمها . ثم ظفر بحمدان بعد عوده الى بغداد وجاءه مستأمناً اليه . وفي سنة اثنتين وثمانين ومائتين جهز خمارويه ابنته احسن جهازاً وبعث

١ - كرمية و كرمينة .

٢ - قبل . روى ابن الاثير « بعد » .

٣ - والخمر و الشراب .

بها الى المعتضد في المحرم . وفي هذه السنة لثلك خلون من ذي الحجة قُتل خمارويه بدمشق ذبحه على فراشه بعض خاصته . ولما قُتل اقلعوا مكانه ابنه هرون والتزم انه يحمل من مصر الى خزانه المعتضد في كل سنة الف الف دينار وخمسمائة الف دينار . وفي سنة ثلث وثمانين ومائتين سارت الصقالبة الى الروم فحاصروا القسطنطينية وقتلوا من اهلها خلقاً كثيراً وخربوا البلاد . فلما لم يجد ملك الروم منهم خلاصاً جمع من عنده من أسارى المسلمين واعطاهم السلاح وسألمهم معونته على الصقالبة ففعلوا وكشفوهم وازاحوهم عن القسطنطينية . فلما رأى ملك الروم ذلك خاف المسلمين على نفسه فأخذ سلاحهم وفرقهم في البلدان حذراً من جنائتهم عليه . وفي هذه السنة كان الفداء بين المسلمين والروم وكان جملة من فودي به من المسلمين من الرجال والنساء والصبيان الفين وخمسمائة واربعة انفس . وفي هذه السنة وهي سنة اربع وثمانين ومائتين كان المنجمون يوعلون بغرق اكثر الاقاليم الا اقليم بابل فانه يسلم منه اليسير واذ ذلك يكون بكثرة الامطار وزيادة المياه في الانهار والعيون . فقحط الناس وقلت الامطار وغارت المياه حتى استسقى الناس ببغداد مرات . وفي سنة خمس وثمانين ومائتين ظهر رجل من القرامطة يعرف بأبي سعيد بالبحرين واجتمع اليه جماعة من الاعراب والقرامطة وقوي أمره فقاتل ما حوله من القرى ثم صار الى القطيف واظهر انه يريد البصرة . فأمر المعتضد ببناء سور على البصرة فعمل وكان مبلغ الخرج عليه اربعة عشر الف دينار . وفي سنة ثمانين وثمانين ومائتين وقع الوباء باذربيجان فمات منه خلق كثير الى ان فقد الناس ما يكفون به الموتى وكانوا يطرحونهم في الطريق . وفيها سارت الروم الى كيسوم فتهبوا وغنموا اموال اهلها واسروا منها نحو خمسة عشر الف انسان من رجل وصبي وامرأة . وفي سنة تسع وثمانين ومائتين انتشر القرامطة بسواد الكوفة فأخذ رئيسهم وسيّر الى المعتضد وأحضره وقال له : اخبرني هل تزعمون ان روح الله تحل في اجسادكم . فقال له الرجل : يا هذا ان حلت روح الله فينا فما يضرك وان حلت روح ابليس فما ينفعك فلا تسأل عما لا يعينك وسلّ عما يخلصك . فقال : ما تقول فيما يخصني . فقال : اقول ان النبي عليه السلام مات وابوكم العباس حيّ فهل طلب الخلافة ام هل بايعه احد من الصحابة على ذلك . ثم مات ابو بكر واستخلف عمر وهو يرى موضع العباس ولم يوص الىه . ثم مات عمر وجعلها شورى في ستة انفس ولم يوص الى العباس ولا ادخله فيهم فبماذا تستحقون انتم الخلافة وقد اتفق الصحابة على دفع جدك عنها . فأمر به المعتضد فعذب

وُخَلعت عظامه ثم قطعت يداه ورجلاه ثم قُتِل. وبعد قليل في هذه السنة في ربيع الآخر لثمان بقين منه توفي المعتضد فاجتمع القواد وحددوا البيعة لابنه المكتفي وكانت خلافة المعتضد تسعاً سنين وتسعة اشهر وعمره سبع واربعين سنة. وقيل كان المعتضد اسمر نحيفاً شهماً شجاعاً وكان فيه شحّ وكان عفيفاً مهيباً عند اصحابه يتقون سطوته ومع ذلك جاوز الحد في الحلم. قال الوزير عبد الله بن سليمان بن وهب: كنت عند المعتضد يوماً وخادم بيده المذبة اذ ضربت قلنسوة المعتضد فسقطت فكادت اختلط إعظاماً للحال ولم يتغير المعتضد وقال: هذا الغلام قد نعس. ولم ينكر عليه. فقبّلت الارض وقلت: والله يا امير المؤمنين ما سمعت بمثل هذا ولا ظننت ان حلاماً يسعه. قال: وهل يجوز غير هذا انا اعلم ان هذا الصبي البائس لو دار في خلد ما جرى لذهب عقله وتلف والانكار لا يكون الا على المعتمد دون الساهي الخاطي.

* * *

وفي ايام المعتضد علت منزلة بني موسى بن شاكر وهم ثلثة محمد واحمد والحسن. وكان موسى بن شاكر يصحب المأمون ولم يكن موسى من اهل العلم بل كان في حدائته حرامياً يقطع الطريق ثم انه تاب ومات وخلف هوؤلاء الاولاد الثلثة صغاراً فوصى بهم المأمون اسحق بن ابراهيم المصعبي واثبتهم مع يحيى بن ابي منصور في بيت الحكمة وكانت حالهم رثة رقيقة. على ان ارزاق اصحاب المأمون كلهم كانت قليلة. فخرج بنو موسى ابن شاكر نهاية في علومهم وكان اكبرهم واجلّهم ابو جعفر محمد وكان وافر الحظ من الهندسة والنجوم ثم خدم وصار من وجوه القواد الى ان غلب الاتراك على الدولة. وكان احمد دونه في العلم الا صناعة الحيل فانه فُتِح له فيها ما لم يفتح مثله لاحد. وكان الحسن وهو الثالث منفرداً بالهندسة وله طبع عجيب فيها لا يدانيه احد علم كل ما علم بطبعه ولم يقرأ من كتب الهندسة الا ست مقالات من كتاب اوقليدس في الاصول فقط وهي اقل من نصف الكتاب ولكن ذكره كان عجباً وتخيله كان قوياً. وحكي ان المروزي قال عنه يوماً للمأمون انه لم يقرأ من كتاب اوقليدس الا ست مقالات. ازاد بذلك كسره. فقال الحسن: يا امير المؤمنين لم يكن يسألني عن شكل من اشكال المقالات التي لم اقرأها الا استخرجته بفكري وأتيته به؟ ولم يكن يضرتني اني لم اقرأها

١- تسع. روى ابن الاثير «سبعاً» س تسع سنين وتسعة اشهر.

٢- ضربت و ضرب.

٣- وأتيته به و اثبتته.

ولا تنفعه قراءته لها اذ كان من الضعف فيها بحيث لم تغنه قرآته في اصغر مسألة من الهندسة فانه لا يحسن ان يستخرجها . فقال له المأمون : ما ادفع قولك ولكني ما اعنرك ومحلك من الهندسة محلك ان يبلغ بك الكسل ان لا تقرأه كله وهو للهندسة كحروف اب ت ث للكلام والكتابة . وفي دار محمد بن موسى تعلم ثابت بن قرة بن مروان الصابي الحرّاني نزيل بغداد فوجب على محمد حقّه فوصله بالمتعضد وادخله في جملة المنجمين . وبلغ ثابت هذا مع المتعضد اجلّ المراتب وأعلى المنازل حتى كان يجلس بحضرته في كل وقت ويحادثه طويلاً ويضاحكه ويقبل عليه دون وزرائه وخاصته . وله مصنّفات كثيرة في التعليمات الرياضيّة والطب والمنطق وله تصانيف بالسريانية فيما يتعلق بمذهب الصابئة في الرسوم والفروض والسنن وتكفين الموتى ودفنهم وفي الطهارة والنجاسة وما يصلح من الحيوان للضحايا وما لا يصلح وفي اوقات العبادات وترتيب القراءة في الصلاة . والذي تحققنا من مذهب الصابئة ان دعوتهم هي دعوة الكلدانيين القدماء بعينها وقبلتهم القطب الشماليّ ولزموا فضائل النفس الاربعة . والمفترض عليهم ثلاث صلوات اولها قبل طلوع الشمس بنصف ساعة او اقلّ لتنقضي مع الطلوع ثماني ركعات في كل ركعة ثلاث سجّادات . والثانية انقضاؤها مع نصف النهار والزوال خمس ركعات في كل ركعة ثلاث سجّادات . والثالثة مثل الثانية تنقضي مع الغروب . والصيام المفروض عليهم ثلثون يوماً اولها الثامن من اجتماع آذار . وتسعة ايام اولها التاسع من اجتماع كانون الاول . وسبعة ايام اولها ثامن ايشاباط . ويدعون الكواكب . وقرابينهم كثيرة لا يأكلون منها بل يحرقونها . ولا يأكلون الباقلي والثوم وبعضهم اللوبياء والقنبيط والكرنب والعدس . واقوالهم قريبة من اقوال الحكماء ومقالاتهم في التوحيد على غاية من التقانة ويزعمون ان نفس الفاسق تعذب تسعة آلاف دور ثم تصير الى رحمة الله تعالى . وكان في دولة المتعضد احمد بن محمد بن مروان بن الطيب السرخسي احد فلاسفة الاسلام وله تأليف جلييلة في علوم كثيرة من علوم القدماء والعرب وكان حسن المعرفة جيّد القريحة بليغ اللسان مليح التصنيف وكان اولاً معلماً للمتعضد ثم نادمه وخصّ به وكان يُفضي اليه بأسراره كلها ويستشيره في امور مملكته وكان الغالب على احمد هذا علمه لا عقله واتفق ان افضى اليه بسر فاذاعه فأمر المتعضد بقتله فقتل .

(المكتني بن المتعضد) لما توفي المتعضد كتب الوزير الى ابي محمد عليّ بن المتعضد وهو المكتني وعرفه أخذ البيعة له وكان بالرقّة فأخذ له البيعة على من عنده من الاجناد وسار الى بغداد فدخلها لثمان خلون من جمادى الاولى سنة تسع وثمانين ومائتين .

وفيها ظهر بالشام رجل من القرامطة وجمع جموعاً من الاعراب وأتى دمشق وبها طغج ابن جف^١ من قبل هرون بن خارويه بن اخمد بن طولون وكانت بينهم وقعتات. وفي سنة احدى وتسعين ومائتين خرجت الترك في خلق كثير لا يحصون الى ما وراء النهر وكان في عسكرهم سبعمائة قبة تركية ولا تكون الا للروساء منهم. فسار اليهم جيش المسلمين وكبسوهم مع الصبح فقتلوا منهم خلقاً عظيماً وانهزم الباقون. وفيها خرج الروم في عشرة صلبان مع كل صليب عشرة آلاف الى الثغور فأغاروا وسبوا وأحرقوا. وفي سنة اثنتين وتسعين ومائتين جهّز المكتفي الى هرون بن خارويه جيشاً في البر والبحر فحاصروه بمصر وجرى بينهم قتال شديد ووقعات كثيرة آخرها ان بعض الرماة من اصحاب المكتفي رمى هرون بمزراق معه فقتله وانهزم المصريون وكان هو آخر امراء آل طولون وانقرضت الدولة الطولونية في هذه السنة. وفي سنة ثلث وتسعين ومائتين اغارت الروم على قورس ودخلوها فأحرقوا جامعها وساقوا من بقي من اهلها لانهم قتلوا اكثرهم. وفي سنة خمس وتسعين ومائتين في ذي القعدة توفي المكتفي بالله وكانت خلافته ست سنين وستة اشهر وكان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة.

* * *

وفي ايام المكتفي اشتهر يوسف الساهر الطيب ويعرف ايضاً بالقس^٢ وكان مشهور الذكر مكباً على الطب كثير الاجتهاد في تحصيل الفوائد وسمي الساهر لانه كان لا ينام في الليل الا ربه او ازيد ثم يسهر في طلب العلم. وقيل انما سمي الساهر لان سرطاناً كان في مقدم رأسه وكان يمنعه النوم. واذا تأمل متأمل كناشه رأى فيه اشياء تدل على انه كان به هذا المرض.

(المقتدر بن المعتضد) لما ثقل المكتفي في مرضه استشار الوزير وهو حينئذ العباس ابن الحسن اصحابه فيمن يصلح للخلافة. فقالوا له: اتق الله ولا تول من قد لقي الناس ولقوه وعاملهم وعاملوه وتحك^٣ وحسب حساب نعم الناس وعرف وجوه دخلهم وخرجهم. فقال الوزير: صدقتم ونصحتم. فبمن تشيرون. قالوا: اصلح الموجودين جعفر بن المعتضد. قال: ويحكم هو صبي. قال ابن الفرات: الا انه ابن المعتضد ولا تأتي برجل كامل يباشر الامور بنفسه غير محتاج اليها. فركن الوزير الى قولهم. فلما مات المكتفي

١- جف و خف.

٢- وتحك و تحييل.

٣- اليانار الى مشاور.

نصب جعفرًا للخلافة وأخذ له البيعة ولقبه المقتدر بالله . فلما بويح المقتدر استصغره الوزير وكان عمره اذ ذاك ثلث عشرة سنة . وكثر كلام الناس فيه فعزم على خلعه . ثم في سنة ستّ وتسعين ومائتين اجتمع القواد والقضاة مع الوزير على خلع المقتدر بالله والبيعة لابن المعتزّ . ثم ان الوزير رأى امره صالحاً مع المقتدر فبدا له في ذلك . فوثب به الحسين بن حمدان فقتله وخلع المقتدر وباع الناس ابن المعتزّ ولُقب المرتضي بالله ووجه الى المقتدر بأمره بالانتقال الى الدار التي كان مقيماً فيها لينتقل هو الى دار الخلافة فأجابته بالسمع والطاعة وسأل الامهال الى الليل . وعاد الحسين بن حمدان بكرة غدٍ الى دار الخلافة فقاتله الخدم والغلمان والرجال من وراء الستور عامّة النهار فانصرف عنهم آخر النهار . فلما جنّ الليل سار عن بغداد بأهله وماله الى الموصل لا يُدرى لم فعل ذلك ولم يكن بقي مع المقتدر من القواد غير مؤنس الخادم ومؤنس الخازن . ولما رأى ابن المعتزّ ذلك ركب ومعه وزيره محمد بن داود وغلّام له وساروا نحو الصحراء ظناً منهم ان من بايعه من الجند يتبعونه . فلما لم يلحقهم احد رجعوا واختفوا ووقعت الفتنة والنهب والقتل ببغداد وثار العيارون والسفل يهبون الدور وخرج المقتدر بالعسكر وقبض على جماعة وقتلهم وكتب الى ابي الهيجاء بن حمدان يأمره بطلب اخيه الحسين فانهمز الحسين وارسل اخاه ابراهيم يطلب له الامان فأجيب الى ذلك ودخل بغداد وخلع عليه وعقد له على قمّ وقاشان فسار اليها . وفي هذه السنة سقط ببغداد ثلج كثير من بكرة الى العصر فصار على الارض اربع اصابع وكان معه برد شديد وجد الماء والنخل والبيض وهلك النخل وكثير من الشجر . وفي سنة ثلث وثلثمائة خرج الحسين بن حمدان بالجزيرة عن طاعة المقتدر فجهّز الوزير رائق الكبير في جيش وسيّره اليه فالتقيا واقتتلا قتالاً شديداً فانهمز رائق وغنم الحسين سواده . فسمع ذلك مؤنس الخادم وجدّ بالسير نحو الحسين فرحل الحسين نحو ارمينية مع ثقله واولاده وتفرق عسكره عنه فأدركه جيش مؤنس واسروه ومعه ابنه عبد الوهاب . وعاد مؤنس الى بغداد على الموصل ومعه الحسين فأركب على جمل هو وابنه وعليهما البرانس واللبود الطوال وقمصان من شعر احمر وحُبسا . وفي هذه السنة خرج ملبح الارمني الى مرعش فعاث في بلدها واسر جماعة ممن حولها وعاد . وفي سنة خمس وثلثمائة وصل رسولان من ملك الروم الى المقتدر يطلبان المهادنة والقداء فأكرما أكراماً تاماً كثيراً ودخلا على الوزير وهو في اكمل هيئة وأديا الرسالة اليه .

١ - وروى : رائق .

٢ - من ر من .

ثم انهما دخلا على المقتدر وقد جلس لها واصطفّت الاجناد بالسلاح والزينة التامة وأديا الرسالة. فأجابهما المقتدر الى ما طلب ملك الروم من الفداء وسيّر مؤنساً الخادم ليحضر الفداء وانفذ معه مائة الف وعشرين الف دينار لفداء اسارى المسلمين. وفيها أطلق ابو الهيجاء بن حمدان واخوته واهل بيته من الحبس. وفي سنة تسع وثلثمائة قُتل الحسين الحلاج بن منصور. وكان ابتداء حاله انه كان يُظهر الزهد ويُظهر الكرامات وقيل انه حرّك يوماً يده فانتثر على قوم دراهم. فقال بعض من تفهم أمره ممن حضر: ارى دراهم معروفةً ولكني اومن بك وخلقٌ معي ان اعطيني درهماً عليه اسمك واسم ابيك. فقال: وكيف وهذا لا يصنع. فقال له: من حضر ما ليس بحاضر صنع ما ليس بمصنوع. وكان قدم من خراسان الى العراق وسار الى مكة فأقام بها سنة في الحجر لا يستظل تحت سقف شتاء ولا صيفاً ورُئي في جبل ابي قبيس على صخرة حافياً مكشوف الرأس والعرق يجري منه الى الارض. وعاد الحلاج الى بغداد فافتتن به خلق كثير واعتقدوا فيه الحلول والربوبية. ثم نقل عنه الى الوزير حامد انه أحيا جماعة من الموتى. فلما سأله الوزير عن ذلك انكره وقال: اعوذ بالله ان ادعي النبوة او الربوبية وانما انا رجل اعبد الله. فلم يتمكن الوزير من قتله حتى رأى له كتاباً فيه: ان الانسان اذا اراد الحج ولم يمكنه افرد من داره بيتاً طاهراً فاذا حضرت ايام الحج طاف حوله وفعل ما يفعل الحجاج بمكة ثم يطعم ثلاثين يتيماً ويكسوهم ويُعطي كل واحد منهم سبعة دراهم. فأحضر الوزير القضاة ووجوه الفقهاء واستفتاهم. فكتبوا باباحة دمه فسلمه الوزير الى صاحب الشرطة فضربه الف سوط فما تأوّه لها ثم قطع يده ثم رجله ثم رجله الاخرى ثم يده ثم قُتل وأحرق وألقي رماده في دجلة ونصب الرأس ببغداد. واختلف في بلدة الحلاج ومنشأه فقيل من خراسان وقيل من نيسابور وقيل من مرو وقيل من الطالقان وقيل من الري. وقيل كان رجلاً محتالاً مشعبداً يتعاطى مذاهب الصوفية ويدعي ان الالهية قد حلت فيه وانه هو هو. وقيل له وهو مصلوب: قل لا إله الا الله. فقال: ان بيتاً انت ساكنه غير محتاج الى السرج. وامتحنه ابو الحسين عليّ ابن عيسى وناظره فوجده صفرأ من العلوم فقال له: تعلمك طهورك وفروضك اجدى عليك من رسائل لا تدري ما تقول فيها. لم تكتب الى الناس بقولك: تبارك ذو النور الشعشعاني الذي يلمع بعد شعشعته. ما احوجك الى الادب. وقال ابو الحسن بن الجندي انه رأى الحلاج وشاهد

١- او ر مع .

٢- ونصب ر و صلب .

من شعابيده اشياء منها تصويره بين يديه بستاناً فيه زروع وماء . وفي سنة خمس عشرة
 وثلاثمائة استشعر مؤنس الخادم خوفاً من المقتدر فامتنع من دخول دار المقتدر . فاجتمع
 اليه جميع الاجناد وقالوا له : لا تخف نحن نقاتل بين يديك الى ان يثبت لك الحية . فوجه
 اليه المقتدر رقعة بخطه يحلف له على بطلان ما قد بلغه . فقصده دار المقتدر في جمع من
 القواد ودخل اليه وقبّل يده . وحلف له المقتدر على صفاء نيته له . وفي سنة سبع عشرة
 وثلاثمائة خلّع المقتدر بالله من الخلافة وبويع اخوه القاها بالله محمد بن المعتضد فبقي
 يومين ثم أعيد المقتدر . وكان السبب في ذلك استيحاش مؤنس الخادم . وفي سنة
 عشرين وثلاثمائة سار مؤنس الخادم الى الموصل مغاضباً ووجه خادمه بشرى برسالة الى
 المقتدر . فسأله الوزير الحسين عن الرسالة . فقال : لا اذكرها الا للمقتدر كما امرني
 صاحبي . فشمته الوزير وشم صاحبه وأمر بضربه وصادره بثلاثمائة الف دينار . فلما بلغ
 مؤنس ما جرى على خادمه وهو بحربي ينتظر ان يطيب المقتدر قلبه ويعيده سار نحو
 الموصل ومعه جميع القواد فاجتمع بنو حمدان على محاربتة . ولما قرب مؤنس من الموصل
 كان في ثمانمائة فارس واجتمع بنو حمدان في ثلثين الفاً فالتقوا واقتتلوا فانهمز بنو حمدان
 واستولى مؤنس على اموالهم وديارهم فخرج اليه كثير من العساكر من بغداد والشام ومصر
 لاحسانه اليهم وأقام بالموصل تسعة اشهر ثم انحدر الى بغداد ونزل بباب الشامية . وأشار
 على المقتدر اصحابه بحضور الحرب فان القوم متى رأوه عادوا جميعهم اليه فخرج وهو
 كاره وبين يديه الفقهاء والقراء ومعهم المصاحف منشورة وعليه البردة والناس حوله .
 فوقف على تل عال بعيد عن المعركة . فأرسل قواده يسألونه التقدم . فلما تقدم من موضعه
 انهزم اصحابه قبل وصوله اليهم . فأراد الرجوع فلحقه قوم من المغاربة وشهروا عليه
 سيوفهم . فقال : ويحكم انا الخليفة . قالوا : قد عرفناك يا سفلة . وضربه واحد بسيفه
 على عاتقه فسقط الى الارض وذبحه بعضهم ورفعوا رأسه على خشبة وهم يكبرون ويلعنونه
 واخذوا جميع ما عليه حتى سراويله وتركوه مكشوف العورة الى ان مر به رجل من الاكرة
 فستره بخشيش ثم حفر له في موضعه ودفن وعفا قبره . ولما حمل رأس المقتدر الى مؤنس
 بكى ولطم وجهه ورأسه وأنفذ الى دار الخليفة من منعها من النهب . وكانت خلافة
 المقتدر خمساً وعشرين سنة وعمره ثمانين سنة .

• • •

١ - القاها . والقادر وهو تصحيف س واخرج من الحبس محمد بن المعتضد وحلف له (وبايمة) وصماه القاها .

٢ - وصفار وخفي .

وفي سنة سبع عشرة وثلثمائة مات محمد بن جابر بن سنان ابو عبد الله الحراني المعروف بالبتاني احد المشهورين برصد الكواكب ولا يُعلم احد من الاسلام بلغ مبلغه في تصحيح ارساد الكواكب وامتحن حركاتها . وكان اصله من حران صابئاً . وفي سنة عشرين وثلثمائة توفي محمد بن زكريا الرازي وكان في ابتداء امره يضرب بالعود ثم ترك ذلك واقبل على تعلم الفلسفة فنال منها كثيراً وألّف كتباً كثيرة اكثرها في صناعة الطب وسائرها في المعارف الطبيعية ودبر بيارستان الري^١ ثم بيارستان بغداد زماناً . وكان في بصره رطوبة لكثرة أكله الباقلي ثم عمي في آخر عمره بماء نزل في عينيه . وجاءه كحال ليقدها فسأله عن العين كم طبقة هي . فقال : لا اعلم . فقال له : لا يقده عيني من لا يعلم ذلك . فقيل له : لو قدحت لكنت ابصرت . قال : لا قد ابصرت في الدنيا حتى مللت . وقيل ان ابا بكر محمد بن زكريا الرازي اوجد دهره وفريد عصره جمع المعرفة بعلوم القدماء لا سيما الطب وكان شيخاً كبير الرأس مسقطاً . ولم يكن يفارق النسخ اما يسود^٢ او يبيض . وألّف في الكيمياء اثني عشر كتاباً وذكر انها اقرب الى الممكن منها الى الممتنع . وكان كريماً متفضلاً باراً بالناس حسن الرأفة بالفقراء والاعلاء حتى كان يجري عليهم الجرايات الواسعة ويمرضهم . وحكي عن الكعبي انه قال لابن زكريا : رأيتك تدعي ثلاثة اصناف من العلوم وانت اجهل الناس بها تدعي الكيمياء وقد حبستك زوجتك على عشرة دراهم فلو ملكت يوماً قدر مهرها ما رافعتك الى الحاكم فحضرت معها وحلفت لها عليه . وتدعي الطب وتركت عينك حتى ذهبت . وتدعي النجوم والعلم بالكائنات وقد وقعت في نوايب لم تشعر بها حتى احاطت بك . اقول الطعن الاول مبين لما نقل من حسن رأفته بالفقراء ولا يبعد ان الأخر^٣ قول حاسد . ومن الاطباء الذين للمقتدر بختيشوع بن يحيى^٤ وسنان بن ثابت بن قرة الصابي والد ثابت بن سنان صاحب التاريخ . ولم يكن في اطبائه اخص من هذين . وسيأتي قصة سنان في باب خلافة القاهرة .

(القاهر بن المعتضد) لما قُتل المقتدر عظم قتله على مؤنس وقال : الرأي ان تنصب ولده ابا العباس فانه تربيتي وهو صبي عاقل فيه دين وكرم ووفاء بما يقول . فاعترض

١- الري و جندسابور .

٢- النسخ اما يسود الخ و الشيخ اما تسويد او تبيض .

٣- الأخر و الثلاثة .

٤- يحيى و عيسى .

عليه اسحق النوبختي وقال: بعد الكد استرحنا من خليفة له أم وخالة وخدم يدبرونه فنعود الى تلك الحال لا والله لا نرضى الا برجل كامل يدبر نفسه ويدبرنا. وما زال حتى ردّ مؤنساً عن رأيه وذكر له ابو منصور محمد بن المعتضد فأجابه مؤنس الى ذلك. وكان النوبختي في ذلك كالباحث عن حفته بظلفه فان القاهر قتله كما سيأتي ذكره. وأمر مؤنس باحضار محمد ابن المعتضد فبايعوه بالخلافة لليلتين بقيتا من شوال سنة عشرين وثلثمائة ولقبوه القاهر بالله. وكان مؤنس كارهاً لخلافته ويقول: انني عارف بشره وشؤمه. ولما بويع استخلفه مؤنس لنفسه ولحاجبه بليق وعلمي بن بليق. واستحجب القاهر علي بن بليق وتشاغل القاهر بالبحث عن استر من اولاد المقتدر وحرمه ثم احضر القاهر ام المقتدر عنده وكانت مريضة قد ابتداء بها استسقاء فسألها عن مالها فاعترفت له بما عندها من المتاع والثياب ولم تعترف بشيء من المال والجواهر. فضربها اشدّ ما يكون من الضرب وعلقها برجلها وضرب المواضع الغامضة من بدنها. فحلفت انها لا تملك غير ما اطلمته عليه. وصادر جميع حاشية المقتدر واصحابه ووكل على بيع املاك أم المقتدر وحلّ وقوفها فبيع جميع ذلك. وفي سنة احدى وعشرين وثلثمائة استوحش مؤنس وبليق الحاجب وولده علي الوزير وابو علي بن مقله من القاهر وضيّقوا عليه ووكلوا على دار الخليفة احمد بن زبير وأمروه بتفتيش كل من يدخل الدار ويخرج منها وان يكشف وجوه النساء المنقبّات. ففعل ذلك وزاد عليه حتى انه نُحْمِل الى دار القاهر لبناً فأدخل يده فيه ثلاثا يكون فيه رقعة. فعلم القاهر ان العتاب لا يفيد فأخذ في الحيلة والتدبير عليهم وارسل الى الساجية اصحاب يوسف بن ابي الساج يغيرهم بمؤنس وبليق ويحلف لهم على الوفاء فتغيرت قلوبهم. فبلغ ابن مقله ان القاهر يجتهد في التدبير عليهم فذكر ذلك لمؤنس وبليق وابنه فاتفق رأيهم على خلع القاهر الا مؤنس فانه قال لهم: لست اشك في شر القاهر ونخبته ولقد كنت كارها لخلافته وأشرت بساين المقتدر فخالفتوني وقد بالغتم الآن في الاستهانة به وما صبر على الهوان الا من خبث طويته ليدبر عليكم فلا تعجلوا حتى تؤنسوه وينسط اليكم ثم اعملوا على ذلك. فقال علي بن بليق وابن مقله: ما يُحتاج الى هذا التطويل فان الحجبة لنا والدار في ايدينا وما يحتاج ان نستعين في القبض عليه بأحد لانه بمنزلة طائر في قفص. واتفقوا على ان يدخل علي بن بليق على القاهر ويكون قد أمر جماعة من عسكره بالركوب الى ابواب دار الخليفة فيقبض عليه. فهم في هذا ان حضر ظريف السكري في زي امرأة فاجتمع بالقاهر فذكر له جميع ما قد عزموا عليه فأخذ حذره وانفذ الى الساجية احضروهم متفرقين

وأكنهم في الدهليز والممرات والرواقات . وحضر عليّ بن بليق بعد العصر وفي رأسه نبيذ ومعه عدد يسير من غلّانه بسلاح خفيف وطلب الأذن فلم يؤذن له فغضب وأساء اديه . فخرج اليه الساجية وشمّوه وإياه . فألقى نفسه الى طيارة وعبر الى الجانب الغربي واختفى من ساعته . وبلغ الخبر ابن مقلّة فاستتر . وانكر بليق ما جرى على ابنه وسبّ الساجية وحضر دار الخليفة ليعتاب على ذلك فلم يوصله القاهر اليه وأمر بالقبض عليه وعلى ابن زيرك . وراسل القاهر مؤنساً يسأله الحضور عنده وقال : انت عندي بمنزلة الوالد وما احب ان اعمل شيئاً الا عن رأيك . فاعتذر مؤنس عن الحركة وانه قد استولى عليه الكبر والضعف . فأظهر له الرسول النصيح وقال : ان تأخرت طمع ولو رأك نائماً ما تجاسر على ان يوقظك . فسار مؤنس اليه فلما دخل الدار قبض عليه القاهر وحبسه . قيل لما علم القاهر بمجيء مؤنس هابه وهاله أمره وارتعد وتغيّرت احواله وزحف من صدر فراشه ثم ربط جأشه . ولما قبض على مؤنس شغب اصحابه وثاروا وتبعهم سائر الجند . وكان القاهر قد ظفر بعليّ بن بليق فدخل القاهر اليه وأمر به فذبح واخذوا رأسه فوضعه في طشت ثم مضى القاهر والطشت يُحمّل بين يديه حتى دخل على بليق فوضع الطشت بين يديه وفيه رأس ابنه . فلما رآه بكى واخذ يقبله ويترشّقه . فأمر القاهر فذبح ايضاً وجعل رأسه في الطشت وحمل بين يدي القاهر ومضى حتى دخل على مؤنس فوضعها بين يديه . فلما رأى الرأسين تشهد ولعن قاتلها . فقال القاهر : جرّوا برجل الكلب الملعون فجرّوه وذبحوه وجعلوا رأسه في طشت وأمر فطيف بالرووس في جانبتي بغداد ونودي عليها : هذا جزء من يخون الامام ويسعى في فساد دولته .

* * *

وفي ايام القاهر كان ابتداء دولة بني بويه وهم ثلاثة عماد الدولة عليّ وركن الدولة الحسن ومعز الدولة احمد اولاد ابي شجاع بويه بن فناخسرو من ولد يزيدجرد بن شهريار آخر ملوك الفرس . وهذا نسب عريق في الفرس ولا شك انهم نسبوا الى الديلم حيث طال مقامهم ببلادهم . وقيل ان ابا شجاع بويه كان متوسط الحال ورأى في منامه كأنه يبول فخرج من ذكره نار عظيمة استطالت وعلت حتى كادت تبلغ السماء ثم انفجرت فصارت ثلث شعّب وتولد من تلك الشعب عدة شعب فأضاءت الدنيا بتلك النيران ورأى البلاد والعباد خاضعين لتلك النيران . فضى بويه الى رجل يقول عن نفسه انه منجم ومعزّم ومعبرّ المنامات ويكتب الرقى والطلسمات وقصّ عليه منامه . فقال المنجم :

هذا منام عظيم لا افسره الا بخلعة و فرس . فقال بويه : والله ما املك الا الثياب التي على جسدي فان اخذتها بقيتُ عرياناً . قال المنجم : فعشرة دنائير . قال : والله ما املك دينارين فكيف عشرة . فأعطاه شيئاً . فقال المنجم : اعلم انه يكون لك ثلاثة اولاد يملكون الارض ويعلو ذكركم في الآفاق ويولد لهم جماعة ملوك بقدر ما رأيت من تلك الشعب . فقال ابو شجاع بويه : اما تستحي تسخر منا انا رجل فقير واولادي هؤلاء مساكين كيف يصيرون ملوكاً . قال المنجم : اذكروا لي هذا اذا قصدتكم واتم ملوك . فاغتاظ منه بويه وقال لاولاده : اصفعوا هذا الحكيم فقد افطر في السخرية بنا . فصفعوه واخرجوه . ثم خرج اولاد بويه من الديلم وصاروا الى مرداويج^١ بطبرستان فقبلهم احسن قبول وخلع عليهم وقلد عماد الدولة علي بن بويه كرج . فاستمال اهلهما بالصلوات والهبات فأحبوه وملكوه وقوي جنابه واستولى على اصفهان وعظم في عيون الناس وملك ارجان ايضاً . وانفذ اخاه ركن الدولة الحسن الى كازرون وغيرها من اعمال فارس . فاستخرج منها اموالاً جلييلة وعاد الى اخيه غانماً سالماً . وفي سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة استولى عماد الدولة علي بن بويه على شيراز وملكها . وفي هذه السنة خلع القاهر في جمادى الاولى وذلك ان ابن مقله كان مستتراً والقاهر يتطلبه وكان يرسل قواد الساجية والحجرية ويخوفهم من شر القاهر ويذكر لهم غدره ونكته مرة بعد اخرى كقتل مؤنس وبليق وابنه بعد الايمان لهم الى غير ذلك . وكان ابن مقله يجتمع بسيا زعيم الساجية تارة في زي اعمى وتارة في زي مكذبة وتارة في زي امرأة ويغريه بالقاهر . ثم ان ابن مقله اعطى منجماً كان لسيا مائتي دينار^٢ . وكان يذكر ان طالعه يقتضي ان ينكبه القاهر . واعطى ايضاً شيئاً لمعبر كان لسيا يعبر له المنامات وكان يحذره من القاهر . فازداد نفوراً . فانفق مع اصحابه ومع الحجرية على خلع القاهر . وبلغ ذلك الوزير فأرسل الحاجب سلاماً وعيسى الطيب ليعلماه بذلك فوجداه نائماً قد شرب اكثر ليلته فلم يقدر على اعلامه بذلك . فزحف الحجرية والساجية الى الدار . ولما سمع القاهر الاصوات والغلبة استيقظ وهو مخمور وطلب باباً يهرب منه فقبل له : ان الابواب جميعها مشحونة بالرجال . فهرب الى سطح حمام . فأخذوه من هناك وحبسوه وكانت خلافته عاماً واحداً وسبعة اشهر . ثم عاش خاملاً الى ان مات سنة ثمان وثلثين وثلثمائة .

• • •

١- مرداويج و مرداويج .

٢- مائتي و مائة .

عيسى الطيب المذكور ههنا هو ابن يوسف المعروف بابن العطار كان متطبب القاهر وثقته ومشيرته وسفيره بينه وبين وزرائه وتقدم في وقته تقدماً كثيراً . وشاركه سنان ابن ثابت بن قرّة في الطب وكان خصيصاً بالقاهر وكان عيسى اشدّ تقدماً منه . ولكثرة اغتباط القاهر بسنان اراده على الاسلام فامتنع امتناعاً شديداً كثيراً . فهدده القاهر فخافه لشدة سطوته فأسلم واقام مدة . ثم رأى من القاهر انه اذا أمره بشيء أخافه فانهزم الى خراسان وعاد توفي ببغداد في سنة احدى وثلاثين وثلاثمائة . ومن ظريف ما جرى لسنان في امتحان الاطباء^١ عند تقدم الخليفة اليه بذلك انه أحضر اليه رجل مليح البشرة والهيئة ذو هيبة ووقار فأكرمه سنان على موجب منظره ورفعته . ثم التفت اليه سنان فقال : قد اشتهيت ان اسمع من الشيخ شيئاً احفظه عنه وان يذكر شيخه في الصناعة . فأخرج الشيخ من كفه قرطاساً فيه دنائير صالحة ووضعها بين يدي سنان وقال : والله ما أحسن اكتب ولا اقرأ شيئاً جملةً ولي عيال ومعاشي دار دائره واسألك ان لا تقطعه عني . فضحك سنان وقال : على شريطة انك لا تهجم على مريض بما لا تعلم ولا تُشير بفصد ولا بدواء مسهل الا بما قرب من الامراض . قال الشيخ : هذا مذهبي مذ كنت ما تعديت السكتنجيين والجلّاب . وانصرف . ولما كان من الغد حضر اليه غلام شاب حسن البرّة مليح الوجه ذكي . فنظر اليه سنان فقال له : على من قرأت . قال : على ابي . قال : ومن يكون ابوك . قال : الشيخ الذي كان عندك بالامس . قال : نعم الشيخ . وانت على مذهبه . قال : نعم . قال : لا تتجاوزوه وانصرف مصاحباً . وسنان تصانيف جيّدة وكان قوياً في علم الهيئة وله في ذلك اشياء ظاهرة تغني عن الاطالة بذكرها .

(الراضي بن المقتدر) لما قبضوا القاهر سألوا عن المكان الذي فيه ابو العباس احمد بن المقتدر فدلتهم عليه فقصدوه وفتحوا عليه ودخلوا فسلموا بالخلافة وأخرجوه وأجلسوه على السرير ولقبوه الراضي بالله يوم الاربعاء لست خلون من جمادى الاولى سنة اثنيتين وعشرين وثلاثمائة وبابيعه القواد والناس . وارادوا عليّ بن عيسى على الوزارة فقال الراضي : ان الوقت لا يحتمل أخلاق عليّ وابن مقلة أليق بالوقت . فأحضره واستوزره . فلما استوزر احسن الى كل من اساء اليه واحسن سيرته . وفي سنة ثلث وعشرين وثلاثمائة عظم أمر الحنابلة وقويت شوكتهم وصاروا يكبسون دور القواد والعامّة

١ - كان سبب هذا الامتحان ان غلطاً جرى على رجلٍ من العامة من بعض المتطببين فات الرجل فأمر الخليفة بمنع سائر المتطببين من التصرف الا من امتحنه سنان بن ثابت فصاروا اليه وامتحنهم واطلق الى كل واحد منهم ما يصلح ان يتصرف فيه . وبلغ عددهم في جانبي بغداد ثمانمائة رجل ونيف وستين رجلاً سوى من استغنى عن محنته باشتهاره في التقدم في صناعته وسوى من كان في خدمة السلطان

وان وحدوا نبياً أراقوه وان وحدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء فارهبوا بغداد . وركب صاحب الشرطة ونادى في جانبي بغداد الأي جمع من الحنابلة اثنان ولا يصلي منهم إمام الا اذا جهر بيسم الله الرحمن الرحيم في صلاة الصبح والعشائين . فلم يفد فيهم . فخرج توقيع الراضي بما يقرأ على الحنابلة ينكر عليهم فعلهم ويونجهم على اعتقاد التشبيه وغيره . فنه : انكم تارة تزعمون ان صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين وتذكرون الكف والاصابع والرجلين والنعلين الذهب والشعر القطط والنزول الى الدنيا . فلعن الله شيطاناً زين لكم هذه المنكرات ما اغواه . وامير المؤمنين يقسم بالله جهداً اليه يلزمه الوفاء بها لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم ومعوج طريقكم هذه ليوسعنكم ضرباً وتشديداً وتبديداً وقتلاً وليستعملن السيف في رقابكم والنار في منازلكم ومحالككم . وفي سنة اربع وعشرين وثلاثمائة أُلجأت الضرورة الراضي الى ان قلد ابا بكر محمد بن رائق امارة الجيش وجعله امير الامراء وولاه الخراج والمعاون والدواوين في جميع البلاد وأمر ان يخطب له على جميع المنابر وبطلت الوزارة من ذلك الوقت فلم يكن الوزير ينظر في شيء من الامور انما كان ابن رائق وكاتبه ينظران في الامور جميعاً وكذلك كل من تولى امرة الامراء بعده وصارت الاموال تحمل الى خزائهم فيتصرفون فيها كما يريدون ويطلقون للخليفة ما يريدون . وفي سنة ست وعشرين وثلاثمائة استولى معز الدولة ابو الحسن احمد بن بويه على الاهواز . وفيها كتب ابو علي بن مقله الى الراضي يشير عليه بالقبض على ابن رائق واصحابه ويضمن انه يستخرج منهم ثلاثة آلاف الف دينار^١ و اشار عليه باقامة بحكم^٢ مقام ابن رائق وطلب ابن مقله من الراضي ان ينتقل ويقيم عنده بدار الخليفة فأذن له في ذلك . فلما حصل بدار الخليفة اعتقله في حجرة وعرض على ابن رائق خط ابن مقله . فشكر الراضي . وما زال ابن رائق يلح في طلب ابن مقله حتى أُخرج من محبسه وقطعت يده . ثم عولج فبرأ فعاد يكتب الراضي ويخطب الوزارة ويذكر ان قطع يده لم يمنعه عن عمله وكان يشد القلم على يده المقطوعة ويكتب ويهدد ابن رائق . فأمر الراضي بقطع لسانه . ثم نُقل الى محبس ضيق ولم يكن عنده من يخدمه قال به الحال الى انه كان يستقي الماء بيده اليسرى ويمسك الحبل بضمه . ولحقه شقاء شديد الى ان مات . وفيها دخل بحكم بغداد ولقي الراضي وقلده امرة الامراء مكان ابن رائق . وفي سنة تسع وعشرين وثلاثمائة مات الراضي بالله بالاستسقاء في

١ - وروى : ثلاثة آلاف الف دينار .

٢ - وروى : يحكم . وروى : بحكم .

منتصف ربيع الاول وكانت خلافته ست سنين وعشرة اشهر وكان اديباً شاعراً سمحاً
سخياً يحبّ محادثة الادباء والفضلاء والجلوس معهم .

وكان ببغداد في خلافة الرازي بعد سنة عشرين وثلاثمائة وقبل سنة ثلثين متّى
ابن يونس المنطقي النصراني عالم بالمنطق شارح له مكثراً وطبّي الكلام قصده التعليم والتفهيم
وهو من اهل دير قتي ممن نشأ في اسكول^٢ مار ماري قرأ على روفيل وبنيامين الراهبين
اليقويين. ومتّى نسطوري النحلة ذكره محمد بن اسحق النديم في كتابه وقال: اليه
انتهت رئاسة المنطقيين في عصره ومصره.

(المتقي بن المقتدر) لما مات الرازي كان يحكم بالكوفة^٣ فورد كتابه مع الكوفي
كاتبه يأمر فيه ان يجتمع مع ابي القاسم سليمان وزير الرازي العلويون والقضاة والعباسيون
وجوه البلد ويشاورهم الكوفي فيمن ينصب للخلافة. فاتفقوا كلهم على ابراهيم
ابن المقتدر وبايعوه ولقبوه المتقي لله وسيّر الخلع واللواء الى يحكم الى واسط وأقر سليمان على
وزارته وليس له منها الا اسمها وانما التدبير كله الى الكوفي كاتب يحكم. وفي هذه السنة
وهي سنة تسع وعشرين وثلاثمائة قُتل يحكم قتل الاكراد وهو يتصيد في نهر جور. ولما
قتل يحكم دخل ابو عبد الله البريدي ببغداد فنزل بالشفيعي ولقيه الوزير والقضاة
والكتّاب واعيان الناس فأنفذ اليه المتقي يهنئه بسلامته وأنفذ له طعاماً عدة ليال ثم انفذ
البريدي الى المتقي يطلب خمسمائة الف دينار ليفرقها في الجند. فامتنع عليه. فأرسل
اليه يهدده ويذكره ما جرى على المعتز والمستعين والمهتدي. فأنفذ اليه تمام خمسمائة الف
دينار ولم يلق البريدي المتقي مدة مقامه ببغداد. فلما حصل المال في يد البريدي لم
يوثر الجند من المال بطائل فشقوا عليه وحاربوه فهرب منهم هو واخوه وابنه واصحابه
وانحدروا في الماء الى واسط واستولى كورتكين الديلمي على الامور ببغداد ودخل الى

١ - وكان عمره اثنتين وثلاثين سنة وشهوراً. قال ابن الاثير في الكامل: « ونعم الخلفاء في امور عدة فنها
انه آخر خليفة له شعر يدون وآخر خليفة خطب كثيراً وان كان غيره قد خطب نادراً لا اعتبار به.
وكان آخر خليفة جالس الجلساء ووصل اليه الندماء. وآخر خليفة كانت له نفقته وجوازته وعطاياه
وجراياته ونزائته ومطابحه ومجالسه وخدمه وحجابه وأمره على ترتيب الخلفاء المتقدمين. ومن شعره يرثي
اباه المقتدر:

ولو ان حياً كان قبراً لميت
ولو ان عمري كان طوع مشيقي
لصيرت احشائي لأعظمه قبراً
وساعدني التقدير قاسمته العمرا
بنفسى رثى ضاجمت في تربة البلا
لقد ضم منك الغيث والليث والبرا

٢ - هي كلمة يونانية σχολή ومعناها مدرسة .

٣ - ويرى انه كان بواسط .

المتقي فقلده امارة الامراء وخلع عليه . وبعد قليل عاد محمد بن رائق من الشام الى بغداد وصار امير الامراء . وفي سنة ثلثين وثلثمائة قتل ابن رائق وقلد ناصر الدولة ابن حمدان أمرة الامراء وخلع على اخيه ابي الحسن عليّ ولقبه سيف الدولة . وبعد قليل ثار الاتراك بسيف الدولة فكبسوه ليلاً فهرب من معسكره فلما بلغ الخبر اخاه ناصر الدولة سار الى الموصل وكانت امارته ثلاثة عشر شهراً وتولى توزون^١ امارة الامراء . وفي سنة احدى وثلثين وثلثمائة توفي السعيد نصر بن حمدان^٢ بن اسمعيل صاحب خراسان ومسا وراء النهر وكان حليماً كريماً عاقلاً . وحكي عنه انه طال مرضه فبقي به ثلاثة عشر شهراً فبني له في قصره بيتاً وسماه بيت العبادة فكان يلبس ثياباً نظافاً ويمشي اليه حافياً ويصلي فيه ويدعو ويتضرع وتجنب المنكرات والآثام الى ان مات . وتولى بعده خراسان وما وراء النهر ابنه نوح ولقب الامير الحميد . وفيها خلع المتقي على توزون الامير التركي وجعله امير الامراء . وفيها ارسل ملك الروم الى المتقي يطلب منه منديلاً مسح بها المسيح وجهه فصارت صورة وجهه فيها وانما في بيعة الرها وذكر انه ان ارسلها اليه اطلق عدداً كثيراً من اسارى المسلمين . فاستفتى المتقي القضاة والفقهاء فأنكر بعضهم تسليمها واجاب بعضهم قائلاً: ان خلاص المسلمين من الاسر والضر والضنك الذي هم فيه اوجب . فأمر المتقي بتسليم المندبل الى الرسل وأرسل معهم من يتسلم الاسارى . وفي سنة اثنتين وثلثين وثلثمائة ظهر ببغداد لص^٣ فأعجز الناس فأمنه ابن شيرزاد وهو من اكابر قواد توزون وخلع عليه وشرط عليه ان يوصل اليه كل شهر خمسة عشر الف دينار مما يسرقه هو واصحابه وكان يستوفيهما منه بالرواتب وهذا ما لم يسمع بمثله من شره . وفيها ازداد خوف المتقي من توزون امير الامراء وكان توزون بواسط فأنفذ المتقي يطلب من ناصر الدولة ابن حمدان انفاذ جيش ليصحبوه الى الموصل فأنفذهم مع ابن عمه . فخرج المتقي اليهم في حرمة واهله ووزيره وساروا الى الموصل وأقام المتقي بها عند ابن حمدان ثم سار منها الى الرقة وأنفذ رسلاً الى توزون في الصلح . فحلف توزون للخليفة والوزير وانحدر المتقي من الرقة في الفرات فلما وصل الى هيت اقام بها وأنفذ من يجدد اليمين على توزون . فعاد وحلف وسار عن بغداد ليلتي المتقي فالتقاه بالسندية ونزل وقبّل الارض وقال: ها انا قد وفيت بيمينتي والطاعة لك . ثم وكل به وبالوزير وبالجماعة وانزلهم في

١ - وروى: تورون .

٢ - حمدان ر في احدى نسختي اكسفر ابن احمد . وروى كذلك في الكامل: ابن احمد .

٣ - ويعرف بابن حدي .

مضرب نفسه مع حرم المتقي ثم كحله فأذهب عينيه وعمي المتقي . واحمد تورون من الغد الى بغداد والجماعة في قبضته . فكانت خلافة المتقي ثلث سنين وستة اشهر .

(المستكفي بن المكتفي) لما قبض توزون على المتقي احضر المستكفي بالله وهو ابو القاسم عبد الله بن المكتفي اليه الى السندية وباعه هو وعامة الناس في سنة ثلث وثلثين وثلثمائة . وكان سبب البيعة له ما حكاه بعض خواص توزون قال : انني دعاني صديق لي فضيت اليه فذكر لي انه تزوج الى قوم وان امرأة منهم قالت له ان هذا المتقي قد عاداكم وعاديتموه وكاشفكم ولا يصفو قلبه لكم وههنا رجل من اولاد الخلافة وذكرت عقله ودينه نصبونه للخلافة فيكون صنيعكم وغرسكم ويدلكم على اموال جليلة لا يعرفها غيره وتستريحون من الخوف والحراسة . فقلت له : اريد ان اسمع كلام المرأة . فجاءني بها ورأيت امرأة عاقلة جزلة . فذكرت لي نحواً من ذلك واحضرت الرجل ايضاً عندي في زي امرأة فعرفني نفسه وضمن اظهار ثمانمائة الف دينار وخاطبني خطاب رجل لبيب فهم . فأثبت توزون فأخبرته فوقع الكلام في قلبه وجرى ما جرى . وصارت تلك المرأة قهرمانة المستكفي وسمت نفسها علم وغلبت على أمره كله . وفيها سار سيف الدولة الى حلب فملكها وكان مع المتقي بالركة فلما عاد المتقي الى بغداد قصد سيف الدولة حلب واستولى عليها ثم سار منها الى حمص فلقبه بها عسكر الإخشيد محمد بن طغج صاحب مصر والشام مع مولاة كافور فاقتلوا فانهزم عسكر الإخشيد وكافور وملك سيف الدولة مدينة حمص . وسار الى دمشق فحاصرها فلم يفتحها اهلها له فرجع عنها . وفي سنة اربع وثلثين وثلثمائة في المحرم مات توزون في داره ببغداد . فاجتمع الاجناد وعقدوا الرئاسة عليهم لزيرك بن شيرزاد وحلفوا له وحلف له المستكفي ودخل اليه ابن شيرزاد وعاد مكرماً يخاطب بأمير الامراء . وبعد مدة يسيرة قدم معز الدولة بن بويه الى بغداد واختفى المستكفي وابن شيرزاد . فلما استتر سار الاتراك الذين في خدمته الى الموصل فلما بعدوا ظهر المستكفي وعاد الى دار الخلافة وظهر السرور بقدم معز الدولة ودخل اليه معز الدولة بن بويه وباعه وحلف له المستكفي . وظهر ابن شيرزاد ايضاً ولقي معز الدولة فولاه أمر الخراج وجباية الاموال . وكانت امارة ابن شيرزاد ثلثة اشهر وعشرين يوماً . وخلع المستكفي على معز الدولة ولقبه ذلك اليوم معز الدولة ولقب اخاه علياً عماد الدولة ولقب اخاه الحسن ركن الدولة وأمر ان يضرب القابهم وكناهم على الدراهم والدنانير . وفي هذه السنة بلغ معز الدولة ان علم قهرمانة المستكفي عازمة على ازالته فحضر معز الدولة والناس عند الخليفة في اثنين وعشرين من جمادى الآخرة ثم حضر رجلان من

نقباء الديلم فتناولوا يد المستكني فظن انها يريدان تقبيلها فدها اليهما فجذباه عن سريره وجعلا عمامته في حلقة وساقاه ماشياً الى دار معز الدولة فاعتقل بها . وأخذت علم القهرمانة فقطع لسانها . وكانت مدة خلافة المستكني سنة واحدة واربعة اشهر وما زال مغلوباً على أمره مع توزون وابن شيرزاد . ولما بويغ المطيع سلم اليه المستكني فسلمه وأعماه وبقي محبوباً الى ان مات ١ .

• • •

وكان في هذا الزمان من الاطباء المشهورين هلال بن ابراهيم ابن زهرون الصابي الحراني الطبيب نزيل بغداد وكان حاذقاً عاقلاً صالح العلاج متفتناً تقدم عند اجلاء بغداد وخالطهم بصناعته وخدم امير الامراء توزون . وحكى عنه ولده ابراهيم قال : رأيت والدي في يوم من ايام خدمته لتوزون وقد خلع عليه وحمله على بغل حسن بمركب ثقيل ووصله بخمسة آلاف درهم وهو مع ذلك مشغول القلب متقسم الفكر . فقلت له : مالي أراك يا سيدي مهموماً ويجب ان تكون في مثل هذا اليوم مسروراً . فقال : يا ابني هذا الرجل يعني توزون جاهل يضع الاشياء في غير موضعها ولست افرح بما يأتي مني من جميلة عن غير معرفة . أتدري ما سبب هذه الخلة . قلت : لا . قال : سقيته دواء مسهلاً فحاف عليه فأسحجه فقام عدة مرار مجالس دماً عيباً حتى تداركته بما ازال ذلك عنه وكفي المحذور فيه فاعتقده بجهله ان في خروج ذلك الدم صلاحاً له فأنعم علي بما تراه ولست آمن ان يستشعر في السوء من غير استحقاق فتلحقني منه الأذية .

(المطيع بن المقتدر) هو ابو القاسم الفضل بن المقتدر . بويغ له يوم الخميس ثاني عشر جمادى الآخرة سنة اربع وثلاثين وثلاثمائة وازداد أمر الخلافة ادياراً ولم يبق للخليفة وزير انما كان له كاتب يدبّر اقطاعه واخراجاته وبالجملة لم يبق بيد المطيع الا ما اقطعه معز الدولة مما يقوم ببعض حاجاته . وفي هذه السنة في ذي الحجة مات الاخشيدي صاحب ديار مصر بدمشق وولي الامر بعده ابنه ابو جور واستولى على الامر كافور الخادم الاسود . فسار كافور الى مصر . فقصد سيف الدولة دمشق فللكها . ثم جاء كافور من مصر فأخرج اهل دمشق سيف الدولة عنهم . وفي سنة سبع وثلاثين سار سيف الدولة بن حمدان الى بلد الروم فلقية الروم واقتتلوا فانهمز سيف الدولة واخذ

١ - كانت وفاته في ربيع الاول سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة .

٢ - زهرون و هارون .

٣ - ثاني عشر و ثاني عشرين .

٤ - اخراجاته و خراجاته .

الروم مرعش ووقعوا بأهل طرسوس . وفي سنة ثماني وثلاثين وثلثمائة توالى على عماد الدولة علي بن بويه الاسقام بمدينة شيراز فلما احس بالموت ولم يكن له ولد أنفذ الى اخيه ركن الدولة يطلب منه ان ينفذ اليه ابنه عضد الدولة فناخسروا ليجعله ولي عهده . فوصل اليه فأجلسه في داره على السرير ووقف هو بين يديه وأمر الناس بالانقياد له وكان يوماً عظيماً مشهوداً . وفي سنة تسع وثلاثين وثلثمائة دخل سيف الدولة بن حمدان الى بلاد الروم فغزا وأوغل فيها وسبي وغنم . فلما أراد الخروج اخذوا عليه المضايق فهلك من كان معه من المسلمين اسراً وقتلاً واسترد الروم الغنائم والسبي وغنموا ائقال المسلمين واموالهم ونجا سيف الدولة في عدد يسير . وفي سنة ثلث واربعين وثلثمائة مات الامير نوح بن نصر الساماني في ربيع الآخر وملك خراسان بعده ابنه عبد الملك . وفيها غزا سيف الدولة ابن حمدان بلاد الروم وقتل ابن نيقيفور الدمستق فعظم الامر عليه . فجمع عساكر كثيرة من الروم والروس والبلغار وقصد الثغور فسار اليه سيف الدولة فالتقوا واشتد القتال بينهم وصبر الفريقان . ثم انتصر المسلمون وانهزم الروم واستوثر صهر الدمستق وابن ابنته . وفي سنة تسع واربعين وثلثمائة غزا ايضاً سيف الدولة بلاد الروم وسبي وغنم وأسر وبلغ الى خراسنة . ثم ان الروم اخذوا عليه المضايق فلما اراد الرجوع قال له من معه من اهل طرسوس : الرأي ان لا تعود في الدرب الذي دخلت منه ولكن ترجع معنا في مسالك نعرفها . فلم يقبل منهم وكان عجباً برأيه يجب ان يستبد ولا يشاور احداً لثلاً يقال انه اصاب برأي غيره وعاد في الدرب الذي دخل منه . فظهر الروم عليه واستردوا ما معه من الغنائم ووضعوا السيف في اصحابه فأتوا عليهم قتلاً واسراً وتخلص هو في ثلثمائة رجل بعد جهد ومشقة . وفي سنة خمسين وثلثمائة سقط الفرس تحت عبد الملك بن نوح صاحب خراسان فمات من سقطته . وولي بعده اخوه منصور ابن نوح . وفي سنة احدى وخمسين وثلثمائة في المحرم نزل الروم مع الدمستق على عين زربة وفتحوها بالامان فدخلها ونادى في البلد اول الليل بان يخرج جميع اهلها الى المسجد ومن تأخر في منزله قُتل . فخرج من امكنه الخروج . فلما اصبح انفذ رجاله وكانوا ستين الفا فقتلوا خلقاً كثيراً من الرجال والنساء والصبيان ممن وجدوه خارج المسجد . وأمر من في المسجد بان يخرجوا من البلد حيث شاؤوا يومهم ذلك ومن أمسى قُتل . فخرجوا مزدحمين فمات بالزحمة جماعة ومرّوا على وجوههم لا يدرون اين يتوجهون فاتوا في الطرقات وقتل الروم من وجدوه بالمدينة آخر النهار . فلما ادرك الصوم انصرف

الروم الى القيسارية على ان يعودوا بعد العيد . وفيها استولى الروم على مدينة حلب وعادوا عنها بغير سبب . وفيها ملَّك الروم عليهم نيقيفور الدمستق وجعلوا شخصاً يسمى شوموشقيق دمستقاً له ^١ . وفي سنة اربع وخسين وثلاثمائة فتح الروم مَصِيصَة وطرسوس . وفي سنة ست وخسين وثلاثمائة مات معز الدولة بن بويه ببغداد وحلس ابنه بختيار في الامارة ولُقِبَ عزّ الدولة ^٢ . وكانت احدى يدي عز الدولة ^٣ مقطوعة قطعت في بعض الحروب . وفيها قبض ابو تغلب على ابيه ناصر الدولة بن حمدان وحبسه في القلعة لانه كان قد كبر فسأت أخلاقه وضيق على اولاده وخالفهم في اغراضهم للمصلحة فضجروا منه . وفي سنة سبع وخسين وثلاثمائة ملك الروم مدينة انطاكية . وفي سنة احدى وستين وثلاثمائة سار المعزّ لدين الله العلوي صاحب بلاد المغرب من افريقية يريد الديار المصرية فأقام قريباً من مدينة قبروان ولحقه رجاله وعماله^٤ واهل بيته وجميع ما كان له في قصره من الاموال والامتعة حتى ان الدنانير سبكت وجعلت كهيئة الطواحين وحمل كل طاحونتين على جمل ثم سار حتى وصل الى الاسكندرية . وأتاه اهل مصر وأعيانها فلقبهم وأكرمهم واحسن اليهم وسار فدخل القاهرة خامس شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة وملك الديار المصرية بلا ضرب ولا طعن . وفي سنة اثنتين وستين وثلاثمائة سار الدمستق الى آمد وبها هزارمرد غلام ابي الهيجاء بن حمدان . فكتب الى ابي تغلب يستصرخه ويستنجده . فسير اليه اخاه هبة الله بن ناصر الدولة فاجتمعا على حرب الدمستق وسارا اليه فالتقياه سلخ رمضان وكان الدمستق في كثرة ولقياه في مضيق لا تجول فيه الخيل . والروم على غير أهبة الحرب فانهمزوا . واخذ المسلمون الدمستق اسيراً ولم يزل محبوساً الى ان مرض سنة ثلث وستين وثلاثمائة فبالغ ابو تغلب في علاجه وجمع الاطباء فلم ينفعه ذلك ومات . وفي سنة ثلث وستين في منتصف ذي القعدة خلع المطيع نفسه من الخلافة وسلمها الى ولده الطائع لله فكانت مدة خلافته تسعاً وعشرين سنة وخمسة اشهر .

• • •

١ - شوموشقيق او شمشقيق Zimiscs لقب ليوحنا الاول ملك الروم وهي كلمة اردنية ومعناها قصير القامة . اما دمستق فهي كلمة لاتينية domesticus وهو لقب قائد جيش الروم . ويوحنا هذا قتل نيقيفور واستبد بالملك بعده وكان مظفراً في الحروب . وهو اول من ضرب السكك بهذا الرسم : يسوع المسيح ملك الملوك .

٢ - عزّ ر في احدى نسختي اكسفردي « معزّ » .

٣ - كذا في الاصل والصواب معز الدولة . اطلب الصفحة ١٧٠ السطر ١٢ .

٤ - عماله و اعماله .

وفي سنة تسع وثلاثين وثلثمائة توفي محمد بن محمد بن طرخان أبو نصر الفارابي بمدينة دمشق . وفاراب هي إحدى مدن الترك فيما وراء النهر . ودخل أبو نصر العراق واستوطن بغداد وقرأ بها العلم الحكيم على يوحنا بن حيلان المتوفى في أيام المقتدر واستفاد منه وبرز في ذلك على أقرانه وأربى عليهم في التحقيق وأظهر العوامض المنطقية وكشف سرها وقرب متناولها وجمع ما يحتاج إليه منها في كتب صحيحة العبارة لطيفة الإشارة منبّهة على ما اغفله الكندي وغيره من صناعة التحليل وأبحاث التعاليم فجاءت كتبه المنطقية والطبيعية والالهية والسياسية الغاية الكافية والنهائية الفاضلة . وكان أبو نصر الفارابي معاصراً لأبي بشر متى بن يونس إلا أنه كان دونه في السن وفوقه في العلم . وقدم أبو نصر الفارابي على سيف الدولة أبي الحسن علي بن أبي الهيجاء بن حمدان إلى حلب وأقام في كنفه مدة بزيت أهل التصوف وقدمه سيف الدولة وأكرمه وعرف موضعه من العلم ومنزلته من الفهم ورحل في صحبته إلى دمشق فأدركه أجله بها .

وكان في أيام المطيع لله وفي إمارة الأقطع معز الدولة أحمد بن بويه ثابت بن سنان ابن ثابت بن قرة وكان بارعاً في الطب عالماً بأصوله فكافاً للمشكلات من الكتب . وكان يتولّى تدبير البيمارستان ببغداد في وقته . وعمل ثابت هذا كتاب التاريخ المشهور في الآفاق الذي ما كتب كتاب في التاريخ أكثر مما كتبه وهو من سنة نيف وتسعين ومائتين إلى حين وفاته في شهر سنة ثلث وستين وثلثمائة . وعليه ذيل ابن اخته هلال ولولاهما لجهل شيء كثير من التاريخ في المدينتين . وفي هذا الزمان اشتهر يحيى بن عدي بن حميد ابن زكريا التكريتي المنطقي نزيب ببغداد . إليه انتهت رئاسة أهل المنطق في زمانه . قرأ على أبي نصر الفارابي . وكان نصرانياً يعقوبى النحلة وكان ملازماً للنسخ بيده كتب كثيراً من الكتب وكان يكتب خطأ قاعداً بيتاً في اليوم واللييلة مائة ورقة وأكثر . وله تصانيف وتفاسير ونقول عدة . ومات ثالث عشر آب سنة الف ومائتين وخمس وثمانين لاسكندرية ودُفن في بيعة القطيعة ببغداد وكان عمره إحدى وثمانين سنة شمسية^٢ .

(الطائع بن المطيع) واسمه أبو الفضل عبد الكريم وسبب خلافته أن أباه المطيع لحقه فالج ثقل لسانه منه وتعدّرت الحركة عليه وهو يستر ذلك . فأنكشف حاله لسبكتكين فدعاه إلى أن يخلع نفسه ويسلم الخلافة إلى ولده الطائع لله ففعل ذلك في سنة ثلث وستين وثلثمائة . وفيها خطب للمعز لدين الله العلوي صاحب مصر بمكة والمدينة في

١ - حيلان ر جيلاد و جيلاد

٢ - ر سنة بدون «شمسية»

الموسم . وفيها وصل عضد الدولة واستولى على العراق وقبض على بختيار ثم عاد فأخرجه وعاد بختيار الى مكة كما كان امير الامراء . وفي سنة خمس وستين وثلاثمائة مات المعز العلوي بمصر وهو اول الخلفاء العلويين ملك مصر واستخلف عليها ابنه العزيز . وفي سنة ست وستين وثلاثمائة في المحرم توفي ركن الدولة ابو علي الحسن بن بويه واستخلف على ممالكة ابنه عضد الدولة . وفيها مات منصور بن نوح صاحب خراسان ببخارا ١ وولي الامر بعده ابنه نوح ٢ . وفي سنة سبع وستين سار عضد الدولة الى بغداد وارسل الى بختيار يدعوه الى طاعته وان يسير عن العراق الى اي جهة اراد الا الموصل . فخرج بختيار عن بغداد عازماً على قصد الشام . ودخل عضد الدولة بغداد وحُطب له فيها بخلاف العادة وضرب على بابه ثلث نوب ولم تجرِ بذلك عادة من تقدمه . واما بختيار لما سار عن بغداد الى الحديثه اتاه ابو تغلب في عشرين الف مقاتل وساراً جميعاً نحو العراق . فبلغ ذلك عضد الدولة فسار عن بغداد نحوها . فالتقوا بنواحي تكريت فهزمها وأسر بختيار وقتله . وسار نحو الموصل واستولى على ملك بني حمدان . وسار ابو تغلب ابن ناصر الدولة بن حمدان الى الشام فوصل الى دمشق وقتل بها . وفي سنة تسع وستين وثلاثمائة راسل عضد الدولة اخويه فخر الدولة وموئيد الدولة يدعوهما الى طاعته وموافقته . اما موئيد الدولة فأجاب راغباً واما فخر الدولة فأجاب جواب المناظر المناوي فنقم عليه عضد الدولة ذلك وسار نحو همدان وبها فخر الدولة فخافه ذاكراً قتل ابن عمه بختيار فخرج هارباً وقصد جرجان فنزل على شمس المعالي قابوس بن وشمكير ٣ والتجأ اليه فأمنه وآواه وحمل اليه فوق ما حدثته به نفسه . وفي هذه السفارة حدث لعضد الدولة صرع وكان هذا قد اخذه بالموصل فكنتمه وصار كثير النسيان لا يذكر الشيء الا بعد جهد وكنتم ذلك ايضاً . وهذا دأب الدنيا لا تصفو لاحد . وفيها شرع عضد الدولة في عمارة بغداد وكانت قد خربت بتوالي الفتن فيها وعمّر مساجدها واسواقها وأدرّ الاموال على الأئمة والعلماء والقرءاء والغرباء والضعفاء الذين يأوون الى المساجد . وجدّد ما دثر من الانهار واعاد حفرها وتسويتها ٤ . وفيها تجددت وصلة بين الطائع لله وبين عضد الدولة فتزوج الطائع ابنته وكان غرض عضد الدولة ان تلد ابنته ولداً ذكراً فيجعله ولي عهدته فتكون الخلافة

١ - ببخارا و بخارا .

٢ - وكان عمره حين ولي الامر ثلاث عشرة سنة ويكنى ابا القاسم .

٣ - وشمكير و وشمكير .

٤ - قال ابن الاثير في الكامل ما نصه : « واذن لوزيره نصر بن هرون وكان نصرانياً في عمارة البيع والديرة واطلاق الاموال لفقراهم . »

في ولدٍ لهم فيه نسب وكان الصداق مائة الف دينار . وفيها كانت فتنة عظيمة بين عامة شيراز من المسلمين والمجوس ونهبت فيها دور المجوس وضربوا وقتل منهم جماعة فسير اليهم عضد الدولة من جمع له كل من له في ذلك اثر وضربهم وبالغ في تأديبهم وزجرهم . وفي سنة احدى وسبعين وثلثمائة فتح البهارستان العضدي غربي بغداد ونقل اليه جميع ما يحتاج اليه من الادوية . وفيها ارسل عضد الدولة القاضي ابا بكر المعروف بابن الباقلافي رسولاً الى ملك الروم فلما وصل قيل له ليقبل الارض بين يديه فامتنع . فعمل الملك باباً صغيراً ليدخل منه القاضي منحياً . فلما رأى القاضي الباب علم ذلك فاستدبره ودخل منه . فلما دخل وجازه استقبال الملك قائماً . وفي سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة اشتد الصرع الذي كان يعتاده عضد الدولة فخنقه فمات منه ثامن شوال ببغداد . وكانت ولايته بالعراق خمس سنين ونصفاً . وحلس ابنه صمصام الدولة ابو كاليجار للعزاء فأتاه الطائع لله معزياً . وكان عمر عضد الدولة سبعاً واربعين سنة . وكان قد سير ولده شرف الدولة ابا الفوارس الى كرمان مالكاً لها . وكان عضد الدولة عاقلاً فاضلاً حسن السياسة كثير الاصابة شديد الهيبة بعيد الهمة ثاقب الرأي محباً للفضائل واهلها باذلاً في مواطن العطاء ومانعاً في اماكن الحرم ناظراً في عواقب الامور . ولما توفي عضد الدولة ولي الامر بعده ولده صمصام الدولة ابو كاليجار وخلع على اخويه ابي الحسين احمد وابي طاهر فيروز شاه فاقطعها فارس . وكان اخوهم الآخر شرف الدولة بكرمان فسبقها الى شيراز فملكها . وفي سنة ثلث وسبعين وثلثمائة مات مؤيد الدولة بجرجان وكانت علة الخوانيق . وعاد فخر الدولة اخوه الى مملكته واتفق مع صمصام الدولة وصاروا يداً واحدة . وفيها دخل باد^١ الكردي الحميدي الى الموصل واستولى عليها وقويت شوكته وحدث نفسه بالتغلب على بغداد وازالة الديلم عنها . فخافه صمصام الدولة وأهمه أمره وشغله عن غيره وجمع العساكر فساروا الى باد فخرج اليهم ولقيهم في صفر سنة اربع وسبعين فاجلت^٢ الواقعة عن هزيمة باد واصحابه وملك الديلم الموصل . وفي سنة سبع وسبعين سار شرف الدولة ابو الفوارس بن عضد الدولة من الاهواز الى واسط فملكها . فخافه اخوه صمصام الدولة وسار في طيار اليه في خواصه فلقه وطيب قلبه فلما خرج من عنده قبض عليه وسار فوصل الى بغداد في شهر رمضان واخوه صمصام الدولة معه تحت الاعتقال وكانت امارته بالعراق اربع سنين . وفي سنة تسع وسبعين وثلثمائة اعتل^٣ شرف الدولة فلما اشتدت علة

١ - ولد لهم ر ولد لهم .

٢ - باد ر بادي

٣ - فاجلت ر فانجلت .

قيل له: الدولة مع مصمام الدولة على خطر فان لم تقتله فأسلمه . فسلمه وحبسه مع اخيه ابي طاهر في بعض القلاع التي بفارس . وفيها في مستهل جمادى الآخرة مات الملك شرف الدولة ابو الفوارس شيرزِيل بن عضد الدولة مستسقياً وكانت امارته بالعراق سنتين وثمانية اشهر وكان عمره ثمانياً وعشرين سنة . وولي الامر بعده اخوه بهاء الدولة ابونصر . واما ابنه ابو علي فكان سيره الى بلاد فارس واصحبه الخزان والعدد وجماعة كثيرة من الاثراك . ثم ان المرتبين في القلعة التي فيها مصمام الدولة واخوه ابو طاهر لما بلغهم الخبر بموت شرف الدولة اطلقوهما ومعها فولاذ^١ فساروا الى شيراز واجتمع على مصمام الدولة وهو اعمى كثير من الديلم واستولى على فارس وملكها . واما ابو علي بن شرف الدولة فأرسل اليه عمه بهاء الدولة وطيب قلبه ووعده فسار اليه فقبض عليه ثم قتله بعد ذلك ببسيرة . وفيها ملك ابو طاهر ابراهيم وابو عبدالله الحسين ابنا ناصر الدولة بن حمدان الموصل . وفي سنة ثمانين وثلثمائة جمع باد الاكراد وسار نحو الموصل فخرج اليه ابو طاهر والحسين ابنا ناصر الدولة بن حمدان فناوشاه القتال . واراد باد الانتقال من فارس الى آخر فسقط فأراده اصحابه على الركوب فلم يقدروا فتركوه وانصرفوا فعرفه بعض العرب فقتله وصلبت جثته على دار الامارة فنثار العامة وقالوا: رجل غاز ولا يحل فعل هذا به فانزلوه وكفّنوه وصلّوا عليه ودفنوه وظهر منهم محبة كثيرة له . ولما قُتل باد الكردي سار ابن اخته ابو علي بن مروان في طائفة من الجيش الى حصن كيفا وهو على دجلة فلما نزل فقصده حصناً حصناً حتى ملك ما كان لحاله . وبعد مدة يسيرة قُتل بآمد قتله انسان يقال له ابن دمنة وقف له في الدرگاه وضربه بالسكين في مقاتله . وملك ميافارقين بعده اخوه محمد الدولة بن مروان واستولى على آمد عبد البر شيخ البلد وزوج ابن دمنة قاتل ابي علي ابنته . فعمل له ابن دمنة دعوة وقتله وملك آمد وعمّر البلد وأصلح أمره مع محمد الدولة وهادي ملك الروم وصاحب مصر وغيرهما من الملوك وانتشر ذكره . وفي سنة احدى وثمانين وثلثمائة قبض بهاء الدولة على الطائع بن المطيع . ومُهل الى دار بهاء الدولة فحبس بها واشهد عليه بالخلع واخذ بهاء الدولة ما في دار الخلافة من الذخائر فشئى به الحال وكانت مدة خلافة الطائع سبع عشرة سنة وثمانية اشهر ولم يكن له من الحكم في ولايته ما يعرف به حال يُستدل به على سيرته .

وفي سنة تسع وستين وثلثمائة توفي ثابت بن ابراهيم بن زهرون^٢ الحراني الصابي

١ - فولاذ ر قواد .

٢ - وهادي ر وهادن .

٣ - زهرون ر هارون .

بيغداد وكان طبيباً حاذقاً مصيباً . حكى عنه ابو الفرج ابن ابي الحسن بن سنان قال : كنت وابراهيم الحراني يوماً في دار ابي محمد المهلبّي الوزير فتقدم ابو عبد الله بن الحجاج الشاعر الى الحراني فأعطاه مجسّمه . فقال له : قلت لك غلط غذاك وأظنك اسرفت وذلك حتى اكلت مضيرة بلحم عجل . فقال : كذلك والله كان . وعجب هو والجماعة منه . ومدّ اليه ابو العباس المنجم يده فأخذ مجسّمه فقال : فأنت يا سيدي اسرفت في التبريد ايضاً وأظنك قد اكلت احدى عشرة رمانة . فقال ابو العباس المنجم : هذه نبوة لا طب . وزاد العجب والتفاوض في ذلك . وكنت انا ايضاً اكثرهم استطرافاً وتعجباً . فلما خرجنا قلت له : يا سيدي ابا الحسن صناعة الطب معروفة بيننا لا يخفى عني شيء منها فبين لي من اين ذلك النصّ على ان المضيرة كانت بلحم عجل لا بقرة ولا ثور ومن اين لك الدليل على ان عدد الرمان احدى عشرة . فقال : هو شيء يخطر ببالي فينطق به لساني . فقلت : صدقتني والله اذا ارني مولدك . وحدثت معه الى الدار ونظرت في مولده فرأيت سهم الغيب في درجة الطالع مع درجة المشتري وسهم السعادة فقلت له : يا عزيزي هذا يتكلم لا انت وكلما تصيب في الطبّ من مثل هذا الحدس والقول فهذا سببه . واصله .

* * *

وحكي ان عضد الدولة فناخسرو شاهنشاه بن بويه كان اذا افتخر بالعلم والمعلمين يقول : معلمي في الكواكب الثابتة واما كنها عبد الرحمن الصوفي وفي حلّ الزيج الشريف ابن الاعلم وفي النحو ابو علي الفارسي . وكان عبد الرحمن بن عمر بن سهل ابو الحسين الصوفي الرازي فاضلاً نبياً نبيلاً ومن تصانيفه كتاب الصور السماوية مصوراً والارجوزة وكتاب مطارح الشعاعات . وتوفي في سنة ست وسبعين وثلثمائة وكان عمره خمساً وثمانين سنة . واما ابن الاعلم فاسمه علي بن الحسين رجل علوي شريف عالم بعلم الهيئة وصناعة التسيير المذكور مشهور في وقته وكان قد تقدّم عند عضد الدولة . ولما توفي عضد الدولة نقصت حاله وتأخر أمره عند صمصام الدولة ابنه فانقطع عنهم واقام منقطعاً وحجّ في شهور سنة اربع وسبعين وثلثمائة وفي عودته مات بمنزلة تُعرف بالمُسيّلة . وكان في هذه المدة جماعة صالحة من مشاهير الحكماء منهم التميمي المقدسي الطبيب كان بمصر في حدود سبعين وثلثمائة أحكم ما علمه من علم الطبّ غاية الاحكام وكان له غرام وعناية تامة في تركيب الادوية وعندده غوص واستغراق في طلب غوامض هذا النوع وكان منصفاً

في مذاكراته غير راد على احد الا بطريق الحقيقة. ومنهم علي بن العباس المحمسي فاضل كامل فارسي الاصل قرأ على شيخ فارسي يعرف بأبي ماهر وطالع هو واجتهد وصنف للملك عضد الدولة بن بويه كتابه 'المسمى بالملكي' وهو كتاب جليل وكناش نبيل مال الناس اليه في وقته ولزموا درسه الى ان ظهر كتاب القانون لابن سينا فالوا اليه وتركوا الملكي بعض الترك. والملكي في العمل ابلغ والقانون في العلم اثبت. ومنهم نظيف القس^٢ الرومي كان طبيباً عالماً بالنقل من اليوناني الى العربي ولم يكن سعيد المباشرة ولا منجح المعالجة وكان الناس يتطيرون به ويولعون^٣ به اذا دخل الى مريض حتى انه حكى في بعض اوقاته ان عضد الدولة انفذه الى بعض القواد ليعوده في مرض كان عرض له. فلما خرج من عند القائد استدعى القائد ثقته وأنفذه الى حاجب عضد الدولة يستعلم منه نية الملك فيه. ويقول: ان كان ثم تغير نية فليأخذ له الأذن في الانصراف والبعد فقد قلق لما جرى. وسأله الحاجب عن السبب. فقال: ما اعرف اكثر من انه جاء نظيف الطبيب وقال له: مولانا الملك انفدني لعيادتك. فضى الحاجب وأعاد بحضرة عضد الدولة هذا القول. فضحك وأمره باعلامه حسن نية الملك فيه وحملت اليه خلع سنية سكنت نفسه بها. ومنهم عبيد^٤ الله بن الحسن ابو القاسم المعروف بسلام زحل المنجم مقيم ببغداد من افاضل الحساب والمنجمين اصحاب الحجج والبراهين وله يد طولى فيما يعانیه من هذا الشأن. ذكر انه اجتمع يوماً عند ابي سليمان المنطقي جماعة من سادة علماء الاوائل واخذوا في المذاكرة فذكروا في علم النجامة وقالوا: هي من العلوم التي لا تجدي فائدة ولا يصح لها حكم. فأطالوا القول في ذلك. فقال بعضهم: ايها القوم اختصروا الكلام وقربوا البغية هل تصح الاحكام. فقال غلام زحل: عن هذا جواب يستثبت على كل وجه. فقيل: لم يبين. قال لان صحتها وبطلانها يتعلقان بآثار الفلك وقد يقتضي شكل الفلك في زمان ان لا يصح منها شيء وان غيص^٥ على دقائقها وبلغ الى اعماقها. وقد يزول ذلك الشكل فيجي زمان لا يبطل منها شيء فيه وان قورب في الاستدلال. وقد يتحول هذا الشكل في وقت آخر الى ان يكثر الصواب فيها والخطأ. ومتى وقف الامر على هذا الحد فلا يثبت على قول قضاء ولا يوثق بجواب. فقال ابو

١ - كتابه و كتابه .

٢ - القس و النفس .

٣ - يولعون و يملون و يولون .

٤ - عبيد و عبد .

٥ - غييص و غييص .

سليمان المنطقي: "هذا احسن ما يمكن ان يقال في هذا الباب . ومنهم مسكويه ابو علي الخازن^١ من كبار فضلاء العجم واجلاء فارس له مشاركة حسنة في العلوم الادبية والعلوم القديمة كان خازناً للملك عضد الدولة بن بويه مأموناً لديه اثراً عنده . وله تصانيف في العلوم ومناظرات ومحاضرات . وقال ابو علي بن سينا في بعض كتبه وقد ذكر مسألة فقال: وهذه المسألة حاضرت بها ابا علي مسكويه فاستعادها كرات وكان عسر الفهم فتركه ولم يفهمها على الوجه . وعاش زماناً طويلاً الى ان قارب سنة عشرين واربعمائة . وحكي ان عضد الدولة لما قدم الى بغداد قيل له عن ابي الفضل جعفر بن المكتفي بالله انه من اولاد الخلفاء وانه فاضل كبير القدر عالم بعلوم متعددة من علوم الاوائل متحقق بذلك اتم تحقيق . فاشتاق نفسه اليه فسير اليه سراً وكان يجتمع به خفية ويأتيه في خف وازار فاذا حصل في داره اقعده في موضع خالٍ بغير ازار . فاذا خلا عضد الدولة استدعاه فاذا شاهده تناول له في القيام واكرمه وخلا به وسأله عن فنه في علم احكام النجوم واخبار الحدثان فيخبره من ذلك بما يعجب منه ولا يبعد وقوعه . وتوفي جعفر هذا سنة سبع وسبعين وثلثمائة . ومن جملة من اختص بشرف الدولة بن عضد الدولة من الحكماء احمد بن محمد الصاغاني ابو حامد كان فاضلاً في الهندسة وعلم الهيئة وكان ببغداد يحكم الآلات الرصدية غاية الاحكام . ولما بنى شرف الدولة بيت الرصد في طرف بستان دار المملكة وتقدم برصد الكواكب السبعة واعتمد في ذلك على ويجن^٢ الكوهي ورصد وكتب مختصرين بصورة الرصد كان ممن شاهد ذلك وكتب خطه بتصحيح نزول الشمس في برجين احمد بن محمد المنطقي الصاغاني . ومات احمد هذا سنة تسع وسبعين وثلثمائة ببغداد . واما ويجن بن وشم^٣ ابو سهل الكوهي فكان حسن المعرفة بالهندسة وعلم الهيئة متقدماً فيهما الى الغاية المتناهية . وكان رصده لحلول الشمس برجتي السرطان والميزان سنة الف ومائتين وتسع وتسعين للاسكندر . وكان من جملة من حضر هذين الرصدتين من العلماء ابراهيم بن هلال بن ابراهيم بن زهرون^٤ الصابي صاحب الرسائل اصل سلفه من حران ونشأ ببغداد وتأدب بها وكان بليغاً في صناعتي النظم والنثر وله يد طولى في علم الرياضة وخصوصاً في الهندسة والهيئة وله فيها مصنفات . وديوان رسائله مجموع . وخدم

١ - الخازن ر الحرث .

٢ - ويجن ر ويحي و يحيي

٣ - ويجن بن وشم ر ويحي بن وشم .

٤ - زهرون ر هارون .

ملوك العراق من بني بويهٍ واختلفت به الايام ما بين رفع ووضع وتقديم وتأخير واعتقال واطلاق . وتوفي سنة اربع وثمانين وثلثمائة . قال ابو حيان التوحيدى : سألني وزير مصمام الدولة بن عضد الدولة عن زيد بن رفاعه في حدود سنة ثلث وسبعين وثلثمائة وقال : لا ازال اسمع من زيد بن رفاعه قولاً يرينني مذهباً لا عهد لي به . وقد بلغني انك تغشاه وتجلس اليه وتكثر عنده . ومن طالت عشرته لانسان امكن اطلاعه على مستكن رأيه . فقلت : ايها الوزير هناك ذكاء غالب وذهن وقاد . قال : فعلى هذا ما مذهبه . قلت : لا يُنسب الى شيٍ لكنه قد اقام بالبصرة زماناً طويلاً وصادف بها جماعة لاصناف العلم فصحيحهم وخدمهم وكانت هذه العصابة قد تألفت بال عشرة وتصافت بالصدقة واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة فوضعوا بينهم مذهباً زعموا انهم قربوا به الطريق الى الفوز برضوان الله وذلك انهم قالوا : ان الشريعة قد تدنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة وزعموا انه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال وصنفوا خمسين رسالة في خمسين نوعاً من الحكمة ومقالة حادية وخمسين جامعة لانواع المقالات على طريق الاختصار والايجاز وسموها رسائل اخوان الصفا وكتبوا فيها اسماء هم وبشوها في الوراقين وهبوا للناس وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية والامثال الشرعية والحروف المجتمعة والطرق الموهبة وهي مبنوثة من كل فن بلا اشباع ولا كفاية وفيها خرافات وكنايات وتلفيقات وتلزيقات فتعبوا وما اغنوا وغنوا وما اطربوا ونسجوا فهللوا ومشطوا فقلقلوا وبالجملة فهي مقالات مشوقات غير مستقصاة ولا ظاهرة الادلة والاحتجاج . ولما كتّم مصنفوها اسماءهم اختلف الناس في الذي وضعها فكل قوم قالوا قولاً بطريق الحدس والتخمين . فقوم قالوا : هي من كلام بعض الأئمة العلويين . وقال آخرون : هي تصنيف بعض متكلمي المعتزلة في العصر الاول .

(القادر بن اسحق بن المقتدر) لما قبض الطائع ذكر بهاء الدولة من يصلح للخلافة وانفقوا على القادر بالله ابي العباس احمد بن اسحق المقتدر وكان بالبطيحة . ولما وصل الرسل اليه كان تلك الساعة يحكي مناماً رآه تلك الليلة يدل على خلافته . فبويع له يوم حادي عشر من شهر رمضان سنة احدى وثمانين وثلثمائة . وفيها مات سعد الدولة ابن سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب بالقولنج وولي بعده ابنه ابو الفضائل ووصى

١ - المجتمعة و المحملة . الموهبة و الموهمة .

٢ - مبنوثة و مبنوثة .

الى لؤلؤة به وبسائر اهله . وفي سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة نزل ملك الروم بارمينية وحصر خلاط وملازكرد^١ وأر جيش فضعت نفوس الناس عنه ثم هادنه ابو علي الحسن ابن مروان مدة عشر سنين وعاد ملك الروم . وفي سنة ست وثمانين وثلثمائة توفي العزيز العلوي صاحب مصر وعمره اثنتان واربعون سنة وثمانية اشهر بمدينة بليس^٢ وولي بعده ابنه ابو علي المنصور ولقب الحاكم بأمر الله . وكان العزيز يحب العفو ويستعمله فن حلمه انه كان بمصر شاعر كثير المهجاء فهجا يعقوب بن كلس الوزير وابانصر كاتب الانشاء فقال :

قُلْ لابي نصر كاتب القصرِ والمتأني لنقض ذا الامرِ
انقضُ عرى الملك للوزير تفرُّ منه بحسن الثنا والذكرِ
وأعطِ وأمنع ولا تخفْ احداً فصاحب القصر ليس بالقصرِ
وليس يدري ماذا يُراد به وهو اذا ما درى فما يدري

فشكاه الوزير الى العزيز وأنشده الشعر . فقال له : هذا شيء اشتركنا في الهجاء به فشاركني في العفو عنه . وفي سنة سبع وثمانين وثلثمائة توفي الامير نوح بن منصور صاحب بخارا وولي الامر بعده ابنه منصور . وفيها مات سبكتكين^٣ وملك بعده اسماعيل . ثم ارسل اليه وهو بغزنة^٤ اخوه يمين الدولة محمود من نيسابور يعرفه * ان اباه انما عهد اليه لبعده عنه ويذكره ما يتعين من تقديم الكبير . فلم يجبه الى ذلك . فسار اليه وقاتله وقبض عليه ثم أعلى منزلته وشركه في الملك^٥ . وفيها مات فخر الدولة ابن ركن الدولة بن بويه وقام بملكه بعده ولده مجد الدولة ابو طالب رستم وعمره اربع سنين وكان المرجع الى امته في تدبير الملك وعن رأيا يصدرن . وفيها توفي مأمون ابن محمد صاحب خوارزم وولي الامر بعده ولده علي . وفي سنة احدى واربعائة خطب قرواش بن المقلد امير بني عقيل للحاكم العلوي صاحب مصر باعماله كلها وهي الموصل والانبار والمدائن والكوفة وغيرها . وفي سنة ثلث واربعائة قُتل شمس المعالي

١ - ملازكرد و ملاسكرد .

٢ - وكانت خلافته احدى وعشرين سنة وخسة اشهر ونصفاً ومولده بالمهدية من افريقية .

٣ - وكانت مدة ملكه عشرين سنة ودام ملك بيته مدة طويلة جازت مدة ملك السامانية والسلاجوية وغيرهم .

٤ - وهو بغزنة و يعرفه .

٥ - يعرفه و يذكر .

٦ - كان يمين الدولة محمود اول من لقب بالسلطان ولم يُلقب به احد قبله .

قابوس بن وشمكير^١ وكان سبب قتله انه كان مع كثرة فضائله ومناقبه عظيم السياسة شديد الاخذ قليل العفو يقتل على الذنب اليسير . فضجر اصحابه منه ومضوا اليه الى الدار التي هو فيها وقد دخل الى الطهارة متخففاً فأخذوا ما عليه من كسوة وكان الزمان شتاء وكان يستغيث : اعطوني ولو جلّ فرس . فلم يفعلوا فمات من شدة البرد . وولي بلاده ابنه منوجهر ولُقّب فلك^٢ المعالي . وكان قابوس عزيز^٣ الادب وافر العلم له رسائل وشعر حسن^٤ وكان عالماً بالنجوم وغيرها من العلوم . وفيها توفي بهاء الدولة ابن عضد الدولة بن بويه وهو الملك حينئذ بالعراق^٥ وولي الملك بعده ابنه سلطان الدولة ابو شجاع . وفي سنة سبع واربعمائة قُتل^٦ خوارزمشاه ابو العباس مأمون بن مأمون وملك يمين الدولة خوارزم . وفي سنة ثمانى واربعمائة خرج الترك من الصين في عدد كثير يزيدون على ثلثمائة الف خركاه وملكوا بعض البلاد وغنموا وسبوا وبقي بينهم وبين بلاساغون^٧ ثمانية ايام . ولما سمعوا بجمع عساكر طغان خان عادوا الى بلادهم . فسار خلفهم نحو ثلثة اشهر حتى ادركهم وهم آمنون لبعده المسافة فكبسهم وقتل منهم زيادة على مائتي الف رجل وغنم من الدواب واواني الذهب والفضة ومعمول الصين ما لا عهد لأحد بمثله . وفي سنة احدى عشرة واربعمائة عظم امر ابي علي مشرف الدولة ابن بهاء الدولة ثم ملك العراق وأزال عنه اخاه سلطان الدولة . وفيها فقد الحاكم بن العزيز ابن المعز العلوي صاحب مصر بها ولم يُعرف له خبر . وقيل انه خرج يطوف ليلته على رسمه وعادته وأصبح عند قبر الفقاعي وتوجه الى شرقي حلوان ومعه ركائبان فأعادهما فعادا وذكرا انهما خلفاه عند العين وبقي الناس على رسومهم يخرجون كل يوم يلتمسون رجوعه . فلما أبطأ خرج جماعة من خواصه فبلغوا حلوان^٨ ودخلوا في الجبل فبصروا بالحجار

١ - وشمكير و وشكير .

٢ - فلك و ملك .

٣ - عزيز و غزير . وهي الرواية الصحيحة .

٤ - ومن جيد شعره ما قاله في المصائب وصروف الدهر :

قل للذي بصروف الدهر عَبرنا هل عاند الدهر إلا من له خطرُ
 اما ترى البحر يطفو فوقه جيَفٌ وتستقرُّ بأقصى قصره الدرر
 فان تكن نشبت ايدي الخلوب بنا ومَسْنَا من توالي صرفها ضرر
 ففي السماء نجوم لا عداد لها وليس يكسف إلا الشمس والقمر

٥ - وكان عمره اثنتين واربعين سنة وتسعة اشهر ونصفاً وملكه اربعمائة وعشرين سنة .

٦ - قتله غيلة امراء دولته بعد ان هوه عن الخطبة ليمين الدولة على منابر بلاده .

٧ - بلاساغون بلد عظيم في ثغور الترك وراء نهر سيحون قريب من كاشغر .

٨ - حلوان و صفان .

الذي كان عليه وقد ضربت يداه بسيف وعليه سرجه ولجامه . فاتبعوا الاثر فانتهى بهم الى البركة فأرأوا ثيابه وهي سبع قطع صوف وهي مزررةٌ بحالها لم تحلّ وفيها اثر السكاكين فعادوا ولم يشكّوا في قتله . وكان عمره سبعاً وثلاثين سنة وولايته خمساً وعشرين سنة . وكان جواداً بالمال سفاكاً للدماء وكانت سيرته عجيبة أمرٌ بسبّ الصحابة وكتب الى سائر عمّاله بذلك . ثم أمر بعد ذلك بمدّة بالكفّ عن السبّ وهدم بيعة القيامة بييت المقدس ثم عاد بناها . وحمل اهل الذمّة على الاسلام او المسير الى مأمنهم او لبس الغيار فأسلم كثير منهم . ثم كان الرجل منهم بعد ذلك يلقاه فيقول له : اريد العود الى ديني فيأذن له . ومنع النساء عن الخروج من بيوتهنّ وقتل من خرج منهنّ . فشكى اليه من لا قيم لها يقوم بأمرها فأمر الناس ان يحملوا كلّها يباع في الاسواق الى الدروب ويبيعهو على النساء وأمر من يبيع ان يكون معه شبه المغرقة يساعد طويل يمدّه الى المرأة وهي من وراء الباب وفيه ما تشتريه فاذا رضيته وضعت الثمن في المغرقة وأخذت ما فيها لثلاً يراها . فنال الناس من ذلك شدّة عظيمة . ولما عدم الحاكم بويج ابنه ابو الحسن عليّ وهو صبيّ ولقّب الظاهر لاعزاز دين الله وباشرت ستّ الملك اخت الحاكم الامور بنفسها وقامت هيبتها عند الناس واستقامت الامور . وعاشت بعد الحاكم اربع سنين وماتت . وفي سنة اربع عشرة واربعمائة استولى علاء الدولة ابو جعفر بن كاكويه على همدان وملكها . وفيها توفي عليّ بن هلال المعروف بابن البوّاب الكاتب المشهور واليه انتهى الخطّ . وفي سنة خمس عشرة في شوّال توفي الملك سلطان الدولة بشيراز ملك بعده ابنه ابو كاليجار . وفي سنة ستّ عشرة واربعمائة توفي الملك مشرف الدولة ابو عليّ بن بهاء الدولة ^١ وخطب ببغداد لاخته ابي طاهر جلال الدولة . وفيها ملك نصير الدولة ^٢ بن مروان صاحب ديار بكر مدينة الرها وكانت لرجل من بني نمير يسمّى عطيراً وفيه شرٌّ وجهل فكتب الرهاويّون ليسلموا اليه البلد فسيّر اليهم نائباً كان بآمد يسمّى زنكي فقتلها وقتل عطيراً . وفي سنة عشرين واربعمائة اوقع يمين الدولة بالاتراك الغزّيّة أصحاب اربلان بن سلجوق وكانوا يفسدون بخراسان وينهبون فيها فأرسل اليهم جيشاً فسبّوهم واجلوهم عن خراسان فسار منهم اهل ألفي خركاه فلحقوا باصفهان . واما طغرلبك وداود واخوهما بيغو وهم بنو ميكائيل بن سلجوق بن تقاق فانهم كانوا بما وراء النهر وطائفة من الغزّ الذين كانوا بخراسان وصلوا الى اذربيجان وساروا

١ - كان عمره اثنتين وعشرين سنة وخمسة اشهر .

٢ - وعمره ثلاث وعشرون سنة وثلاثة اشهر وملكه خمس سنين وخمسة وعشرون يوماً .

٣ - يروى في الكامل نصر الدولة .

الى مراغة فدخلوها وأحرقوا جامعها وقتلوا من عوامها مقتلة عظيمة ومن الاكراد الهذبانية^١ ثم سار طائفة منهم الى الري وطائفة الى همدان فلكوها . وفيها ملك الغز الموصل ووثب بهم اهل الموصل . وفي سنة احدى وعشرين واربعائة مات يمين الدولة محمود بن سبكتكين وملك ولده محمد^٢ ثم خلفه اخوه مسعود وولي مكانه . وفي سنة اثنتين وعشرين واربعائة في ذي الحجة توفي الامام القادر بالله وعمره ست وثمانون سنة وعشرة اشهر وخلافته احدى واربعون سنة . وكانت الخلافة قبله قد طمع فيها الديلم والأتراك فلما ألقى الله هيبته في قلوب الخلق فاطاعوه احسن طاعة . وكان حليماً كريماً دينياً وكان يخرج من داره في زي العامة ويزور قبور الصالحين كقبر معروف وغيره .

• • •

وفي سنة ثماني واربعين وثلثائة انتقل الى العراق محمد بن محمد بن يحيى بن الوفاء^٣ البوزجاني من بلد نيسابور قرأ عليه الناس واستفادوا وصنف كتباً جمة في العلوم العددية والحسابية وله كتاب مجسطي وفسر كتاب ديوفنطوس في الجبر والمقابلة . وفي سنة ثماني وتسعين وثلثائة توفي ابو علي عيسى بن زرعة النصراني اليعقوبي المنطقي ببغداد وهو احد المتقدمين في علم المنطق والفلسفة وأحد النقلة المجودين وله تصانيف مذكورة ونقول من السرياني الى العربي .

ومن الاطباء المتقدمين بالديار المصرية منصور بن مقشر ابو الفتح المصري النصراني وله منزلة سامية من اصحاب القصر ولا سيما في ايام العزيز منهم . واعتل منصور هذا في ايام العزيز في سنة خمس وثمانين وثلثائة وتأخر عن الركوب فلما تماثل منصور ابن مقشر كتب اليه العزيز بخطه : بسم الله الرحمن الرحيم طيبنا سلمه الله سلام الله الطيب وأتمّ النعمة عليه . وصلت الينا البشارة بما وهبه الله من عافية الطيب وبرته . والله العظيم لقد عدل عندنا ما رزقناه نحن من الصحة في جسمنا . اقالك الله العثرة واعادك الى افضل ما عودك من صحة الجسم وطيبة النفس وخفض العيش بحوله وقوته . وخدم منصور هذا بعد العزيز الحاكم ابنه ايضاً . واتفق ان عرض لرجل الحاكم عقد

١ - الهذبانية و الهرايئة .

٢ - كان مولده سنة ستين وثلثائة .

٣ - كان لقبه جلال الدولة .

٤ - و يروى : ابو البقاء . والصواب ابو الوفاء

زمن ولم يبرأ. فكان ابن مقشّر وغيره من اطباء الخاص المشاركين له يتولّون علاجه فلا يؤثر ذلك الا شراً في العقد. فأحضر له جراحي يهودي كان يرتزق بصناعة مداواة الجراح في غاية الحمول. فلما رأى العقد طرح عليه دواءً يابساً فشقه وشفاه في ثلاثة ايام. فأطلق له الحاكم الف دينار وخلع عليه ولقبه بالحقير النافع وجعله من اطباء الخاص. ولما ولي الحاكم الامر بمصر وكان يميل الى الحكمة بلغه خبر ابي علي بن الحسين بن الهيثم المهندس البصري انه صاحب تصانيف في علم الهندسة عالم بهذا الشأن متقن له متقن فيه قائم بغوامضه ومعانيه. فتاقت نفسه الى رؤيته. ثم نُقل له عنه انه قال: لو كنت بمصر لعملتُ في نيلها عملاً يحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص. فازداد الحاكم اليه شوقاً وسيّر اليه سرّاً جملة من مال فارغيه في الحضور. فسار نحو مصر ولما وصلها خرج الحاكم للقائه والتقى بقرية على باب القاهرة المعزّية تعرف بالخذق وأمر بانزاله واكرامه واقام ريثما استراح وطالبه بما وعد به من أمر النيل فسار معه جماعة من الصناع ليستعين بهم على هندسة كانت خطرت له. ولما سار الى الاقليم بطوله ورأى آثار من تقدّم من ساكنيه من الامم الخالية وهي على غاية من احكام الصناعة وجودة الهندسة وما اشتملت عليه من اشكال سماوية ومثالات هندسية وتصوير مُعجز تحقّق ان الذي يقصده ليس بممكن فان من تقدّمه لم يعزب عنهم علم ما علمه ولو امكن لفعّلوا. فانكسرت همته ووقف خاطره. ووصل الى الموضع المعروف بالجنادل قبليّ مدينة اسوان وهو موضع مرتفع ينحدر فيه ماء النيل فعابته وباشره واختبره من جانبيه فوجد أمره لا يمشي على موافقة مراده وتحقق الخطأ عمّاً وعد به وعاد منخجلاً منخذلاً واعتذر بما قبل الحاكم ظاهره وواقفه عليه. ثم ان الحاكم ولّاه بعض الدواوين فتولّاه رغبة لا رغبة. وتحقق الغلط في الولاية لكثرة استحالة الحاكم واراقتة الدماء بغير سبب او بأضعف سبب من خيال مخيلة. فأجال ابو الحسن بن الهيثم فكرته في أمر يتخلّص به فلم يجد طريقاً الى ذلك الا إظهار الجنون والخيال فاعتمد ذلك وشاع. فأحيط على موجوده بيد الحاكم ونوّأه. وجعل برسه من يخدمه ويقوم بمصالحه وقبيل وتُرك في موضع من منزله. ولم يزل على ذلك الى ان مات الحاكم. وبعد ذلك يبسير أظهر العقل وعاد الى ما كان عليه وأقام متنسكاً منقّباً واشتغل بالتصنيف والنسخ والافادة وكان له خطّ قاعد في غاية الصحة. وحكي عنه انه كان ينسخ في مدّة سنة ثلاثة كتب في ضمن اشغاله وهي اقليدس والمتوسطات والمجسطي ويشكلها فاذا شرع

في نسخها جاءه من يعطيه فيها مائة وخمسين ديناراً مصريّةً. وصار ذلك كالرسم الذي لا يحتاج الى مواكسة ولا معاودة قول فيجعلها مؤثته لسنته . ولم يزل على ذلك الى ان مات بالقاهرة بعد سنة ثلثين واربعمائة . واما تصانيفه فهي كثيرة مشهورة .

(القائم بن القادر) ولما توفي القادر بالله جُددت البيعة لابنه القائم بأمر الله سنة اثنتين وعشرين واربعمائة وكان ابوه قد بايع له بولاية العهد سنة احدى وعشرين . وفيها اعني سنة اثنتين وعشرين ملك الروم مدينة الرها وكانت بيد نصير الدولة بن مروان . وفيها سارت عساكر السلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب خراسان الى كرمان فلكوها . وفي سنة خمس وعشرين واربعمائة كانت حرب شديدة بين نور الدولة دُبَيس وأخيه ابي قوام ثابت ثم اصطلحا وتحالفا . . وسار البساسيري نجدة لثابت فلما سمع بصلحهم عاد الى بغداد . وهؤلاء امراء عرب من بني اسد وخفاجة . وفيها توفي رومانوس ملك الروم وملك بعده رجل صيرفيّ ليس من بيت الملك وانما ابنة قسطنطين اختارته وتزوجته . وفي سنة سبع وعشرين واربعمائة توفي الظاهر لاعزاز دين الله الخليفة العلويّ بمصر^١ وكان له مصر والشام والخطبة له بافريقية . وولي بعده ابنه ابو تميم ولُقب المستنصر^٢ بالله . وفي سنة تسع وعشرين واربعمائة دخل ركن الدين ابو طالب طغرل بك محمد بن ميكائيل بن سلجوق مدينة نيسابور مالكاً لها . وفي سنة ثلثين واربعمائة وصل الملك مسعود^٣ من غزنة الى بلخ واجلى السلجوقية عن خراسان . وفيها خطب شبيب بن وثاب النميريّ صاحب حرّان والرقّة للإمام القائم بأمر الله وقطع خطبة المستنصر بالله العلويّ المصريّ . وفي سنة اثنتين وثلثين واربعمائة اتفق انوستكين^٤ الخصيّ البلخيّ في جماعة من الغلمان الدارية وثاروا بالملك مسعود وقبضوا عليه واقاموا اخاه محمداً وسلّموا عليه بالامارة . فأحضر أخاه الملك مسعوداً وقال له : لا قابلتلك على فعلك بي . وذلك لانه كان سمله وأعماه . فانظر اين تريد ان تُقيم حتى املكك اليه ومعك اولادك وحرملك . فاختر قلعة كرى^٥ فأنفذه اليها . ثم ان احمد

١- نصير ر نصر . وكذلك في الكامل لابن الاثير .

٢- وكان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة وكانت خلافته ست عشرة سنة .

٣- المستنصر . في احدى نسخي اكسفورد «المستنصر» .

٤- كان السلطان مسعود شجاعاً كريماً محباً للعلماء . كثير الصدقة والاحسان الى اهل الحاجة وكان ملكه عظيماً فسيحاً ملك اسبهان والري وهمدان وما يليها من البلاد وملك طبرستان وجرجان وخراسان وخوارزم وبلاد الراون وكرمان وبلخستان والسند والرخج وغزنة وبلاد الغور والهند واطاعه اهل البر والبحر .

٥- في الكامل انوشكين .

٦- وفي نسخة كبرى . ويروى في الكامل كيكبي . وروى ابن خلدون كيدي .

ابن محمد^١ دخل الى ابيه فطلب خاتمته ليختم به بعض الخزانين فأعطاه. فسار به غلامانه الى القلعة وأعطوا الخاتم لمستحفظيها وقالوا: معنا رسالة الى مسعود فأدخلوهم اليه فقتلوه. فلما وصل الخبر الى مودود بن مسعود وهو بخراسان عاد مُجِدًّا بعساكره الى غزنة فتصافَّ هو وعمه محمد فانهزم محمد وقبض عليه وعلى ولده احمد وانوستكين الخصي البلخي فقتلهم وقتل أولاد عمه جميعهم وقتل كل من كان له في القبض على والده صنع. وفي سنة ثلث وثلثين واربعائة ملك السلطان طغرلبيك جرجان وطبرستان. وفيها توفي ميخائيل ملك الروم وملك بعده ابن اخيه ميخائيل ايضاً^٢. وفي سنة خمس وثلثين توفي الملك جلال الدولة بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه ببغداد^٣ وملك ابو كاليجار ابن سلطان الدولة بن بهاء الدولة. وفي سنة تسع وثلثين وقع الصلح بين الملك كاليجار والسلطان طغرلبيك. وفي سنة اربعين واربعائة مات الملك ابو كاليجار ببغداد^٤ وملك ابنه الملك الرحيم. وفي سنة احدى واربعين ملك البساسيري الانبار ودخلها اصحابه. وفيها مات مودود بن مسعود بن محمود بن سيكتكين صاحب غزنة^٥ وملك عمه عبد الرشيد^٦. وفي سنة اثنتين واربعين ملك السلطان طغرلبيك اصفهان. وفي سنة ست واربعين استولى طغرلبيك على اذربيجان. وفي سنة سبع واربعين وصل طغرلبيك الى بغداد وخطب له بها. وفي سنة خمسين واربعائة سار طغرلبيك في اثر البساسيري ودييس ومعها اهلها فوقع بهم الاتراك وقتلوا البساسيري ودخلوا في الظعن فساقوه جميعه. وكان البساسيري مملوكاً تركياً من ممالك بهاء الدولة بن عضد الدولة وهو منسوب الى بساسير مدينته^٧. وفي سنة احدى وخمسين اصَّح ديبس بن مزيد واحضر الى خدمة السلطان طغرلبيك فأحسن اليه. وفي سنة خمس وخمسين سار السلطان طغرلبيك من بغداد الى بلد الجبل فوصل الى الري ففرض بها وتوفي وكان عمره سبعين سنة تقريباً^٨ وكان

١ - ان احد بن محمد و ان ابن محمد اخيه .

٢ - هما ميخائيل الرابع والخامس .

٣ - كان مولده سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة وملك ببغداد اثني عشرة سنة .

٤ - كان عمره اربعين سنة وشهوراً .

٥ - وكان عمره تسماً وعشرين سنة وملكه تسع سنين وعشرة اشهر .

٦ - ولقب شمس دين الله سيف الدولة وقيل جمال الدولة .

٧ - اسمه ارسلان وكنيته ابو الحارث . وجاء في معجم البلدان ما نصه « بسا بالفتح ويمر بونها فيقولون فسا مدينة بفارس . وذكر ابو العباس احمد بن علي بن بابه القاشي ان ارسلان البساسيري منسوب اليها . قال : هكذا ينسب اهل فارس الى بسا بساسيري » .

٨ - وكانت ملكته بحضرة الخلافة ثمان سنين .

عقياً لم يلد ولدآ . وملك بعده الب ارسلان بن داود جغرى ١ اخي السلطان طغرلبك . وفي سنة ثمان وخمسين ولدت صبية بيباب الازج ولدآ برأسين وورقتين ووجهين واربع أيدي على بدن واحد . وفي سنة احدى وستين احترق جامع دمشق فدمرت محاسنه وزال ما كان فيه من الاعمال النفيسة . وكان سبب ذلك حرب وقعت بين المغاربة اصحاب المصريين والمشاركة فضربوا دارآ مجاورة للجامع بالنار فاحترقت واتصلت النار بالجامع . وفي سنة ثلث وستين واربعائة خرج رومانوس ٢ ملك الروم الملقب ديوجانيس وهو اسم من اسماء الحكماء في مائة الف وواقي بتجمل ٣ كثير وزى عظيم فوصل الى ملازكرد من اعمال خلاط ٤ وكان السلطان الب ارسلان بمدينة خونج من اخريجان فسار اليه في خمسة عشر الف فارس اذ لم يتمكن من جمع العساكر لبعدها وقرب العدو . فجدآ في السير فلما قرب العسكران ارسل السلطان الى رومانوس الملك يطلب منه المهادنة . فقال : لا اهادنه الا بالري . فانزعج السلطان لذلك . فلما كان يوم الجمعة بعد الزوال صلّى وبكى فبكى الناس لبكائه . وقال لهم : من أراد الانصراف فليصرف فما ههنا سلطان يأمر وينهى . وألقى القوس والنشاب وأخذ السيف والدبوس وعقد ذنب فرسه بيده وفعل عسكره مثله ولبس البياض وتحنط وقال : ان قُتلت فهذا كفي . وزحف الى الروم وزحفوا اليه واشتد القتال فانهزم الروم وقُتل منهم خلق وأسر الملك اسره بعض المالك اسمه شادي وكان قد حضر عنده مع رسول فعرفه فلما رآه نزل وسجد له وقصد به السلطان . فضربه ثلث مقارع بيده وقال له : ألم أرسل اليك في المهادنة فأبيت . فقال : دعني من التوبيخ وافعل ما تريد . فقال السلطان : ما عزمت ان تفعل بي ان أسرتني . فقال : القبيح . قال له : فما تظن اني افعل بك . قال : امآ ان تقتلني وامآ ان تشهرني في بلادك . والاخرى بعيدة وهي العفو وقبول الاموال واصطناعي نائباً عنك . قال : ما عزمت على غير هذا . ففداه بالف الف دينار وان يطلق كل أسير عنده من المسلمين . واستقر الامر على ذلك واجلسه معه على سريره وأنزله في خيمة وأرسل اليه عشرة آلاف دينار بتجهز بها واطلق جماعة من البطارقة وخلع عليه وعليهم وسير معه عسكراً يوصلوه الى مأمنه وشيعة فرسخاً . واما الروم فلما بلغهم خبر الواقعة وثب

١ - وروى : جدى .

٢ - هو رومانوس الرابع .

٣ - بتجمل و بتجمل .

٤ - يقال خلاط واخلاط .

ميخائيل^١ على المملكة فلك البلاد . فلما وصل رومانوس الملك الى قلعة دوقية بلغه الخبر فلبس الصوف وأظهر الزهد وأرسل الى ميخائيل يعرفه ما تقرّر مع السلطان . وجمع رومانوس ما عنده من المال وكان مائتي الف دينار فارسله الى السلطان وحلف له انه لا يقدر على غير ذلك . وفي اول سنة خمس وستين واربعمئة قصد السلطان الب ارسلان محمد بن داود جفري بك ما وراء النهر فعقد على جيحون جسراً وعبر عليه في نيّف وعشرين يوماً وعسكره يزيد على مائتي الف فارس فأتاه اصحابه بمستحفظ قلعة اسمه يوسف الخوارزمي وحمل الى قرب سريره مع غلامين . فتقدّم ان يُضرب له اربعة اوتاد ويشدّ اطرافه اليها . فقال له يوسف : يا مَخْنَثْ مثلي يُقتل هذه القتلة . فغضب السلطان واخذ القوس والنشاب وقال للغلامين : خليّاه . فخليّاه . ورماه السلطان بسهم فأخطأه . فوثب يوسف يريده . فقام السلطان عن السرير ونزل عنه فعثر فوقع على وجهه . فبرك^٢ عليه يوسف وضربه بسكين كانت معه في خاصرته . ونهض السلطان فدخل الى خيمة أخرى . وضرب بعض الفرّاشين يوسف بمِرْزَبَة على رأسه فقتله . ولما جرح السلطان الب ارسلان اوصى بالسلطنة لابنه ملكشاه وقام بوزارته نظام الملك^٣ . وفي سنة سبع وستين واربعمئة ليلة الخميس ثالث عشر شعبان توفي القائم بأمر الله . ولما ايقن بالموت احضر النقيبين وقاضي القضاة والوزير ابن جهير^٤ واشهدهم على نفسه انه جعل ابن ابنه ابا القاسم عبد الله بن محمد بن القائم وليّ عهده . وكان عمر القائم ستاً وسبعين سنة وثلاثة اشهر وخلافته اربعاً واربعين سنة وتسعة اشهر .

* * *

وفي هذه السنين اشتهر بعلوم الاوائل ابو الريحان^٥ محمد بن احمد البيروني مبحر في فنون الحكمة اليونانية والهندية وتخصّص بأنواع الرياضيات وصنّف فيها الكتب الجليلة ودخل الى بلاد الهند واقام بها عدّة سنين وتعلّم من حكماؤها فنونهم وعلمهم طرق اليونانيين في فلسفتهم . ومصنفاته كثيرة متقنة محكمة غاية الاحكام . وبالجملة لم يكن في نظرائه في زمانه وبعده الى هذه الغاية احذق منه بعلم الفلك ولا اعرف بدقيقه

١ - هو ميخائيل السابع .

٢ - فبرك و فركب .

٣ - كان الب ارسلان بلغ من العمر اربعين سنة وشهوراً وكانت مدة ملكه منذ خُطب له بالسلطنة الى ان قُتل تسع سنين وستة اشهر .

٤ - و يروي : جهين .

٥ - ر الحكيم الفارسي ابو الريحان .

وجليله. وعُرف أيضاً بالعلوم الحكمية ابو عليّ الحسين بن عبد الله بن سينا الشيخ الرئيس. وحكي عن نفسه قال: ان ابي كان رجلاً من اهل بلخ وانتقل منها الى بخارا في ايام نوح بن منصور واشتغل بالتصرف بقربة خرميثن وتزوج أمي من قرية يقال لها أفشنة وولدتُ منها بها وولد اخي ثم انتقلنا الى بخارا وأحضرتُ معلم القرآن والادب وكتلت العشر من العمر وقد اتيت على القرآن وعلى كثير من الادب. حتى كان يُقضى مني العجب. واخذ والدي يوجهني الى رجل كان يبيع البقل ويقوم بحساب الهند حتى اتعلمه منه. ثم جاء الى بخارا ابو عبد الله الناطلي^١ وكان يدعي الفيلسوف وانزله ابي دارنا رجاء تعلّمي منه. فقرأت ظواهر المنطق عليه واما دقائقه فلم يكن عنده منها خبرة. ثم اخذت اقرأ الكتب على نفسي واطالع الشروح وكذلك كتاب اقليدس فقرأت من أوّله خمسة اشكال او ستة عليه ثم تولّيت حلّ الكتاب بأسره. ثم انتقلت الى المجسطي. وفارقتي الناطلي. ثم رغبت في علم الطب وصرت اقرأ الكتب المصنفة فيه وتمهدتُ المرضى فانفتح عليّ من ابواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف وانا في هذا الوقت من ابناء ست عشرة سنة. ثم توفّرتُ على القراءة سنة ونصفاً وكلّما كنت اتخيم في مسألة ولم اكن اظفر بالحدّ الاوسط في قياس تردّدت الى الجامع وصلّيت وابتهلت الى مبدع الكلّ حتى فتح لي المغلق منه والمتعسر. وكنت ارجع بالليل الى داري وأضع السراج بين يدي واشتغل بالقراءة والكتابة فهما غلبني النوم او شعرت بضعف عدلت الى شرب قدح من الشراب ريثما تعود اليّ قوّتي ثم ارجع الى القراءة ومتي اخذني ادنى نوم احلم بتلك المسائل بأعيانها حتى ان كثيراً منها انفتح لي وجوهها في المنام. ولم ازل كذلك حتى احكمت علم المنطق والطبيعي والرياضي. ثم عدت الى العلم الالهيّ وقراءت كتاب ما بعد الطبيعة فما كنت افهم ما فيه والتبس عليّ غرض واضعه حتى اعدت قراءته اربعين مرة وصار لي محفوظاً وانا مع ذلك لا افهمه وأيست من نفسي وقلت: هذا كتاب لا سبيل الى فهمه. واذا انا يوماً حضرت وقت العصر في الوراقين ويبد دلال مجلّد ينادي عليه فعرضه عليّ فرددته ردّ متبرّم معتقد ان لا فائدة في هذا العلم. فقال لي: اشترِ مني هذا فانه رخيص ابيعك بثلاثة دراهم وصاحبه محتاج الى ثمنه. فاشتريته فاذا هو كتاب لابن نصر الفارابي في اغراض كتاب ما بعد الطبيعة. فرجعت الى بيتي وأسرت قراءته فانفتح عليّ في الوقت اغراض ذلك

١ - وروى: الباطلي والناطلي.

٢ - ولم ر او لم.

الكتاب بسبب انه قد صار لي على ظهر القلب وفرحت بذلك وتصدقت بشي' على الفقراء شكراً لله تعالى . فلما بلغت ثماني عشرة سنة من عمري فرغت من هذه العلوم كلها وكنت اذ ذاك للعلم احفظ ولكنه اليوم معي انضج والا فالعلم واحد لم يتجدد لي بعده شي' . ثم مات والدي وتصرفت بي الاحوال وتقلدت شيئاً من اعمال السلطان . ودعنتي الضرورة الى الارتمال من بخارا والانتقال عنها الى جرجان وكان قصدي الامير قابوس فاتفق في اثناء هذا اخذ قابوس وجبسه وموته . ثم مضيت الى دهستان ومرضت بها مرضاً صعباً وعدت الى جرجان وأنشأت في حالي قصيدة فيها بيت القائل :

لما عظمت فليس مصر واسعي لما غلا ثمني عدمت المشتري

قال ابو عبيدة الجوزجاني^١ : الى ههنا انتهى ما حكاه الشيخ عن نفسه . وفي هذا الموضوع اذكر انا بعض ما شاهدت من احواله في حال صحبتي له والى حين انقضاء مدته . قال : في مدة مقامه بجرجان صنّف اوّل القانون ومختصر المجسطي وغير ذلك . ثم انتقل الى الري واتصل بخدمة السيدة وابنها مجد الدولة . ثم خرج الى قزوین ومنها الى همدان فاتصل بخدمة كدبانويه^٢ وتولّى النظر في اسبابها . ثم سألوه تقلد الوزارة فتملّدها . ثم اتفق تشويش العسكر عليه واشفاقهم منه على انفسهم فكبسوا داره واخذوه الى الحبس واخذوا جميع ما كان يملكه وساموا الامير شمس الدولة قتله فامتنع منه وعدل الى نفيه عن الدولة طلباً لمرضاتهم . فتواری الشيخ في دار بعض اصدقائه اربعين يوماً . فعاد الامير طلبه وقلّده الوزارة ثانياً . ولما توفي شمس الدولة وبويع ابنه طلبوا ان يستوزر الشيخ فأبي عليهم وتواری في دار ابي غالب العطار وهناك اتى على جميع الطبيعيات والالهيات ما خلا كتابي الحيوان والنبات من كتاب الشفاء . وكاتب علاء الدولة سراً يطلب المسير اليه فاتهمه تاج الملك بمكاتبتة وانكر عليه ذلك وحثّ في طلبه . فدلّ عليه بعض اعدائه فاخذوه وادّوه الى قلعة يقال لها بردجان^٣ وأنشأ هناك قصيدة فيها :

دخولي باليقين^٤ كما تراه وكلّ الشكّ في امر الخروج
وبقي فيها اربعة اشهر . ثم اخرجوه وحملوه الى همدان ثم خرج منها متنكراً وانا

١ - الجوزجاني و الجوزجاني .

٢ - وروى : كدبانويه وكذبانويه .

٣ - بردجان و بردوان .

٤ - دخولي باليقين و في احدي نسختي اكسرد : دخول النفس فيك .

واخوه وغلaman معه في زيّ الصوفيّة الى ان وصلنا الى اصفهان فصادف في مجلس علاء الدولة الاكرام والاعزاز الذي يستحقه مثله . وصنّف هناك كتباً كثيرة . (قال) وكان الشيخ قويّ القوى كلها وكانت قوة الجامعة من قواه الشهوانيّة اقوى واغلب وكان كثيراً ما يشتغل به فأثّر في مزاجه . وكان سبب موته قولنج عرض له ولحرصه على برئه حقن نفسه في يوم واحد ثماني مرّات فتقرّح بعض امعائه وظهر به سحج وعرض له الصرع الذي قد يتبع القولنج وصار من الضعف بحيث لا يقدر على القيام . فلم يزل يعالج نفسه حتى قدر على المشي لكنه مع ذلك لا يتحفظ ويكثر التخليط في أمر المعالجة ولم يبرأ من العلة كل البرّ وكان يفتكس ويبرأ كل وقت . ثم قصد علاء الدولة همذان وسار معه الشيخ فعاودته في الطريق تلك العلة الى ان وصل الى همذان وعلم ان قوته قد سقطت وانها لا تبي بدفع المرض فأهمل مداواة نفسه وأخذ يقول : المدبّر الذي كان يدبّرني قد عجز عن التدبير والآن فلا تنفع المعالجة . وبقي على هذا اياماً ثم انتقل الى جوار ربّه ودفن بهمذان وكان عمره ثمانياً وخمسين سنة وكان موته في سنة ثمان وعشرين واربعمائة . وفيه قال بعضهم :

ما نفع الرئيس من حكمه الطبّ م ولا حكمه على النيرت
ما شفاه الشفاء ا من ألم الموت ولا نجّاه النجاة

وقيل اول حكيم توسّم بخدمة الملوك ارسطوطاليس وكان الحكماء قبله مثل فيثاغوروس وسقراطيس وافلاطون يترفعون عن ذلك ولا يقربون ابواب السلاطين . والدليل على ذلك ان بعض ملوك اليونانيين كان مجتازاً بمكان كان فيه سقراطيس جالساً فلما دنا بقربه وهو لم ينهض ولم يتحرّك من مكانه ولا يلتفت فأقبل اليه بعض الغلمان فركله برجله . فقال له : لم تركلني . قال له : اما تبصر الملك كيف لا تنهض وتقوم له . اجابه سقراطيس قائلاً : كيف اقوم لعبد عبدي . فالتفت الملك الى مشاجرتها فاستدعى به فحُمل اليه فقال له : اي شيء قلت . قال : قلت لا اقوم لعبد عبدي . قال الملك : وانا عبد عبدك . قال : نعم ايها الملك انت استعبدتكَ الدنيا وانت خادمها وانا زهدتها واستعبدتها فهي عبدي وانت عبدها . فالملك استحسّن له ذلك وتقَدّم بالاحسان اليه فلم يقبل . قيل واول حكيم شغف بشرب الخمر واستفراغ القوى الشهوانية الشيخ الرئيس ابو عليّ بن سينا . ثم اقتدى به في الانهماك من كان بعده فهذان غيراً السنّة الفلسفية . وقيل ان شيخ الشيخ ابي عليّ في الطبّ ابو سهل المسيحيّ وكان طبيباً فاضلاً منطقياً

عالمًا بعلوم الاوائل المذكوراً في بلد خراسان له كُنْأش يعرف بالمائة كتاب مشهور .
مات وعمره اربعون سنة .

وفي سنة خمس وثلثين واربعمائة توفي ابو الفرج عبد الله بن الطيّب وهو عراقي
فيلسوف فاضل مطلع على كتب الاوائل واقاويلهم وغني بشروح الكتب القديمة في
المنطق وانواع الحكمة من تأليف ارسطوطاليس ومن الطب كتب جالينوس وبسط القول
في الشروح بسطاً شافياً قصد به التعليم والتفهيم . قال القاضي الاكرم جمال الدين
القفطي رحمه الله : لقد رأيت بعض من ينتحل هذه الصناعة يذمّ ابا الفرج بن الطيّب
بالتطويل وكان هذا العائب يهودياً ضيق الفطن قد وقف مع عبارة ابن سينا . فاماً انا
وكل مصنّف فلا يقول الا ان ابا الفرج بن الطيّب قد احيا من هذه العلوم ما دثر
وابان منها ما خفي . وقد تلمذ له جماعة سادوا وافادوا منهم المختار بن الحسن بن عبدون
المعروف بابن بطلان . قال ابن بطلان : ان شيخنا ابو الفرج ابن الطيّب بقي عشرين
سنة في تفسير ما بعد الطبيعة ومرض من الفكر فيه مرضة كان تلفظ نفسه فيها وهذا
يدلّك على شدة حرصه واجتهاده وطلب العلم لعينه^١ . وابن بطلان هذا فهو طيب
نصراني بغداديّ وكان مشوّه الخلقه غير صبيحها كما شاء الله منه وفضل في علم الاوائل
وكان يرتزق بصناعة الطب وخرج عن بغداد الى الموصل وديار بكر ودخل حلب وأقام
بها مدّة وما حمدها وخرج عنها الى مصر فاقام بها مدّة قريبة واجتمع باين رضوان
المصريّ الفيلسوف في وقته وحرّت بينهما منافرة احدثتها المغالبة في المناظرة . وخرج ابن
بطلان عن مصر مغضباً على ابن رضوان وورد انطاكية وأقام بها وقد سُمّ كثرة الاسفار
وضاق عطنه عن معاشره الانعام فغلب على خاطره الانقطاع فترل بعض الاديرة^٢
بانطاكية وترهب وانقطع الى العبادة الى ان توفي سنة اربع واربعين واربعمائة . ومن
مشاهير تصانيف ابن بطلان كتاب تقويم الصحة مجدول^٣ وكتاب دعوة الاطباء مقامة
ظريفة . ورسالة اشراء الرقيق . ولما جرى لابن بطلان بمصر مع ابن رضوان ما جرى
كتب اليه ابن بطلان رسالة يقطعه فيها ويذكر معايبه ويشير الى جهله بما يدعيه من
علم الاوائل ورتبها على سبعة فصول الاول فضل من لقي الرجال على من درس في

١ - كان ر كاد .

٢ - لعينه ر بعينه .

٣ - الاديرة ر الديرة .

٤ - مجدول ر مجدول .

الكتب . الثاني في ان الذي علم الطالب من الكتب علماً رديئاً شكوكه بحسب علمه يعسر حلها . الثالث في ان اثبات الحق في عقل لم يثبت فيه المحال اسهل من اثباته عند من ثبت في عقله المحال . الرابع في ان من عادات الفضلاء عند قراءتهم كتب القدماء ان لا يقطعوا في مصنفها بطعن اذا رأوا في الطالب تبايناً وتناقضاً لكن يخلدوا الى البحث والتطلب . الخامس في مسائل مختلفة صادرة عن براهين صحيحة من مقدمات صادقة يلتمس اجوبتها بالطريقة البرهانية . السادس في تصفح مقالته في المباهلة التي ضمن فيها : انني اسأله الف مسئلة ويسألني مسألة واحدة . السابع في تتبع مقالته في النقطة الطبيعية والتعيين على موضع الشبهة في هذه التسمية . وختم الرسالة بقوله : وليتحقق ان اللذة بمضغ الكلام لا تفي بغصة الجواب . فان لنا موقف حساب . ومجمع ثواب وعقاب . يتظلم فيه المرضى الى خالقهم . ويطلبون الاطباء بالاغلاط القاضية في هلاكهم . وانهم لا يسامحون الشيخ كما سامحته بسبتي ولا يغضون عنه كما اغضيت عن ثلب عرضي . فليكن من لقاءهم على يقين . ويتحقق انهم لا يرضون منه الا بالحق المبين . والله يوفقنا واياه للعمل بطاعته والتقرب اليه بابتغاء مرضاته وهو حسبي ونعم الوكيل . وذكر ابن بطلان في الفصل الرابع من رسالته الى ابن رضوان حكاية ظريفة وجب ايرادها ههنا قال : انني حضرت مع تلميذ من تلامذة الشيخ يعني الشيخ ابن رضوان ظاهر التجمُّل بادبي الذكاء ان صدقت القراءة فيه بحضرة الامير ابي علي بن جلال الدولة بن عضد الدولة فناخسرو في حمى نائبة أخذت اربعة ايام ولا تبدو يبرد وتُفْشَع بنداوة وقد سقاه ذلك الطبيب دواء مسهلاً وهو عازم على فصدته من بعد على عادة المصريين في تأخير الفصد بعد الدواء واطعام المريض القطائف بجلاب في نوب الحمى . فسألت الطبيب مستخبراً عن الحمى . فقال بلفظة المصريين : نعم سيدي حمى يوم مركبة من دم وصفراء نائبة اربعة ايام فلما سقيناها الدواء تحلّل الدم وبقيت الصفراء ونحن على فصدته لنا من الصفراء بمشيئة الله . فذهبت لا اعلم مما اعجب أمن كون حمى يوم تنوب في اربعة ايام بعلامات المواظبة أم من كونها من أخلاط مركبة أم من الدواء الذي حلّل الدم الغليظ وترك الصفراء اللطيفة . وما اشبه ذلك من حكاياته الا بما سمعت بانطاكية ان طبيباً رومياً شارط مريضاً به غب خالصة على برئه دراهم معلومة واخذ في تدييره بما غلظ المادة فصارت شطر غب بعد ما كانت خالصة . فأنكروا ذلك عليه وراموا صرفه فقال : انني استحق نصف الكراء لان الحمى ذهب

نصفها . وظنّ من جهة التسمية ان الشطر قد ذهب من الحمى . وما زال يسألهم عمّا كانت فيقولون غباً وعمّا هي الآن فيقولون شطراً فيتظلم ويقول : فلم منعتموني نصف القبالة . وحكي ان ابن رضوان هذا كان في اول أمره منجماً يقعد على الطريق ويرتزق ثم قرأ شيئاً من الطب والمنطق وكان من المفضلين لا المحققين ولم يكن حسن المنظر ولا الهيئة ومع هذا تتلمذ له جماعة من الطلبة بمصر وأخذوا عنه وسار ذكره وصنّف كتاباً مختطفة ملتقطة مستنبطة من غيره وكان تلاميذه ينقلون عنه من التعاليل الطبيّة والالفاظ المنطقيّة ما يضحك منه ان صدق النقلّة . ولم يزل ابن رضوان بمصر متصدراً للافادة الى ان مات في حدود سنة ستين^١ واربعائة . وكان من مشاهير الاطباء في هذه الايام طيب نصراني من اهل بغداد يقال له كتيفات خدم البساسيري معروف بالعمل غير موصوف بعلم ارتفع بصائب معالجته .

(المقتدي بن محمد بن القائم) لما توفي القائم بأمر الله^٢ بويج عبد الله بن محمد ابن القائم بالخلافة ولُقّب المقتدي بأمر الله سنة سبع وستين واربعائة . ولم يكن للقائم من اعقابه ذكر سواه فان الذخيرة ابا العباس محمد بن القائم توفي في ايام ابيه ولم يكن له غيره وكان المقتدي حلاً في بطن امه فولد بعد موت ابيه محمد بستة اشهر . وفي سنة ثمانين وستين سار اقسيس الخوارزمي وهو احد الامراء من عسكر السلطان ملكشاه الى دمشق فحصرها فغلت^٣ الاسعار فبيعت الغرارة بأكثر من عشرين ديناراً فسلموها اليه بالامان وخطب بها للمقتدي الخليفة العباسي وكان آخر ما خطب فيها للعلويين المصريين . وتغلّب اقسيس على اكثر الشام . وفي سنة اربع وسبعين توفي نور الدولة ديبس الاسدي وكان عمره ثمانين سنة وامارته سبعا وخمسين سنة وكان مذكوراً بالفضل والاحسان . وولي بعده ما كان اليه ابنه منصور ولُقّب بهاء الدولة فاحسن السيرة وسار الى السلطان ملكشاه فاستقرّ له الامر وخلع الخليفة ايضاً عليه ثم مات في سنة تسع وسبعين وولي الحلة والنيل وجميع ما كان له ابنه سيف الدولة صدقة . وفي سنة خمس وثمانين قُتل نظام الملك الوزير بالقرب من نهاوند قتله صبي ديلمي من الباطنية اتاه في صورة مستنح او مستغيث فضربه بسكين كانت معه فقُضي عليه . وبقي نظام الملك وزيراً للسلطين ثلثين سنة سوى ما وزر لالب ارسلان وهو صاحب خراسان ايام عمه

١ - ستين و ست وستين .

٢ - كان عمره ستاً وسبعين سنة وشهوراً وخلافته اربعمائة واربعين سنة وثمانية اشهر .

٣ - فغلت و فعلت .

طغربك قبل ان يتولّى السلطنة. وكان عمره سبعاً وسبعين سنة. وكان سبب قتله ان عثمان ابن جمال الملك بن نظام الملك كان قد ولّاه جدّه رئاسة مرو وارسل السلطان اليها شحنة اسمه قودن وهو من خواصّه فتازع عثمان في شيء فحملت عثمان حادثة سنّه وطمعه بجدّه على ان قبض عليه واحرق به ثم اطلقه فقصد السلطان مستغيثاً شاكياً فأرسل السلطان الى نظام الملك رسالة يقول له : ان كنت شريكى في الملك فلذلك احكم . وان كنت نائبي فيجب ان تلزم حدّ التبعية والنيابة وهؤلاء اولادك قد جاوزوا حدّ امر السياسة وطمعوا الى ان فعلوا كذا وكذا . فحضر المرسلون عند نظام الملك واوردوا عليه الرسالة فقال : قولوا للسلطان ان كنت ما علمت اني شريكك في الملك فاعلم . فانك ما نلت هذا الامر الا بتديري ورأيي اما تذكر حين قُتل ابوك فقممتُ بتديير امرك وقمعت الخوارج عليك من اهلك وغيرهم . وانت ذلك الوقت كنت تتمسك بي فلما قدت الامور اليك واطاعك القاصي والداني اقبلت تتجنّى لي الذنوب وتسمع في السعيات . وقولوا له عني ان ثبات تلك القلنسة معنوق بهذه الدواة وان اتفاهما سبب كل غنيمة ومتى أطبقت هذه الدواة زالت تلك . واطال فيما هذا سبيله . ثم قال : قولوا للسلطان عني مهما اردتم فقد أهمّني^٢ ما لحقني من توبيخه وقتاً في عضدي . فلما خرجوا من عنده اتفقوا على كتابان ما جرى عن السلطان فقالوا له ما مضمونه العبودية والاعتذار . ثم ان واحداً منهم اعلم السلطان بما جرى فوقع التدبير عليه حتى قُتل ومات السلطان بعده بخمس وثلاثين يوماً وانحلت الدولة ووقع السيف وكان قول نظام الملك شبه الكرامة له . وقيل ان ابتداء امر نظام الملك انه كان من ابناء الدهاقين بطوس وتعلّم العربية وكان كاتباً للامير تاجر^٣ صاحب بلخ وكان الامير يصادره في رأس كل سنة ويأخذ ما معه ويقول له : قد سميت يا حسن . وهرب الى جفري بك داود وهو بمرود فدخل اليه . فلما رآه اخذ بيده وسلمه الى ولده الب ارسلان وقال له : هذا حسن الطوسي فسلمته وانخذه والدأ ولا تخالفه . وكان نظام الملك اذا دخل عليه الاثمة الاكابر يقوم لهم ويجلس في مسنده وكان له شيخ فقير اذا دخل اليه يقوم له ويجلسه في مكانه ويجلس بين يديه . فقيل له في ذلك فقال : ان اولئك اذا دخلوا عليّ يشنون عليّ بما ليس فيّ

١ - فلذلك ر فاقدك و فامدك .

٢ - قدت ر قرّت .

٣ - اهمني ر دهمني .

٤ - وىروى : باجر . وىروى : باخر .

فيزيدني كلامهم عجباً وتيباً . وهذا يُذكرني عيوب نفسي وما انا فيه من الظلم فتتكسر نفسي لذلك فأرجع عن كثير مما انا فيه . وكان مجلسه عامراً بالعلماء واهل الخير والصلاح . واكثر الشعراء مراثيه فن جيد ما قيل قول شبل الدولة :

كان الوزير نظام الملك لؤلؤةً^١ يتيمةً^١ صاغها الرحمن من شرف
بدت^٢ فلم تعرف الايام قيمتها فردّها غيرةً^٣ منه الى الصدف

ثم سار السلطان ملكشاه بعد قتل نظام الملك الى بغداد ودخلها في الرابع والعشرين من شهر رمضان . واتفق ان خرج الى الصيد وعاد ثالث شوال مريضاً وكان سبب مرضه انه اكل لحم صيدٍ فحمّ فافتصد ولم يستوفِ اخراج الدم فنقل في مرضه وكانت حمى محرقة فتوفي ليلة الجمعة النصف من شوال فسترت زوجته تركان خاتون موته وكنمته وسارت من بغداد والسلطان معها محمولاً وبذلت الاموال للامراء واستحلفتهم لابنها محمود وكان تاج الملك وزيرها يتولّى ذلك لها وارسلت الى الخليفة المقتدي في الخطبة فاجابها وخطب لمحمود وعمره اربع سنين^٤ . وسارت تركان خاتون من بغداد الى اصفهان وبها بركيارق^٤ وهو اكبر اولاد السلطان فخرج منها هو ومن معه من الامراء النظامية وساروا نحو الري . فسيّرت خاتون العساكر الى قتال بركيارق فانحاز جماعة منهم الى بركيارق فقوي بهم وعاد الى اصفهان وحاصرها . وكان تاج الملك مع عسكر خاتون فأخذ وحمل الى بركيارق فهجم النظامية عليه فقتلوه . وكان كثير الفضائل جم المناقب وانما غطى محاسنه مما لاته على قتل نظام الملك . وفي سنة سبع وثمانين قدم بركيارق بغداد وخطب له بالسلطنة ولقّب ركن الدين . وفي سنة سبع وثمانين واربعمائة خامس عشر محرّم توفي الامام المقتدي بأمر الله فجأة^٥ وكان قد احضر عنده تقليد السلطان بركيارق ليعلم فيه فقراه وتدبره وعلم فيه . ثم قدّم اليه طعام فأكل منه وغسل يديه وعنده قهرمانته شمس النهار . فقال لها : ما هذه الاشخاص التي دخلت عليّ بغير اذن . (قالت) فالتفت فلم ار شيئاً ورأيت قد تغيّرت حالته وانحلت قوته وسقط الى الارض ميتاً . وقلت لجارية عندي : ان صحت قتلتك . واحضرت الوزير فاعلمته الحال . فشرعوا في البيعة لولي العهد وجهزوا المقتدي وذفّوه وكان عمره ثمانياً وثلاثين سنة وثمانية

١ - وروى : ثمينة . وروى ابن خلكان : نفيسة .

٢ - وروى : عزت .

٣ - ولقّب ناصر الدنيا والدين .

٤ - وروى : تركيارق س تركيارق وهو تصحيف .

اشهر وكانت خلافته تسع عشرة سنة وثمانية اشهر^١ وامه ام ولد ارمينية تسمى ارجوان ادركت خلافته وخلافة ابنه المستظهر وخلافة ابن ابنه المسترشد .

• • •

وفي سنة ثلث وسبعين واربعمائة مات يحيى بن عيسى بن جزلة الطيب البغدادي وكان رجلاً نصرانياً قد قرأ الطب على نصارى الكرخ^٢ الذين كانوا في زمانه واراد قِراءة المنطق فلم يكن في النصارى المذكورين في ذلك الوقت من يقوم بهذا الشأن وذكر له ابو علي بن الوليد شيخ المعتزلة في ذلك الوقت ووصف بانه عالم بعلم^٣ الكلام ومعرفه الالفاظ المنطقية فلازمه لقراءة المنطق . فلم يزل ابن الوليد يحسن له الاسلام حتى استجاب وأسلم فسُرَّ باسلامه ابو عبد الله الدامغاني قاضي القضاة يومئذٍ وقربه وادناه ورفع محلته بان استخدمه في كتابة السجلات بين يديه وكان مع اشتغاله بذلك يطبّ اهل محلته وسائر معارفه بغير اجرة ولا جعالة بل احتساباً^٤ ومروءة ويحمل اليهم الادوية بغير عوض . ولما مرض مرض موته وقف كتبه لمشهد الامام ابي حنيفة . ومن مشاهير تصانيفه كتاب المنهاج وكتاب تقويم الابدان مجدول .

(المستظهر بن المقتدي) لما توفي المقتدي بأمر الله أحضر ولده ابو العباس احمد فبويج له ولقب المستظهر بالله وذلك في سنة سبع^٥ وثمانين واربعمائة . (وفيها قتل السلطان بركيارق عمه تكش وغرقه وقتل ولده معه)^٦ . وفي سنة ثمان^٧ وثمانين قُتل تتش^٨ ابن الب ارسلان واستقام الامر والسلطنة لبركيارق . وفيها في ذي الحجة توفي المستنصر بالله بن الظاهر لاعزاز دين الله العلوي صاحب مصر والشام وكانت خلافته ستين سنة وعمره سبعاً وستين سنة وولي بعده ابنه ابو القاسم احمد ولُقّب المستعلي بالله^٩ . وفي

١ - ويروى في كتابي الكامل والذوالة الاتابكية لابن الاثير : خمسة اشهر من خمسة اشهر .

٢ - ويروى الكرخ .

٣ - ويروى بسلم الكلام .

٤ - ويروى احساناً .

٥ - سبع و ثمانين .

٦ - ما طوقناه هلالين فظنه زيادة من النسخ لان عم بركيارق هو تتش .

٧ - وفي سنة ثمان وثمانين ر وفيها .

٨ - تتش و بقش .

٩ - كان المستنصر قد عهد بالخلافة لابنه نزار فخلعه الافضل ويابح المستعلي بالله فهرب نزار الى الاسكندرية فبايمه اهل الاسكندرية ومهمو المصطفى لدين الله فخطب الناس ولعن الافضل فسار اليه الافضل فحصره وتسلم المستعلي نزاراً فبني عليه حائطاً فات .

سنة تسع وثمانين حكم المنجمون بطوفان يكون في الناس يقارب طوفان نوح . فأحضر الخليفة ابن عيسون المنجم فسأله . فقال : ان في طوفان نوح اجتمعت الكواكب السبعة في برج الحوت والآن فقد اجتمع ستة منها وليس فيها زُحل فلو كان معها لكان مثل طوفان نوح ولكن اقول ان مدينة او بقعة من الارض يجتمع فيها عالم كثير من بلاد كثيرة فيغرقون . فخافوا على بغداد لكثرة من يجتمع فيها من البلاد فاحكمت المسنّيات والمواضع التي يخشى منها الانفجار . فاتفق ان الحجّاج نزلوا في وادي المناقب فأتاهم سيل عظيم فاغرق اكثرهم ونجا من تعلق بالجبال وذهب المال والدواب والازواد . فخلع الخليفة على المنجم . وفي سنة تسعين واربعمائة قُتل ملك خراسان ارسلان ارغون بن الب ارسلان اخو السلطان ملكشاه قتله غلام له . فقيل له : لِمَ فعلت هذا . فقال : لأريج الناس من ظلمه . ثم ملك بركيارق خراسان وسلمها الى اخيه الملك سنجر . وفي سنة احدى وتسعين جمع بردويل ملك الافرنج^١ جمعاً كثيراً وخرج الى بلاد الشام وملك انطاكية . وكان الافرنج قبل هذا قد ملكوا مدينة طليطلة من بلاد الاندلس وغيرها ثم قصدوا جزيرة سقلية فلكوها وتطرقوا الى اطراف افريقية فلكوا منها شيئاً . فلما سمع قوام الدولة كربوقا^٢ بحال الافرنج وملكهم انطاكية جمع العساكر وسار الى الشام ونزل على انطاكية وحاصرها وفيها من الملوك بردويل وسنجال وكندفري والقومص صاحب الرها وبيموند صاحب انطاكية . وقتلت الاقوات عندهم فارسوا الى كربوقا يطلبون منه الامان ليخرجوا من البلد فلم يعطهم وقال : لا تخرجون الا بالسيف . وكان مع الافرنج راهب مطاع فيهم وكان داهية من الرجال فقال لهم : ان فطروس السليح كان له عكازة ذات زج مدفونة بكنيسة القسيان^٣ فان وجدتموها فانكم تظفرون والا فالملاك متحقق . وامرهم بالصوم والتوبة ففعلوا ذلك ثلاثة ايام . فلما كان اليوم الرابع ادخلهم الموضوع جميعهم ومعهم عامتهم وحفروا عليها في جميع الاماكن فوجدوها كما ذكر . فقال لهم : أبشروا بالظفر . فقويت عزيمتهم وخرجوا اليوم الخامس من الباب متفرقين من خمسة وستة ونحو ذلك . فقال المسلمون لكربوقا^٢ : ينبغي ان تقف على الباب فتقتل كل من خرج . فقال : لا تفعلوا لكن امهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم . فلما تكاملوا ولم يبق بانطاكية احد منهم ضربوا مصافاً عظيماً فولّى المسلمون منهزمون وآخر من انهزم

١ - لم يكن ملك الفرنج بل من امراءهم والذي اومر المؤلف هو انه ملك على اورشليم .

٢ - كربوقا ر كدبوقا .

٣ - هي الحربة التي طعن بها جنب المسيح وكانت مدفونة في كنيسة القديس بطرس الرسول بالقرب من المذبح . وقد روى هذا الخبر ثقات من المؤرخين كريموند دي اجيل وكان ممن شهدوا المعجزة .

سقمان^١ بن ارتق فقتل الافرنج منهم الوفاً وغنموا ما في العسكر من الاقوات والاموال والدواب والاسلحة فصلحت حالم وعادت اليهم قوتهم وساروا الى معرّة النعمان فلكوها. وفي سنة اثنتين وتسعين واربعائة لما رأى المصريون ضعف الاتراك صاروا الى البيت المقدس وحصروه وبه الامير سقمان وابلغازي ابنا ارتق التركماني وابن عمهما سونج ونصبوا عليه نيئاً واربعين منجنيقاً وملكوه^٢ بالامان وخرج عنه سقمان واصحابه واستناب المصريون فيه رجلاً يعرف بافتخار الدولة. فقصداه الافرنج ونصبوا عليه برجين وملكوه من الجانب الشمالي وركب الناس السيف ولبث الافرنج في البلد اسبوعاً يقتلون فيه المسلمين. وقتل بالمسجد الاقصى ما يزيد على سبعين الفاً^٣ وغنموا منه ما لا يقع عليه الاحصاء. وفي سنة ثلث وتسعين جرى حرب بين السلطان بركيارق وبين اخيه السلطان محمد وانهمز بركيارق وتقل في البلاد الى اصفهان. ولم يدخلها وسار الى خوزستان. وفي سنة اربع وتسعين كان المصاف الثاني بينهما وكان مع بركيارق خمسون الفاً ومع اخيه محمد خمسة عشر الفاً فالتقوا واقتلوا فانهمز السلطان محمد وسار طالباً خراسان الى اخيه الملك سنجر وهما لام^٤ واحدة فأقام بيجران وأتاه الملك سنجر في عساكره الى الدامغان وخرّب العسكر البلاد وعمّ الغلاء تلك الاصقاع حتى اكل الناس بعضهم بعضاً بعد فراغهم من اكل الميتة والكلاب. وفي سنة خمس وتسعين توفي المستعلي بالله الخليفة العلوي المصري وكانت خلافته سبع سنين^٥ وولي بعده ابنه ابو علي المنصور وعمره خمس سنين ولقب الامر باحكام الله ولم يقدر يركب وحده على الفرس لصغر سنّه وقام بتديير دولته الافضل^{*} بن امير الجيوش احسن قيام. وفي سنة سبع وتسعين وقع الصلح بين السلطانين بركيارق واخيه محمد ابني ملكشاه وتقررت القاعدة ان بركيارق لا يعترض اخاه محمداً في الطبل وان لا يُذكر معه على منابر البلاد التي سارت له وهي ديار بكر والجزيرة والموصل والشام. وفي سنة ثمانين وتسعين توفي السلطان بركيارق بن ملكشاه وكان قد مرض باصفهان بالسلّ والبواسير فلما ايس من نفسه خلع على ولده ملكشاه وعمره حينئذ اربع سنين وثمانية اشهر واحضر جماعة الامراء واعلمهم

١ - يقال سقمان وسكمان . كربوقا وكربوغا .

٢ - تملك المصريون على البيت المقدس سنة تسع وثمانين واربعائة ثلاث سنين قبل تملك الفرنج عليه .

٣ - هذا غلو فلا يدخل تحت التصديق وان غد فريد تسارع الى كف الجيش عن القتل .

٤ - وكان مولده سنة سبع وستين واربعائة .

٥ - ويروى الايصل وهو تصحيف .

انه قد جعل ابنه وليّ عهده في السلطنة وجعل الامير اياز اتابكه^١ فأجابوه كلهم بالسمع والطاعة وخطب للمكشاه بالجوامع ببغداد . وفي سنة تسع وتسعين^٢ واربعمئة سار السلطان محمد من اذربيجان الى الموصل ليأخذها من جكرميش صاحبها وحصرها . فقاتل اهل البلد اشدّ قتال وكانت الرجالة تخرج ويكثرون القتل في العسكر ودام القتال من صفر الى جمادى الاولى . فوصل الخبر الى جكرميش بوفاة السلطان بركيارق فارسلى الى محمد يئذله الطاعة . ودخل اليه وزير محمد وقال له : المصلحة ان تحضر الساعة عند السلطان فانه لا يخالفك في جميع ما تلتسمه منه . واخذ بيده وقام فسار معه جكرميش فلما رآه اهل الموصل قد توجه الى السلطان جعلوا يبكون ويضعون ويحثون التراب على رؤوسهم . فلما دخل على السلطان محمد اقبل عليه واكرمه وعانقه ولم يمكنه من الجلوس وقال : ارجع الى رعيتك فان قلوبهم اليك وهم متطلعون الى عودتك . فقبّل الارض وعاد وعمل من الغد سماطاً بظاهر الموصل عظيماً وحمل الى السلطان من الهدايا والتحف ولوزيره اشياء جليلة المقدار . وفي سنة خمسماية سار الجاولي سقاوو الى الموصل محارباً في الف فارس وخرج اليه جكرميش صاحبها في التي فارس . فلما اصطفوا للحرب حمل الجاولي من القلب على قلب جكرميش فانهزم من فيه وبقي جكرميش وحده لا يقدر على الهزيمة لفالج كان به فهو لا يقدر يركب وانما يُحمل في محفة فأسر وأحضر عند الجاولي فامر بحفظه وحراسته . ولما وصل الخبر الى الموصل اقعدهوا في الامر زنكي بن جكرميش . ثم ان الجاولي حصر الموصل وامر ان يُحمل جكرميش كل يوم على بغل ويُنَادى اصحابه بالموصل ليسلموا البلد ويخلصوا صاحبهم مما هو فيه ويأمرهم هو بذلك فلا يسمعون منه وكان يسجنه في جبّ فأخرج يوماً ميتاً^٣ . فكتب اصحابه الى الملك قلع ارسلان بن سليمان بن قتلмыш السلجوقي صاحب مدينة قونية واقسرة يستدعونه اليهم ليسلموا البلد اليه . فسار في عساكره . فلما سمع جاولي بوصوله رحل عن الموصل فتوجه قلع ارسلان الى الموصل وملكها ونزل بالمغرة^٤ وخرج اليه زنكي ولد جكرميش

١ - اتابك مركبة من بك وهي معروفة واتا ومعناها اب . كان هذا اللقب اولاً يعطى لمن يفوضه السلطان تربية احد اولاده الصغار . وكان الاتابك يدبر باسم الولد المدينة التي كانت المعادة ان يوليها السلطان لابنه . ثم توسعوا في معنى هذا اللقب ومنحوه لاول المتوظفين لامير الجيوش . ثم صار السلطان يعطيه للعظام كلقب شرف .

٢ - ويروى هذا الخبر في الكامل لسنة ثمان وتسعين .

٣ - كان عمره نحو ستين سنة .

٤ - ويروى في الكامل : بالمغرة .

واصحابه وخلع عليهم وجلس على التخت واسقط خطبة السلطان محمد وخطب لنفسه واحسن الى العسكر ورفع الرسوم المحدثه في الظلم ثم سار عنها الى جاوولي وهو بالرحبة والتقى على نهر الخابور فهزم اصحاب جاوولي اصحاب قلعج ارسلان وألقى قلعج ارسلان نفسه في الخابور وحى نفسه من اصحاب جاوولي بالنشاب فاحمدر به الفرس الى ماء عميق فغرق . وظهر بعد ايام فدفن بالشمسانية . وسار جاوولي الى الموصل وملكها . وفي سنة اثنتين وخمسمائة استولى مودود وعسكر السلطان محمد على الموصل واخذوها من اصحاب جاوولي . وفي سنة ثلث وخمسمائة سار تنكري الفرنجي صاحب انطاكية الى الثغور الشامية فملك طرسوس واذنة ونزل على حصن الاكراد فسلمه اهله اليه . وملك الفرنج مدينة بيروت وكانت بيد نواب الخليفة العلوي . وفي سنة ست في الحرّم سار الامير مودود صاحب الموصل الى الرها فنزل عليها وزعى عسكره زروعها ورحل عنها الى سروج وفعل بها كذلك ولم يحترز من الفرنج بل اهلهم فلم يشعر الا وجوسلين صاحب تلّ باشر قد دهمهم وكبسهم وكانت دوابّ العسكر منشرة في المرعى فأخذ كثيراً منها وقتل كثيراً من العسكر وعاد الى تلّ باشر . وفيها مات باسيل الارمني صاحب دروب بلاد ابن لاون وهو المسمّى كوغ باسيل اي اللص باسيل لانه سرق عدّة قلاع من الثغور فتملكها الارمن الى الآن . وفي سنة سبع وخمسمائة اجتمع المسلمون وفيهم الامير مودود بن التون تكش صاحب الموصل ودخلوا بلاد الفرنج والتقوا عند طبرية واشتدّ القتال وصبر الفريقان . ثم ان الفرنج انهزموا فأذن الامير مودود للعساكر في العود والاستراحة ثم الاجتماع في الربيع . ودخل دمشق ليقم بها عند طغتكين صاحبها الى الربيع فدخل الجامع ليصلي فيه فوثب عليه باطني كأنه يدعو له ويتصدّق منه فضربه بسكين فجرحه اربع جراحات فمات من يومه . وقتل الباطني وأخذ رأسه فلم يعرفه احد فأحرق . وفي سنة احدى عشرة في ذي الحجة مرض السلطان محمد بن ملكشاه ابن الب ارسلان فلما أيس من نفسه احضر ولده محموداً وقبّله وبكى كل واحد منهما وامره ان يخرج ويجلس على تخت السلطنة وعمره اذ ذاك قد زاد على اربع عشرة سنة . فقال لوالده انه يوم غير مبارك يعني من طريق النجوم . فقال : صدقت ولكن على ابيك واما عليك فبارك بالسلطنة . فخرج وجلس على التخت بالتاج والسوارين . وكان

١ - س التونطاشر .

٢ - وروى طغتكين . وروى : طغتكين بالراء بدل الدال وهو نصيف . - س ظفتكين .

السلطان محمد عظيم الهيبة عادلاً حسن السيرة شجاعاً ١ . وفي سنة اثنتي عشرة وخمسة مائة
سادس عشر ربيع الآخر توفي الامام المستظهر بالله وكان عمره احدى واربعين سنة
وسنة اشهر وخلافته اربعاً وعشرين سنة. ومضى في ايامه ثلاثة سلاطين خُطب لهم
بالحضرة وهم تاج الدولة تنش بن الب ارسلان والسلطان بركيارق والسلطان محمد ابنا
ملكشاه .

* * *

قال ابو الصلت أُمِيَّةُ المغربي: لما دخلت الى مصر في حدود سنة عشر وخمسة مائة
ادركت بها طبيباً انطاكياً يسمّى جرجيس ويُلقَّب بالفيلسوف على نحو ما قيل للغراب
ابو البيضاء واللديغ سليم . وقد تفرَّغ للتولُّع بأبي الخير سلامة بن رحمون اليهودي الطبيب
المصري والازراء عليه وكان يزور فصولاً طبيَّةً وفلسفية يبرزها في معارض الفاظ القوم
وهي محال لا معنى لها فارغة لا فائدة فيها ثم ينفذها الى من يسأله عن معانيها ويستوضحه
اغراضها فيتكلم عليها ويشرحها بزعمه دون تيقظ ولا تحفظ باسترسال واستعجال وقلَّة
اكتراث واهمال فيوجد فيها عنه ما يضحك منه . (قال) وانشدت لجرجيس هذا في
ابي الخير سلامة بن رحمون وهو من احسن ما سمعت في هجو طبيب مشووم :

ان ابا الخير على جهله يحفّ في كفته الفاضلُ
عليه المسكين من شوّمه في بحر هلك ما له ساحلُ
ثلاثة تدخل في دفعة طلعت والنعش والغاسلُ

(قال) وكان ابو الخير هذا يهودياً مصرياً قد نصب نفسه لتدريس كتب المنطق
جميعها وجميع كتب الفلسفة الطبيعية والالهية وشرح بزعمه وفسر وخص ولم يكن في
تحصيله وتحقيقه هنالك بل كان يكثر كلامه فيفضل . ويسرع جوابه فيزل . وكان
مثله في عظيم ادعائه وقصوره عن ايسر ما هو متعاطيه كقول الشاعر :

يشمر للنج عن ساقه ويغمره الموج في الساحل

(قال) ورأيت بمصر ايضاً رزق الله المنجم المعروف بالنحاس ٢ وكان شيخ اكثر
المنجمين بمصر وكبيرهم وكان شيخاً مطبوعاً متطايماً . ومن حكاياته الظريفة عن نفسه

١ - كان عمره سباً (وروى ابو الفداء ستاً) وثلاثين سنة واربعة اشهر . واول ما دعي له بالسلطنة ببغداد
سنة اثنتين وتسعين وقطعت خطبته عدة دفعات . فلما توفي اخوه بركيارق اجتمع الناس عليه اثنتي
عشرة سنة .

٢ - س خمساً وعشرين سنة وخمسة اشهر .

٣ - بالنحاس ر بالنحاس .

قال: سألتني امرأة مصرية ان انظر لها في مسئلة تخصها. فاخذت ارتفاع الشمس للوقت وحققت درجة الطالع والبيوت الاثني عشر ومراكز الكواكب ورسمت ذلك كله بين يدي في تحت الحساب وجعلت اتكلم على بيت بيت منها على العادة وهي ساكنة فوجت لذلك وادركني فترة وكانت قد القت الي درهماً. (قال) فعادت الكلام وقلت: ارى عليك قطعاً في بيت المال فاحتفظي واحترسي. قالت: الآن اصبت وصدقت قد كان والله ما ذكرت. قلت: وهل ضاع لك شيء. قالت: نعم الدرهم الذي ألقيت اليك. وتركتني وانصرفت. ولما ذكر ابو الصلت منجمي مصر وعابهم قال: لا تتعلق امثلتهم من علم النجوم بأكثر من زايجة يرسمها ومراكز يقومها واما التبخر ومعرفة الاسباب والعلل والمبادي الاول فليس منهم من يرقى الى هذه الدرجة ويسمو الى هذه المنزلة ويحلّق في هذا الجو ويستضيء بهذا الضوء ما خلا القاضي ابا الحسن عليّ ابن النصير المعروف بالاديب فانه كان من الافاضل الاعيان المعلومين من حسنات الزمان وله في سائر اجزاء الحكمة اليد الطولى والمرتبة الاولى.

(المسترشد بن المستظهر) لما توفي المستظهر بالله بوبيع ولده المسترشد بالله ابو منصور وذلك في سنة اثنتي عشرة وخمسة فكان ولي عهد قد خطب له ثلثاً وعشرين سنة. وفيها توفي بغدوين ملك القدس وكان قد سار الى ديار مصر في جمع من الفرنج قاصداً ملكها وبلغ مقابل تينس^١ وسبح في النيل فانتقض جرح كان به فلما احس بالموت عاد الى القدس فمات به^٢ ووصى ببلاد القمص^٣ صاحب الرها وهو الذي كان اسره جكرميش واطلقه سقاوو جاولي. وفي سنة ثلث عشرة وخمسة كانت حرب شديدة بين السلطان سنجر وابن اخيه السلطان محمود. وفي سنة اربع عشرة خرج الكرج وهم الخزر الى بلاد الاسلام ومعهم قفجاق وغيرهم من الامم فاجتمع الامير ايلعازي ودبيس بن صدقة والملك طغرل وكان له اران ونخجوان وساروا الى الكرج

١ - قطعاً و قطعاً . المال و مال.

٢ - تينس و بليس .

٣ - ان بغدوين توفي وهو في الطريق الى البيت المقدس فحمل اليه ميتاً .

٤ - القمص و القمص .

٥ - ليس هذا بيثت وما من علاقة بين الكرج والخزر . الكرج هم جيل من الناس نصارى كانوا يسكنون في جبال القيق وبلد السرير وقويت شوكتهم حتى ملكوا مدينة تغليس . قال المسعودي : ويقال للمكهم برزيتان . والخزر بلادهم خلف باب الابواب المعروف بالدر بند على السواحل الشمالية الغربية من بحر الخزر المعروف في زماننا ببحر قزوين وملكهم يقال له خاقان وكان له مدينة عظيمة تسمى اتل على جانبي نهر اتل Volga وهذا النهر يجري الى الخزر من الروس والبلغار ويصب في بحر الخزر .

حتى قاربوا تفليس وكان المسلمون في عسكر كثير يبلغون ثائين ألفاً فالتقوا واصطف الطائفتان للقتال فخرج من التفجاق مائتا رجل فظنَّ المسلمون انهم مستأمنون فلم يحترزوا منهم . فدخلوا بينهم ورموا بالنشاب فاضطرب جيش صفَّ المسلمين وظنَّ من وراءهم انها هزيمة فانهمزوا ولشدة الزحام صدم بعضهم بعضاً فقتل منهم عالم عظيم وتبعهم الكرج عشرة فراسخ يقتلون ويأسرون فقتل اكثرهم وأسر اربعة آلاف رجل ونجا الملك طغرل وابلغازي ودييس . وعاد الكرج وحاصروا مدينة تفليس واشتد قتالهم لمن بها وعظم الامر وتفاقم الخطب على اهلها ودام الحصار الى سنة خمس عشرة فلكوها عنوة . وفي سنة خمس عشرة عصى سليمان بن ايلغازي بن ارتق على ابيه بحلب وقد جاوز عمره عشرين سنة . فسمع والده الخبر فسار اليه مجدداً لوقته فلم يشعر به سليمان حتى هجم عليه فخرج اليه معتذراً فأمسك عنه وقبض على من كان اشار عليه بذلك منهم امير كان قد التقطه ارتق ورباه اسمه ناصر فقلع عينيه وقطع لسانه . ومنهم انسان حموي كان قد قدمه ايلغازي على اهل حلب وجعل اليه الرئاسة فجازاه عن ذلك فقطع يديه ورجليه وسمل عينيه فمات . واحضر ولده وهو سكران واراد قتله فنهه رقة الوالد فاستبقاه فهرب الى دمشق . واستتاب ايلغازي بحلب سليمان بن اخيه عبد الجبار بن ارتق ولقبه بدر الدولة وعاد الى ماردين . وفيها اقطع السلطان مدينة ميسافارقين للامير ايلغازي ابن ارتق ومدينة الموصل والجزيرة وسنجار للامير اقسنقر البرستي . وفي سنة ست عشرة في شهر رمضان توفي الامير ايلغازي بن ارتق بميسافارقين وملك ابنه حسام الدين اتمرتاش قلعة ماردين وملك ابنه سليمان ميسافارقين . وكان بحلب ابن اخيه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن ارتق فبقي بها الى ان اخذها منه ابن عمه . وفي سنة سبع عشرة لما رأى بلك بن بهرام بن ارتق ضعف بدر الدولة سليمان ابن عمه عن حوط بلاده من الفرنج سار اليه الى حلب وضيَّق على من بها فقتلها بالامان . وفي سنة ثمانى عشرة سار بلك بن بهرام الى منبج وملكها وحصر القلعة فيينا هو يقاتل من بها اتاه سهم فقتله واضطرب عسكره وتفرقوا وملك اقسنقر البرستي حلب وقلعتها وملك الفرنج مدينة صور . وفي سنة عشرين وخمسة في ذي القعدة قُتل قسيم الدولة اقسنقر البرستي صاحب الموصل بمدينة الموصل قتله الباطنية يوم الجمعة بالجامع وملك ابنه عز الدين مسعود الموصل ولم يختلف عليه احد . قال المؤرخ : ومن العجب ان صاحب انطاكية ارسل الى عز الدين مسعود يخبره بقتل والده قبل ان يصل اليه الخبر وكان قد سمعه الفرنج قبل

لشدّة عنايتهم بمعرفة الاحوال الاسلاميّة . وفي سنة احدى وعشرين تولّى اتابك عماد الدين زنكي بن اقسنقر شحنكية بغداد اسندها اليه السلطان محمود . وفيها توفي عزّ الدين مسعود بن اقسنقر وتولّى اخوه عماد الدين زنكي الموصل واعمالها . وفي سنة اثنتين وعشرين ملك عماد الدين زنكي بن اقسنقر مدينة حلب وقلعتها وبعد سنة ملك مدينة حماة . وفي سنة اربع^١ وعشرين وخمسمائة ثاني ذي القعدة قتل الأمر باحكام الله ابو عليّ بن المستعلي العلويّ صاحب مصر^٢ خرج الى منزله له فلما عاد وثب عليه الباطنيّة فقتلوه ولم يكن له ولد فولي بعده ابن عمّه ابو الميمون عبد المجيد بن ابي القاسم ابن المستنصر العلويّ صاحب مصر ولُقّب الحافظ لدين الله ولم يبايع له بالخلافة وانما يوبع له لينظر في الامر نيابة حتى يكشف عن حمل إن كان للأمر فتكون الخلافة فيه ويكون هو نائباً عنه^٣ . وفيها ظهر ببغداد عقارب طيارة ذوات شوكين فنال الناس منها خوف شديد واذمّ عظيم . وفي سنة خمس وعشرين في شوال توفي السلطان محمود ابن السلطان محمد بهمدان وكان عمره نحو سبع وعشرين سنة وولايته ثلث عشرة سنة وكان حليماً كريماً عاقلاً يسمع ما يكره ولا يعاقب عليه مع القدرة قليل الطمع في اموال الرعايا عفيفاً عنها كافئاً لاصحابه عن التطرّق الى شيء منها . وملك ابنه داود بعده . وفي سنة ست وعشرين كاتب السلطان سنجر عماد الدين زنكي ودييس بن صدقة وامرهما بقصد العراق فسارا ونزلا بالمنارية من دُجَيْل وعبر الخليفة المسترشد الى الجانب الغربي فنزل بالعبّاسيّة والتقى العسكران بمحضرا^٤ البرامكة فابتدأ زنكي فحمل على ميمنة الخليفة وبها جمال الدولة اقبال فانهزموا منه . وحمل نصر الخادم من ميسرة الخليفة على ميمنة عماد الدين ودييس وحمل الخليفة بنفسه واشتدّ القتال فانهزم ديبس وعماد الدين وقتل من عسكرهما جماعة وأسر جماعة . وفي سنة سبع وعشرين ارسل المسترشد الشيخ بهاء الدين ابا الفتوح الاسفرايني الواعظ الى عماد الدين زنكي برسالة فيها خشونة وزادها ابو الفتوح زيادة في الجبّه ثقة بقوة الخليفة وناموس الخلافة . فقبض عليه زنكي

١ - اربع و ثلاث .

٢ - كانت ولايته تسماً وعشرين سنة وخمسة اشهر وعمره اربعاً وثلاثين سنة . وهو ايضاً العاشر من ولد المهدي عبيد الله الذي ظهر بسجلماسة وبنى المهديّة بافريقية . وهو ايضاً العاشر من الخلفاء العلويين من اولاد المهدي .

٣ - ولما ولي استوزر ابا علي احمد بن الافضل فاستبد بالامر وتقلب على الحافظ وحجر عليه وادخله في خزافة وبنى الحافظ له اسم لا معنى تحته الى ان قتل ابو علي سنة ست وعشرين فاستقامت امور الحافظ .

٤ - و يروى بمحضران . ولعلها بمحسن .

٥ - الفتوح و الفتح .

واهانه ولقيه بما يكره . فسمع الخليفة فسار عن بغداد في ثلثين الف مقاتل فلما قارب الموصل فارقتها اتابك زنكي في بعض عسكره وترك الباقي بها مع نائبه نصير الدين ونازها الخليفة في رمضان وقاتلها وضيَّق عليها . فتواطأ جماعة من الجصاصين بالموصل على تسليم البلد فسُعي بهم فصلبوا . وبقي الحصار على الموصل نحو ثلاثة اشهر ولم يظفر منها بشيء ولا بلغه عمن بها وهن ولا قلّة ميرة وقوت فرحل عنها عائداً الى بغداد . وفي سنة ثمانين وعشرين تقررّ الصلح بين الخليفة المسترشد واتبك زنكي . وفي سنة تسع وعشرين وخمسمائة سار الخليفة المسترشد الى حرب السلطان مسعود ومعه جماعة من امراء الاكابر فواقهم السلطان مسعود عاشر رمضان فانحازت ميسرة الخليفة محاصرةً عليه الى السلطان واقتلت ميمنته وميسرة السلطان قتالاً ضعيفاً ودار به عسكر السلطان وهو ثابت لم يتغير من مكانه وانهزم عسكره وأخذ أسيراً فانزله السلطان مسعود في خيمة ووكل به من يحفظه وقام بما يجب من الخدمة وتردّدت الرسل بينهما بالصلح وتقرير القواعد على مالٍ يؤدّيه الخليفة وان لا يعود يجمع العساكر ولا يخرج من داره واجاب السلطان الى ذلك واركب الخليفة وحمل الغاشية بين يديه ولم يبق الا ان يعود الى بغداد فوصل الخبر بقدم رسول من السلطان سنجر وخرج الناس والسلطان مسعود الى لقائه وفارق الخليفة بعض من كان موكلاً به وكانت خيمته منفردة عن العسكر فقصده اربعة وعشرون رجلاً من الباطنية ودخلوا عليه فقتلوه وجرحوه ما يزيد على عشرين جراحة ومثّلوا به وجدعوا انفه واذنيه وتركوه عرياناً وكان قتله يوم الخميس سابع عشر ذي القعدة على باب مراغة وبقي حتى دفنه اهل مراغة وكان عمره لما قُتل ثلاثاً واربعين سنة وخلافته سبع عشرة سنة وسبعة اشهر .

(الراشد بن المسترشد) لما قُتل المسترشد بويغ ولده ابو جعفر المنصور ولُقّب الراشد بالله . وكان المسترشد بايع له بولاية العهد في حياته وحُدّدت له البيعة بعد قتله يوم الاثنين سلخ ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة . وفيها قُتل دبّيس بن صدقة صاحب الحلّة على باب سرادقه بظاهر خونج امر السلطان غلاماً ارمينياً بقتله فوقف على رأسه وهو ينكت الارض باصبعه فضرب رقبتة وهو لا يدري . ومثل هذه الحادثة تقع كثيراً وهو قرب موت المتعاضدين فان دبّيساً كان يعادي المسترشد ويكره خلافته ولم يكن يعلم ان السلاطين انما كانوا يبقون عليه ليجعلوه عدّةً لمقاومة المسترشد فلما زال السبب زال المسبّب . وفي سنة ثلثين وخمسمائة اجتمع الملوك واصحاب الاطراف ببغداد وخرجوا عن طاعة السلطان مسعود وسار الملك داود بن السلطان محمود في عسكر اذربيجان

الى بغداد ووصل اتابك عماد الدين زنكي بعده من الموصل وخطب للملك داود ببغداد . فلما بلغ السلطان الخبر جمع العساكر وسار الى بغداد وحصرها نيفاً وخمسين يوماً فلم يظفر بهم فغزم على العود الى همدان فوصله "طرُنطاي صاحب واسط ومعه سُفن كثيرة فعاد اليها فاختلفت كلمة الامراء المهتمين ببغداد فعاد الملك داود الى بلاده وتفرق الامراء وكان عماد الدين زنكي بالجانب الغربي فعبّر اليه الخليفة الراشد وسار معه الى الموصل في نفر يسير من اصحابه ودخل السلطان مسعود الى بغداد واستقر بها وجمع القضاة والشهود والفقهاء وعرض عليهم اليمين التي حلف بها الراشد له وفيها بخطّ يده : انني متى جندت او خرجت او لقيت احداً من اصحاب السلطان مسعود بالسيف فقد خلعت نفسي من الامر . فأفتوا وخلع وقطعت خطبته من بغداد وسائر البلاد وكانت خلافته احد عشر شهراً وثمانية عشر يوماً .

• • •

وفي سنة ثلثين وخمسمائة كان ابو علي المهندس المصري موجوداً بمصر قيساً بعلم الهندسة وكان فاضلاً فيه وفي الادب وله شعر يلوح عليه الهندسة فن شعره :

تقسّم قلبي في محبة معشر
بكل قتي منهم هواي منوط
كان فؤادي مركز وهم له
محيط واهواي لديه خطوط
وله ايضاً :

اقليدس العلم الذي هو محتوي
هو سلم وكأتما اشكاله
تركو فوائده على انفاقه
ترقى به النفس الشريفة مرتقى
ما في السماء معاً وفي الآفاق
درج الى العلياء للطراق
يا حبذا زاك على الانفاق
أكرم بذاك المرتقى والراقي

(المفتي بن المستظهر) لما قطعت خطبة الراشد بالله تقدّم السلطان مسعود بعمل محضر يذكر فيه ما ارتكبه الراشد من اخذ الاموال واشياء تقدح في الامامة ثم كتبوا فتوى : ما تقول العلماء في من هذه صفته هل يصلح للامامة ام لا . فأفتوا أن من هذه صفته لا يصلح ان يكون إماماً . فاستشار السلطان جماعة من اعيان بغداد فيمن يصلح ان يلي الخلافة فذكر الوزير محمد بن المستظهر ودينه وعقله ولين جانبه وعفته فأحضر المذكور وأجلس في الميمنة ودخل السلطان والوزير وتحالفا وقرّر الوزير القواعد بينهما

وخرج السلطان من عنده وحضر الامراء والقضاة والفقهاء وبايعوه ثاني عشر ذي الحجة سنة ثلثين وخمسمائة ولُقّب المقتني لامر الله .

وفي سنة احدى وثلثين فارق الراشد المخلوع اتابك زنكي من الموصل وسار الى همدان وبها الملك داود . وفيها رحل الى اصفهان . فلما كان آخر رمضان وثب عليه نفر من انخراسانية الذين كانوا في خدمته فقتلوه وهو يريد القبلولة وكان في اعقاب مرض قد برأ منه ودُفن بظاهر اصفهان بشهرستان وكان عمره اربعين سنة . وفي سنة اثنتين وثلثين وصل اتابك زنكي الى حماة وارسل الى شهاب الدين صاحب دمشق يخطب اليه امه ليتزوجها واسمها زمرّد خاتون ابنة جاولي وهي التي بنت المدرسة بظاهر دمشق على نهر بردى . فتزوجها وتسلّم حمص مع قلعها وانما حمله على التزوج بها ما رآه من تحكّمها في دمشق فظنّ انه يملك البلد بالاتصال اليها فلما تزوّجها خاب امله ولم يحصل على شيء فأعرض عنها . وفيها ملك حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي صاحب ماردين قلعة الهتّاخ اخذها من بعض بني مروان وهو آخر من بقي منهم له ولاية . وفي سنة ثلث وثلثين ملك اتابك زنكي بن اقسنقر بعلبك . وفي سنة اربع ملك زنكي شهرزور واعمالها . وفي سنة سبع وثلثين وخمسمائة توفي محمد بن دانشمند صاحب ملطية والثغر واستولى على بلاده الملك مسعود بن قلعج ارسلان صاحب قونية وهو من السلجوقية .

وفي سنة تسع وثلثين فتح اتابك عماد الدين زنكي مدينة الرها من الفرنج وحاصر قلعة البيرة وهي للفرنج بعد ملك الرها وهي من امنع الحصون وضيقّ عليها وقارب ان يفتحها فجاءه خبر قتل نصير الدين نائبه بالموصل فسار عنها . فخاف من البيرة من الفرنج ان يعود اليها فارسلوا الى نجم الدين صاحب ماردين وسلّموها اليه فلحقها المسلمون .

وفي سنة اربعين وخمسمائة لحمس مضيّن من ربيع الآخر قُتل اتابك عماد الدين زنكي بن اقسنقر صاحب الموصل والشام وهو يحاصر قلعة جعبر قتله جماعة من مماليكه ليلاً غيلةً وهربوا الى قلعة جعبر . فصاح من بها من اهلها الى العسكر يعلمونهم بقتله فاطهروا الفرّج . فدخل اصحابه اليه فادركوه وبه رمق وفاضت نفسه لوقته وكان قد زاد عمره على ستين سنة قد وخطه الشيب وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيته عظيم السياسة وكانت الموصل قبل ان يملكها اكثرها خراب بحيث يقف الانسان قريب محلّة الطبّالين ويرى الجامع العتيق والعرصة ودار السلطان ليس بين ذلك عمارة . وكان الانسان لا يقدر على المشي في الجامع العتيق الا ومعه من يحميه وهو الآن في وسط العمارة . وكانت

الموصل من اقل بلاد الله فاكهة فصارت في ايامه وما بعدها من اكثر البلاد فواكه ورياحين . ولما قُتل اتابك زنكي أخذ نور الدين محمود ولده خاتمه من يده وكان حاضراً معه وسار الى حلب وملكها . وكان سيف الدين غازي اخوه بمدينة شهرزور وهي اقطاعه فأرسل اليه زين الدين عليّ كوجك نائب ابيه عماد الدين زنكي بالموصل يستدعيه الى الموصل فحضر واستقرّ ملك سيف الدين على البلاد وبقي اخوه نور الدين بحلب وهي له .

وفي سنة اربع واربعين وخمسة توفّي سيف الدين غازي بن اتابك زنكي صاحب الموصل بها من مرض حاد . فلما اشتدّ مرضه ارسل الى بغداد واستدعى أُوحد الزمان ابا البركات فحضر عنده ورأى شدة مرضه فعالجه فلم ينجع الدواء وتوفّي آخر جمادى الآخرة وكانت ولايته ثلث سنين . وولي امر الموصل والجزيرة بعده اخوه قطب الدين مودود . وكان اخوه الاكبر نور الدين محمود بالشام وله حلب وحماة فسار الى سنجار وملكها ولم يحاqqه اخوه قطب الدين ثم اصطلحا واعاد نور الدين سنجار الى قطب الدين وتسلم هو مدينة حمص والرحبة فبقي الشام له وديار الجزيرة لآخيه .

وفيهَا غزا نور الدين محمود بن زنكي بلد الافرنج من ناحية انطاكية فاجتمعت الفرنج مع البرنس فلقبهم نور الدين واقتتلوا قتالاً عظيماً فانهمز الفرنج وقتل البرنس ١ . وملك بعده ابنه بيمند وهو طفل فتزوجت امه بفرنس ٢ آخر ليدبر البلد الى ان يكبر ابنها . وفيها توفّي الحافظ لدين الله عبد الحميد ٣ وولي الخلافة بمصر ابنه الظافر بأمر الله ابو المنصور اسمعيل . وفي سنة ست واربعين جمع نور الدين محمود عسكره وسار الى بلاد جوسلين الفرنجي وهي شمالي حلب . وكان جوسلين فارس الفرنج غير مدافع قد جمع الشجاعة والرأي فسار في عسكره نحو نور الدين فالتقوا واقتتلوا وانهمز المسلمون وقتل منهم وأسر جمع كثير وكان في جملتهم سلاح دار نور الدين فأخذه جوسلين ومعه سلاح نور الدين فسيّره الى الملك مسعود بن قلع ارسلان صاحب قونية واقصرا ٤ وقال له : هذا سلاح دار زوج ابنتك وسيأتيك بعده ما هو اعظم منه .

١ - هو ريموند الاول .

٢ - برنس ر بارنس .

٣ - كانت خلافته عشرين سنة الأ خمسة اشهر وعمره نحواً من سبع وسبعين سنة ولم يزل في جيما محكوماً عليه يحكم عليه وزراؤه .

٤ - اقصرا ويقال اقصرا واكصرا مدينة بالروم ذات قلعة كبيرة حصينة وهي على ثلاث مراحل من قونية قيل ان اصلها اق سراي ومعنى اق ايض وسراي بمعناه المعروف .

فلما علم نور الدين الحال عظم ذلك عليه واعمل الحيلة على جوسلين وهجر الراحة ليأخذ ثأره واحضر جماعة من الامراء التركمان وبذل لهم الرغائب ان هم ظفروا بجوسلين وسلّموه اليه لانه علم عجزه عنه في القتال . فجعل التركمان عليه العيون . فخرج متصيّداً فظفر به طائفة منهم وحملوه الى نور الدين اسيراً . فسار نور الدين الى قلاع جوسلين فللكها وهي عين تاب وعزاز^١ وقورس والراوندان وبرج الرصاص ودلوك ومرعش ونهر الجوز وغير ذلك من اعماله .

وفي سنة سبع واربعين توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمدان وكان عهده الى ملكشاه ابن اخيه السلطان محمود فخطب له الامير خاصبك بالسلطنة ورتّب الامور وقرّرها بين يديه . ثم قبض عليه وارسل الى اخيه الملك محمد وهو بخوزستان يستدعيه وكان قصده ان يحضر عنده فيقبضه ويخطب لنفسه بالسلطنة . فسار اليه محمد فأجلسه على التخت وخطب له بالسلطنة . ثم شعر محمد بنجبت خاصبك فتاني يوم وصوله لما دخل اليه قتله ومعه زنكي الجاندار والقي رأسيهما وبقياً حتى اكلتها الكلاب واستقرّ محمد في السلطنة . وفيها توفي حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين وميافارقين وكانت ولايته نيّفاً وثلاثين سنة وولي بعده ابنه نجم الدين البي .

وفي سنة ثمان واربعين وخمسمائة ملك الفرنج بالشام مدينة عسقلان وكانت من جملة مملكة العلويين المصريين . وفي سنة تسع واربعين في المحرم قُتل الظافر بن الحافظ العلوي صاحب مصر وولي ابنه الفائز بنصر الله ثاني يوم قُتل ابوه وله من العمر خمس سنين فحمله الوزير عبّاس على كتفه واجلسه على التخت سرير^٢ الملك . وفيها في صفر ملك نور الدين محمود بن زنكي بن اقسنقر مدينة دمشق واخذها من صاحبها محير الدين ابق بن محمد بن بوري^٣ بن طغديكين اتابك . وفي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة في رجب كان بالشام زلازل كثيرة قويّة حرّبت كثيراً من البلاد فخرّب منها حصص وحماة وشيّر وكفرطاب والمعرة وافامية وحصن الاكراد وعيرفة واللاذقية وطرابلس وانطاكية . واما كثرة القتلى فيكنفي فيها ان معلماً كان بمدينة حماة وذكر انه فارق المكتب لهم^٤ عرض له فجاءت الزلزلة فخرّبت البلد وسقط المكتب على الصبيان جميعهم . (قال المعلم) فلم يأت احد يسأل عن صبي^٥ كان له .

١ - عزاز (وربما قبلت الالف في اولها) بليدة فيها قلعة شمالي حلب بينها يوم واحد .

٢ - عل التخت سرير ر على سرير .

٣ - بوري ر بوزى س حهوب

وفيهما في ربيع الأوّل توفي السلطان سنجر بن ملكشاه بن الب ارسلان اصابه قولنج ثم بعده اسهال^١ . وفي سنة اربع وخسين ثامن ربيع الآخر كثرت الزيادة في دجلة وخرج القورج فوق بغداد فامتلات الصحارى وخذق البلد ووقع بعض السور فغرق بعض القطيعة وباب الازج والمأمونية ودب الماء تحت الارض الى اماكن فوقعت وأخذ الناس يعبرون الى الجانب الغربي فبلغت المعبرة عدّة دنائير ولم يكن يقدر عليها . ثم نقص الماء فكثر الخراب وبقيت المحال لا تُعرف وانما هي تلول فأخذ الناس حلود دورهم بالتخمين . وفيها في ذي الحجة تُوفّي السلطان محمد بن محمود بن محمد ابن ملكشاه وملك عمه سليمان شاه بن محمد . وفي سنة خمس وخمسين وخمسة ثاني ربيع الأوّل تُوفّي الخليفة المقتفي لامر الله وكانت خلافته اربعاً وعشرين سنة وعمره ستاً وستين سنة . وهو أوّل من استبدّ بالعراق منفرداً عن سلطان وحكم على عسكره واصحابه من حين تحكّم الماليك على الخلفاء ومن عهد المستنصر^٢ الى الآن .

• • •

كان في وسط المائة السادسة من الاطباء المشار اليهم في الآفاق ثلاثة افاضل معاً من ثلث ملل كل منهم هبة الله اسماً ومعنى من النصارى واليهود والمسلمين هبة الله ابن صاعد بن التلميذ وهبة الله بن ملكا ابو البركات اوجد الزمان وهبة الله بن الحسين الاصفهاني . اما ابن التلميذ الطبيب النصراني البغدادي ففاضل زمانه وعالم اوانه خدم الخلفاء من بني العباس وتقدّم في خدمتهم وارتفعت مكانته لديهم وكان موفقاً في المباشرة والمعالجة عالماً بقوانين هذه الصناعة عمّر طويلاً وعاش نبيلاً جليلاً وكان شيخاً بهي المنظر حسن الرّواء عذب المجتبي والمجتبي لطيف الروح ظريف الشخص بعيد الهمّ عالي الهمّة ذكي الخاطر مصيب الفكر حازم الرأي . وله في نظم الشعر كلمات راقية رائقة شافية شائقة تعرب عن لطافة طبعه . ومن شعره :

كانت بلهنيّة الشيبية سكرة^١ فصحوت واستأنفت سيرة مجمل
وقعدت ارتقب الفناء كراكب^٢ عرف المحلّ فبات دون المنزل

وكان ابو الحسن بن التلميذ يحضر عند المقتفي كل اسبوع مرّة فيجلسه لكبر سنّه . وتُوفّي في صفر سنة ستين وخمسة وقد قارب المائة وذهنه بحاله . وسأله ابنه قبل ان

١ - كان مولده سنة تسع وسبعين واربعمائة وخطب له على اكثر منابر الاسلام بالسلطنة نحو اربعين سنة وكان قبلها يخاطب بالملك العشرين سنة .

٢ - كذا في الاصل . ولعل الصواب المتنصر .

يموت بساعة: ما تشتهي . قال: ان اشتهي . واما هبة الله بن ملكا ابو البركات اليهودي في اكثر عمره المسلم في آخر امره فكان طيباً فاضلاً عالماً بعلوم الاوائل وكان حسن العبارة لطيف الاشارة صنّف كتاباً سمّاه المعبر أخلاه من النوع الرياضي وأتى فيه بالمنطق والطبيعي والالهي فجاءت عبارته فصيحة ومقاصده في ذلك الطريق صحيحة . ولما مرض احد السلاطين السلجوقية استدعاه من بغداد فتوجه نحوه ولاطفه الى ان برأ وأعطاه العطايا الجمّة من الاموال والمراكب والملابس والتحف وعاد الى العراق على غاية ما يكون من التجميل والغنى . وسمع ان ابن افلح قد هجاه بقوله :

لنا طيب يهودي حماقته اذا تكلم تبدو فيه من فيه
يتيه والكلب اعلى منه منزلة كأنه بعد لم يخرج من التيه

ولما سمع ذلك علم انه لا يبجل بالنعمة التي انعمت عليه الا بالاسلام فقوي عزمه على ذلك . وتحقق ان له بنات كباراً وانهن لا يدخلن معه في الاسلام وانه متى مات لا يرثنه ففزع الى الخليفة في الانعام عليهن من مال يخلفه وان كن على دينهن فوقع له بذلك . ولما تحققت اظهر اسلامه وجلس للتعليم والمعالجة ولم يزل سعيداً الى ان قلب له الدهر ظهر المحزن . ووضع من شأنه بعد ان اسن . فادركته اعلال قصر عن معاناتها طبه . واستولت عليه الآلام ممّا لم يطق حملها جسمه ولا قلبه . وذلك انه عمي وطرش وبرص وجذم . فعوذ بالله من استحالة الاحوال وضيق المحال وسوء المال . ولما احس بالموت اوصى الى من يتولاه ان يكتب على قبره ما مثاله: هذا قبر اوجد الزمان ابي البركات ذي العبر صاحب المعبر . وفي كبر ابي البركات اوجد الزمان فتواضع امين الدولة بن التلميذ يقول البديع هبة الله الاضطرابي .

ابو الحسن الطيب ومقتفيه ابو البركات في طرفي نقيض
فذاك من التواضع في الثريا وهذا بالتكبر في الحضيض

واما هبة الله بن الحسين بن علي الحكيم الطيب الاصفهاني فكان من محاسن الدهر وافاضل العصر وفيه قيل ان عند طبه لا يشتري بقراط بقيراط ولا يستقيم سقراط على الصراط ولحق حق ابن بطلان بالبطلان . وتوفي سنة نيف وثلثين وخمسة بسكتة اصابته ودفن في سرداب داره وهو مسكت فلما فتح بابه بعد اشهر لينقل وجد جالساً عند الدرجة وهو ميت . وله شعر حلو منه ما قاله يصف حمّاماً في دار صديق له :

ودخلت جنّته وزرت جحيمه وشكرت رضواناً ورافة مالك
والبشر في وجه الغلام نتيجةً لمقدمات ضياء وجه المالك

وفي الايام المقتنية دخل ابو الحكم المغربي الاندلسي الحكيم المرسي^١ العراق وهو مجهول لا يُعرف ورأى في بعض تطوافه بأزقة بغداد رجلاً جالساً على باب دار يشعر بالرتاسة لساكنها وبين يديه شاب يقرأ عليه شيئاً من كتاب اوقليدس فقرب منها ابو الحكم^٢ ليسمع فاذا المعلم يهذي ما لا يعلم فردّ عليه خطاه وبين غلظه . وعلم الشاب الحقيقة في الرد فاستوقف ابا الحكم الى ان يعود ودخل الدار وخرج يستدعي ابا الحكم دون المعلم فدخل الى دار سرية فلقى والد الشاب وهو احد امراء الدولة فأحسن ملتقاه ثم سأله ملازمة ولده فأجاب . فاشتهر ذكر ابي الحكم فتطلبه الطلبة وارفع قدره . وكان كثير الهزل والمزاح . شديد الحجون والارتياح . ثم كره العراق وفارق على نية قصد المغرب . فلما حلّ بظاهر دمشق سير غلاماً له ليبتاع منها ما يأكلانه في يومها واصحبه نزرأً يكتفي رجلين . فعاد الغلام ومعه شواء وفاكهة وحلواء وفُقّاع وثلج . فنظر ابو الحكم الى ما جاء به وقال له عند استكثاره : أوجدت احداً من معارفنا . فقال : لا وانما ابعت هذا بما كان معي وبقيت منه هذه البقية . فقال ابو الحكم : هذا بلد لا يحلّ لذي عقل ان يتعدّاه . ودخل وارتاب منزلاً وسكنه وفتح دكان عطار يبيع به العطر ويطبّ وأقام على ذلك الى ان اتى اجله .

(المستنجد بن المقتني) لما اشتدّ مرض المقتني وكان وليّ عهده ابنه يوسف وكانت للمقتني حظية هي أمّ ولده ابي عليّ فأزادت الخلافة لابنها وأحضرت عدّة من الجوّاري واعطتهنّ السكاكين وأمرتهنّ بقتل وليّ العهد يوسف اذا دخل على والده . وكان ليوسف خصي صغير يرسله كل وقت يتعرّف اخبار والده فرأى الجوّاري بايديهنّ السكاكين فعاد الى يوسف وأخبره فاستدعى استاذ الدار وأخذه معه وجماعة من الفرّاشين ودخل الدار وقد لبس الدرع وأخذ بيده السيف . فلما دخل ثار به الجوّاري فضرب واحدة منهنّ فجرحها وكذلك اخرى وصاح فدخل استاذ الدار ومعه الفرّاشون فهرب الجوّاري وأخذ أخاه ابا عليّ وأمّه فسجنهما وأخذ الجوّاري وقتل منهنّ وغرق منهنّ . فلما توفّي المقتني جلس يوسف ابنه للبيعة فبويع له ولقب المستنجد بالله وحُطّب له في ربيع الآل سنة خمس وخمسين وخمسمائة .

١ - المرسي و الموسي . وروى ابن ابي أصيبعة « المرسي » .

٢ - الحكم و هنا في ما بعد « الحلم » .

وفي سنة ست وخمسين في صفر توفّي الفائز عيسى بن الظافر اسمعيل صاحب مصر وكانت خلافته ست سنين وولي الامر بعده بمصر عبد الله بن يوسف بن الحافظ ولقب العاضد لدين الله وهو آخر الخلفاء العلويين بالديار المصرية . وفي سنة تسع وخمسين وخمسمائة هرب شاوُر وزير العاضد صاحب مصر من ضرغام الذي نازعه في الوزارة الى الشام ملتجئاً الى نور الدين ومستجيراً به وطلب منه ارسال العساكر معه الى مصر ليعود الى منصبه ويكون له ثلث دخل البلاد . فتقدّم نور الدين بتجهيز الجيوش وقدم عليها اسد الدين شيركوه فتنجهز وساروا جميعاً وشاوُر في صحبتهم ووصل اسد الدين والعساكر الى مدينة بلبليس . فخرج اليهم اخو ضرغام بعسكر المصريين ولقيهم فانهزم . وخرج ضرغام من القاهرة فقتل وقتل اخوه ايضاً . وخلع على شاوُر وأعيد الى الوزارة . وأقام اسد الدين بظاهر القاهرة فغدر به شاوُر وصاد عمّاً كان قرره لنور الدين وارسل الى الفرنج يستمدّهم فسارعوا الى تلبية دعوته ونصرته وتجهزوا وساروا . فلما قارب الفرنج مصر فارقتها اسد الدين وقصد مدينة بلبليس وجعلها ظهراً يتحصن به فحصره بها العساكر المصرية والفرنج ثلاثة اشهر وهو يغاديهم القتال ويراهم فلم يبلغوا منه غرضاً . فراسل الفرنج اسد الدين في الصلح والعود الى الشام فاجابهم الى ذلك وصار الى الشام .

وفي سنة ثلث وستين وخمسمائة فارق زين الدين عليّ بن سبكتكين النائب عن قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل خدمة صاحبه بالموصل وسار الى اربيل وكان هو الحاكم في الدولة واكثر البلاد بيده . فلما عزم على مفارقة الموصل الى بيته باربل سلّم جميع ما كان بيده من البلاد الى قطب الدين مودود وبقي معه اربل حسب . وكان شجاعاً عادلاً حسن السيرة سليم القلب كثير العطاء للجند وغيرهم مدحه الحينص بيّنص بقصيدة فلما اراد ان ينشده قال : انا لا اعرف ما تقول ولكني اعلم انك تريد شيئاً . وأمر له بخمسمائة دينار وفرس وخلعة سنينة وثياب مجموع ذلك الف دينار ولم يزل باربل الى ان مات بها هذه السنة .

وفي سنة اربع وستين وخمسمائة ملك نور الدين قلعة جعير . وملك اسد الدين شيركوه مصر وقتل شاوُر الوزير . ولما ثبت قدم اسد الدين وظن ان لم يبق له منازع اتاه اجله فتوفّي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة وكانت ولايته شهرين . واما ابتداء امره فانه كان هو واخوه نجم الدين ايوب ابنا شاذي من بلد دوين ا

واصلها من الاكراد الروادية^١ فقلما العراق وخلصا مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد . فرأى من نجم الدين ايوب عقلاً ورأياً وكان اكبر من شيركوه فجعله مستحفظاً لقلعة تكريت . فسار اليها ومعه اخوه شيركوه . ثم ان شيركوه قتل كاتباً نصرانياً بتكريت لملاحاة جرت بينهما فاخرجها بهروز من قلعة تكريت فسار الى زنكي . ولما ملك بعلبك جعل ايوب مستحفظاً لها فلما قُتِل زنكي وتسلمَّ عسكر دمشق بعلبك صار هو اكبر الامراء بدمشق واتصل اخوه شيركوه بنور الدين فاقطعه حمص والرحبة وجعله مقدم عسكره . فلما اراد ان يرسل العسكر الى مصر لم يرَ هناك من يصلح لهذا الامر العظيم والمقام الخطير غيره فأرسله فلحها .

ولما توفي اسد الدين شيركوه طلب جماعة من الامراء النورية ولاية الوزارة للعاضد العلوي صاحب مصر فارسل العاضد الى صلاح الدين بن ايوب بن شاذي احضره عنده وخلع عليه وولاه الوزارة بعد عمه ولقبه الملك الناصر وكان اسمه يوسف . فكان الذي حمله على ذلك ان اصحابه قالوا له : ليس في الجماعة اضعف ولا اصغر سناً من يوسف فاذا ولي لا يرفع علينا رأساً مثل غيره . فثبت قدم صلاح الدين ومع هذا فهو نائب عن نور الدين وكان نور الدين يكتابه بالامير الاسفهلار ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيماً عن ان يكتب اسمه وكان لا يفرد بكتاب بل يكتبه : الامير الاسفهلار صلاح الدين وكافة^٢ الامراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا . واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل الاموال قالوا اليه واحبوه وضعف امر العاضد . ثم ارسل صلاح الدين يطلب من نور الدين ان يرسل اليه اخوته واهله فأرسلهم اليه وشرط عليهم طاعته .

وفي سنة خمس وستين وخمسمائة في شوال مات قطب الدين مودود بن زنكي ابن اقسنقر صاحب الموصل^٣ . ولما اشتد مرضه اوصى بالملك بعده لابنه الاكبر عماد الدين زنكي ثم عدل عنه الى ابنه الآخر وهو سيف الدين غازي وانما فعل ذلك لان القيم بامور دولته كان خادماً له يقال له فخر الدين عبد المسيح وكان يكره عماد الدين لانه كان طوع عمه نور الدين وكان نور الدين يبغض عبد المسيح فاتفق عبد المسيح وخاتون ابنة حسام الدين تمرشاش بن ايلغازي وهي والدة سيف الدين عليّ صرف الملك

١ - الروادية و الروادية .

٢ - وكافة و وكان .

٣ - توفي قطب الدين وعمه نحو اربعين سنة وكان ملكه احدى وعشرين سنة وخمسة اشهر ونصف شهر .

عن عماد الدين الى سيف الدين . ورحل عماد الدين الى عمه نور الدين مستنصراً به ليعينه على اخذ الملك لنفسه .

وفي سنة ست وستين وخمسمائة تاسع ربيع الآخر توفّي الامام المستنجد بالله ابو المظفر يوسف بن المقتضي وكانت خلافته احدى عشرة سنة وعمره ستاً وخسين سنة . وكان من احسن الخلفاء سيرةً مع الرعية عادلاً قبض على انسان كان يسعى بالناس فاطال حبسه فشفع فيه بعض اصحابه المختصين بخدمته وبذل عنه عشرة آلاف دينار . فقال : انا اعطيتك عشرة آلاف دينار وتحضر لي انساناً آخر مثله احبسه فأكفّ شره عن الناس . ولم يطلقه . وكان سبب موته انه كتب الى وزيره مع طبيبه ابن صفية يأمره بالقبض على استاذ الدار وقطب الدين قايماز وصلبها وكان قد اشتد مرضه . فاجتمع الطبيب بهما ووقفهما على الخط . فقالا له : عد اليه وقل له : انني اوصلت الخط الى الوزير وفعل ذلك . ثم دخل المذكوران على المستنجد ومعها اصحابهما فحملوه وهو يستغيث الى الحمام وألقوه واغلاقوا الباب عليه وهو يصيح الى ان مات .

(المستضي بن المستنجد) ولما اظهروا موت المستنجد أحضر ابنه ابو محمد الحسن وبايعه اهل بيته البيعة الخاصة يوم توفّي ابيه اي تاسع ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة وبايعه الناس من الغد في التاج بيعة عامة ولقب المستضي بامر الله وأظهر من العدل اضعاف ما عمل ابوه وفرق اموالاً جليلة المقدار . ولما بلغ نور الدين محمود ابن زنكي وفاة اخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل وملك ولده سيف الدين غازي الموصل وتحكم فخر الدين عبد المسيح عليه انف لذلك وسار بجريدة في قلعة من العسكر وعبر الفرات عند قلعة جعبر وملك الرقة والخابور ونصيبين وحاصر سنجار وملكها وسلمها الى عماد الدين ابن اخيه وأتى مدينة بلكد وعبر دجلة عندها مخاضة الى الجانب الشرقي ونزل على حصن نينوى . ومن العجب انه يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة فأرسل فخر الدين عبد المسيح الى نور الدين في تسليم البلد اليه على ان يقره بيد سيف الدين ويطلب لنفسه الامان وماله واهله فاجيب الى ذلك وشرط ان فخر الدين يأخذه معه الى الشام ويعطيه عنده اقطاعاً مرضية . فسلم البلد ودخل القلعة وأمر بعارة الجامع النوري وسلم الموصل الى سيف الدين وسنجار لعهاد الدين وعاد الى الشام واستصحب معه فخر الدين عبد المسيح وكان مقامه بالموصل اربعة وعشرين

١ - بلد وربما قيل لها بلط واسمها بالفارسية شهراباذ مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل بينها سبعة فراسخ وبينها وبين نصيبين ثلاثة وعشرون فرسخاً .

يوماً . وفي سنة سبع وستين وخمسة لما ثبت قدم صلاح الدين بمصر وضعف امر الخليفة العاضد بها وصار قصره يحكم فيه صلاح الدين وثابه قراقوش وهو خصي من اعيان الامراء الاسديّة كلهم يرجعون اليه عزم على قطع خطبة العاضد وكان يخاف المصريين . وكان قد دخل الى مصر رجل اعمى^١ يُعرف بالامير العالم فلما رأى ما هو فيه من الاحجام وان احدأ لا يتجاسر بخطب للعباسيين قال : انا ابتدئ بالخطبة للمستضي . فلما كان أوّل جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضي فلم ينكر احد ذلك فقطع الخطباء كلهم بمصر خطبة العاضد وخطبوا للمستضي ولم ينتطح فيها عنزان . وتوفّي العاضد يوم عاشوراء ولم يعلموه بقطع خطبته .

وفيهما عبر الخطا^٢ نهر جيحون يريدون خوارزم . فسار صاحبها خوارزم شاه ارسلان بن اقسز^٣ في عساكره الى أموية^٤ ليقاتلهم ويصدّهم فرض فأقام بها وسير جيشه مع امير كبير اليهم فلقبهم فانهم الخوارزميون واسر مقدّمهم ورجع به الخطا الى ما وراء النهر . وعاد خوارزم شاه الى خوارزم مريضاً وتوفّي بها وملك بعده ابنه سلطان شاه محمود . وكان ابنه الاكبر علاء الدين تكش مقبلاً في جند^٥ فقصده ملك الخطا واستمدّه على اخيه فسير معه جيشاً كبيراً مقدّمهم فوما^٦ وساروا حتى قاربوا خوارزم فخرج سلطان شاه منها ومعه امته وقصد خراسان وملك تكش خوارزم . وفي سنة تسع وستين وخمسة توفي نور الدين محمود بن زنكي بن اقسقر صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر يوم الاربعاء حادي عشر شوّال^٧ ولم يكن في سير

١ - يروى في الكامل « اعجمي » بدل اعمى ولعلها الصواب .

٢ - الخطا ويروى الخطاي قوم من التتر الشرقيين تملكوا بلاد الصين الشمالية وجزءاً من بلاد التتر . ثم ان الصينيين استنصروا التتر الساكنين في شمالي كوريا والمسمن (نيوتشي) وهم اجداد (المنشوشو) على الخطا . فنصروهم وغصبوا الملك وكانت منهم الأسرة الملكية المعروفة بأل كين اي آل الذهب . فانقل قسم عظيم من الخطا نحو الغرب واستوطنوا بلاد كاشغر وهي التي تسمى قرا خطا ومعنى قرا الاسود .

٣ - اقسز واقسيس هو اللفظ الذي ادرجته العامة على اسم اتسر واصله في التركية ادسر ومعناه غير مسمى .

٤ - أموية وتسمى ايضاً أمو وآمل مدينة مشهورة في غربي جيحون على طريق القاصد الى بخارا من مرو . ويقابلها في شرقي جيحون فربر وبينها وبين شاطي . جيحون نحو ميل ويقال لهذه آمل زم وآمل جيحون وآمل الشط وآمل المغاظة لان بينها وبين مرو رمالاً صعبة المسلك ومفاظة اشبه بالمهلك . وبين آمل هذه وبخارا سبعة عشر فرسخاً . وبخارا في شرقي جيحون .

٥ - جند مدينة عظيمة في بلاد تركستان بينها وبين خوارزم عشرة ايام تلقاه بلاد الترك من مسا وراء النهر قريب من نهر سيحون .

٦ - ويروى قوما . وروى ابن الاثير قرما . وفيها لفظة صينية معناها صهر .

٧ - كان مولده سنة احدى عشرة وخمسة .

المملوك أحسن من سيرته ولا أكثر تحريماً للعدل منه وكان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف في الذي يخصه الا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة. ولقد شكت اليه زوجته من الضائفة فأعطاها ثلاثة دكاكين في حمص كانت له يحصل منها في السنة نحو العشرين ديناراً. فلما استقلتها قال: ليس لي الا هذا وجميع ما بيدي انا فيه خازن للمسلمين لا اخونهم فيه ولا اخوض نار جهنم لاجلك. ولما مات ملك بعده ابنه الملك الصالح اسمعيل وكان عمره احدى عشرة سنة وأطاعه الناس بالشام وصلاح الدين بمصر وخطب له بها وضرب السكة باسمه. وفي سنة سبعين وخمسمائة لما ملك سيف الدين غازي الديار الجزرية خاف الامراء الذين في دمشق وحلب لثلاثا يعبر اليهم سيف الدين فسيروا الملك الصالح ومعه العساكر الى حلب ليصد سيف الدين عن العبور الى الشام. فلما خلت دمشق عن السلطان والعساكر سار اليها صلاح الدين فملكها وملك بعدها حمص وحماة وبعلبك وسار الى حلب فحصرها. فركب الملك الصالح وهو صبي عمره اثنتا عشرة سنة وجمع اهل حلب وقال لهم: قد عرقت احسان ابي اليكم ومحبتة لكم وسيرته فيكم وانا يتيمكم وقد جاء هذا الظالم الجاحد احسان والدي اليه يأخذ بلدي ولا يراقب الله ولا الخلق. وقال من هذا كثيراً وبكى فأبكى الناس واتفقوا على القتال دونه فكانوا يخرجون ويقاتلون صلاح الدين عند جبل جوشن^١ ولا يقدر على القرب من البلد فرحل عنه. وفيها ملك البهلوان مدينة تبريز. وفي سنة احدى وسبعين ملك صلاح الدين قلعة عزاز ونازل حلب وبها الملك الصالح وقد قام العامة في حفظ البلد المقام المرضي وترددت الرسل بينهم في الصلح فوقعت الاجابة اليه من الجانبين ورحل صلاح الدين عن حلب بعد ان اعاد قلعة عزاز الى الملك الصالح فانه اخرج الى صلاح الدين اختاً له صغيرة طفلة. فاکرمها صلاح الدين وقال لها: ما تريدين. قالت: اريد قلعة عزاز. وكانوا قد علموها ذلك. فسلّمها اليهم ورحل. وفي سنة ثلث وسبعين قتل عضد الدين وزير الخليفة المستضي ووزر ظهير الدين المعروف بابن العطار وكان خيراً حسن السيرة كثير العطاء وتمكن تمكناً كثيراً.

وفي سنة خمس وسبعين وخمسمائة ثاني ذي القعدة توفي الامام المستضي بأمر الله وكانت خلافته نحو تسع سنين وعمره تسع وثلثون سنة وكان عادلاً حسن السيرة في الرعية قليل المعاقبة على الذنوب محباً للعفو فعاش حميداً ومات سعيداً.

١ - جوشن بالجيم المعجمة جبل مطل على حلب في غربها ومنه كان يحمل النحاس الاحمر وهو معدنه.

وكان في هذا الزمان من الحكماء المشهورين بالمشرق السموعل بن ايهوذا المغربي الاندلسي الحكيم اليهودي قدم هو وابوه الى المشرق وكان ابوه يشدو شيئاً من الحكمة وكان ولده السموعل قد قرأ فنون الحكمة وقام بالعلوم الرياضية وأحكم اصولها وفوائدها ونوادرها وله في ذلك مصنفات وصنّف كتباً في الطب وارتحل الى اخربيجان وخدم بيت بهلوان وامراء دولتهم وأقام بمدينة مراغة وأولد اولاداً هناك سلكوا طريقته في الطب ثم أسلم وصنّف كتاباً في اظهار معايب اليهود ومواضع الدليل على تبديلهم التوراة ومات بالمراغة قريباً من سنة سبعين وخمسمائة . وكان في هذا الاوان ايضاً الرحبي الطبيب نزيل دمشق من اهل الرحبة اصله كان من الرحبة حسن المعالجة لطيف المباشرة نزه النفس يعاني التجارة ورزق بها مالاً جماً واولاداً مرضيّي الطريقة لهم اشتغال جيد في هذا الفن وكان كثير التمتع حسن المركب والملبس والمأكل والمنزل يلزم في اموره قوانين حفظ الصحة الموجودة . وقيل له : ما ثمره هذا . قال : ان يعيش الانسان العمر الطبيعي . فقيل له : انت قد بلغت من السن ما لم يبق بينك وبين العمر الطبيعي الا القليل فأبي حاجة الى هذا التكلّف . فقال : لأبقى ذلك القليل فوق الارض واستنشق الهواء واتجرع الماء ولا اكون تحت التراب بسوء التدبير . ولم يزل على حالته الى ان أتاه أجله في اوائل سنة اثنتين وثلثين وستمائة وخلف ثلثة بنين اثنان منهم طبيبان فاضلان وسيأتي ذكرهما . قال الرحبي هذا : استدعاني نور الدين محمود في مرضه الذي توفّي فيه مع غيري من الاطباء فدخلنا اليه وهو في بيت صغير بقلعة دمشق وقد تمكّنت منه الخوانيق وقارب الهلاك فلا يكاد يُسمع صوته وكان يخلو فيه للتعبّد فابتدأ به المرض فلم ينتقل عنه . فلما دخلنا ورأينا ما به قلتُ له : كان ينبغي ان لا تؤخّر احضارنا الى ان يشتدّ بك المرض . الآن ينبغي ان تعجل الانتقال من هذا الموضع الى مكان فسيح مضيّ فله اثر في هذا المرض . وشرعنا في علاجه واشرنا بالفصد فقال : ابن ستين سنة لا يفصد . وامتنع عنه فعالجناه بغيره فلم ينجح فيه الدواء .

(الناصر بن المستضي) : ولما مات المستضيّ قام ظهير الدين ابن العطار في أخذ البيعة لولده الناصر لدين الله ابي العباس احمد . فلما تمّت البيعة صار الحاكم في الدولة مجد الدين ابو الفضل بن الصاحب . وفي سابع ذي القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة قبض على ابن العطار ووكّل عليه في داره ثم نقل الى التاج وقيّد وطُلبت ودائعته وامواله ثم أخرج ميتاً على رأس خمال سراً فغمز به بعض العامة فتثار به العامة فألقوه عن رأس

الحمال وكشفوا سوءته وشدوا في ذكره جبلاً ومحبوه في البلد وكانوا يضعون يده مغرقة ويقولون: وقع لنا يا مولانا . الى غير ذلك من الافعال الشنيعة . ثم خلتص من ايديهم ودُفن . هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم وكفته عن اموالهم واعراضهم . وفي سنة ست وسبعين ثالث صفر تُوْفِّي سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الموصل^١ وولي اخوه عز الدين الموصل واعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده معز الدين سنجرشاه^٢ واعطى قلعة شوش^٣ وبلد الحميدية لابنه الصغير ناصر الدين كبك^٤ وكان المدبر للدولة عز الدين مجاهد الدين قهياز واستقرت الامور ولم يختلف اثنان .

وفيها تُوْفِّي شمس الدولة تورانشاه بن ايوب اخو صلاح الدين الاكبر بالاسكندرية . وفي سنة سبع وسبعين في رجب تُوْفِّي الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين محمود صاحب حلب بها وعمره نحو تسع عشرة سنة . فلما ايس من نفسه احضر الامراء ووصاهم بتسليم البلد الى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي فتسلم حلب ثم سلمها لاخيه عماد الدين واخذ عوضاً عنها مدينة سنجار . وفي سنة ثمانين وسبعين سير صلاح الدين اخاه سيف الاسلام طغتكين الى اليمن فتملكها وتغلب عليها . وفيها عبر صلاح الدين الفرات الى الديار الجزرية وملك الرها وحران والرقّة وقرقيسياه وماكسين^٥ وعربان^٦ ونصيبين وسار الى الموصل وبها عز الدين صاحبها ونائبه مجاهد الدين قد جمعها العساكر الكثيرة من فارس وراجل واطهرها من السلاح وآلات الحصار ما حارت له الابصار . فلما قرب صلاح الدين من البلد رأى ما هاله وملأ صدره وصدور اصحابه ومع هذا نزل عليها وانشب القتال . وخرج اليه يوماً بعض العامة فنال منه واخذ لالكة من رحله فيها المسامير الكثيرة ورمى بها اميراً يقال له جاولي الاسدي وهو مقدم الاسديّة وكبيرهم فأصاب صدره فوجد لذلك ألماً شديداً وأخذ اللالكة وعاد عن القتال الى صلاح الدين وقال: قد قابلنا اهل الموصل بجماقات ما رأينا مثلها بعد .

١ - وكان عمره حينئذ نحو ثلاثين سنة وكانت ولايته عشر سنين وثلاثة اشهر .

٢ - كان اراد سيف الدين ان يعهد بالملك لابنه معز الدين سنجرشاه وكان عمره حينئذ اثني عشرة سنة فخاف على الدولة من ذلك لان صلاح الدين يوسف بن ايوب كان قد تمكن بالشام وقوي امره .

٣ - هي قلعة عظيمة عالية جداً قرب عقر الحميدية من اعمال الموصل . قيل هي اعل من العقر واكبر ولكنها في القدر دونها .

٤ - يروى في الكامل كسك بدل كبك .

٥ - مدينة بالجزيرة .

٦ - عربان ببلدة بالخابور من ارض الجزيرة .

وألقى اللالكة وحلف انه لا يعود يقاتل عليها انفة^١ حيث ضرب بها. فلما رأى صلاح الدين انه لا ينال من الموصل غرضاً ولا يحصل على غير العناء والتعب سار عنها الى سنجار وملكها. وفي سنة تسع وسبعين ملك صلاح الدين مدينة آمد وسلمها الى نور الدين محمد بن قرا ارسلان صاحب الحصن وكان صلاح الدين قد نزل بجززم^٢ وطمع ان يملك ماردين فلم يرَ لطمعه وحماً فسار عنها الى آمد على طريق البارعية. وفيها سار صلاح الدين الى حلب فزل بجبل جوشن وأظهر انه يريد بيني مساكن له ولاصحابه وعساكره. فقال عماد الدين زنكي الى تسليم حلب واخذ العوض عنها فتمرر الصلح على ان يسلم حلب الى صلاح الدين ويأخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج. وجرت اليمين على ذلك فباعها باوكس الأمان أعطى حصناً مثل حلب وأخذ عوضها قرى ومزارع فقبح الناس كلهم ما أتى.

وفي سنة ثمانين وخمسمائة مات قطب الدين بن ايلغازي بن نجم الدين البي بن تمرش ابن ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين وملك بعده ابنه حسام الدين يولق^٣ ارسلان وهو طفل وكان شاه ارمن صاحب خلاط خال قطب الدين فحكم في دولته بعد موته فرتب نظام الدين التمش^٤ مع ولده وقام بتربيته وتدبير مملكته وكان ديناً خيراً فاحسن تربية الولد وتزوج امه فلما كبر الولد لم يمكنه النظام من مملكته فخطب وهو ج كان فيه. ولم يزل الامر على ذلك الى ان مات الولد وله اخ أصغر منه لقبه قطب الدين فرتبه النظام في الملك وليس له منه الا الاسم والحكم الى النظام والى مملوك له اسمه لؤلؤ فبقي كذلك الى سنة احدى وستائة. فرض التمش النظام فاتاه قطب الدين يعوده فلما خرج من عنده خرج معه لؤلؤ فضربه قطب الدين بسكين معه فقتله. ثم دخل الى النظام فقتله ايضاً وخرج وحده ومعه غلام له وألقى الرأسين الى الاجناد فاذعنوا له بالطاعة واستولى على قلعة ماردين وقلعة البارعية والصور وحكم فيها وحزم في افعاله.

وفي سنة احدى وثمانين وخمسمائة حصر صلاح الدين الموصل مرة ثانية فسير اتابك عز الدين صاحبها والدته اليه ومعها ابنة عمه نور الدين محمود وغيرهما من النساء وجماعة من اعيان الدولة يطلبون المصالحة. وكُلُّ مَنْ عنده ظنوا انهن اذا طلبن منه الشام اجابهن الى ذلك لا سيما ومعهن ابنة مخدومه وولي نعمته نور الدين. فلما وصلن

١ - حرمز بليدة في واد ذات نهر جار وبساتين بين ماردين وديسر من اعمال الجزيرة.

٢ - يولق ر بولق س معص.

٣ - كذا في الاصل. والصواب البقش.

اليه انزلهن^١ واعتذر بأعذار غير مقبولة واعادهن^٢ خائبات^٣. فبذل العامة نفوسهم غيظاً وحقناً لردّة النساء. فقدم صلاح الدين على ردّ النساء وجاءته كتب القاضي الفاضل وغيره يقبّحون فعله وينكرونه. وكان عامّة الموصل يعبرون دجلة فيقاتلون من الجانب الشرقي من العسكر ويعودون. فزعم صلاح الدين على قطع دجلة عن الموصل الى ناحية نينوى ليعطش اهل الموصل فيملكها بغير قتال ثم علم انه لا يمكن قطعه بالكلية وان المدّة تطول والتعب يكثر فأعرض عنه ورحل الى ميفارقين لانه سمع ان شاه ارمن صاحب خلّاط توفي ولم يخلف ولداً وقد استولى على بلاده مملوك له اسمه بكتمر. فسير صلاح الدين في مقدمته ابن عمّه ناصر الدين محمد^٤ بن شيركوه ومظفر الدين بن زين الدين وغيرهما فساروا الى خلّاط فزولوا بطوّانة. وسار صلاح الدين الى ميفارقين وسار البهلوان بن ايلدكر صاحب اذربيجان قزلاً قريباً من خلّاط وتردّت رسل اهل بينهم وبين البهلوان وصلاح الدين. ثم انهم اصلحوا^٥ امرهم مع البهلوان وصاروا من حزبه وخطبوا له.

وفي سنة اثنتين وثمانين وخمسة توفّي البهلوان محمد بن ايلدكر صاحب بلاد الجليل والري واصفهان واذربيجان وارآن وملك بعده اخوه قزلاً وارسلان واسمه عثمان. وفي سنة ثلث وثمانين ملك صلاح الدين مدينة طبرية وقلعتها وسار عنها ونزل على عكة. ولما صمّ على الزحف الى البلد خرج الاعيان من اهلها اليه يطلبون الامان فاجابهم الى ذلك وامّتهم على نفوسهم واموالهم وخيرهم بين الاقامة والظعن فاختراروا الرحيل وساروا منها متفرقين وحملوا ما امكنهم من اموالهم وتركوا الباقي. على حاله. مسلم صلاح الدين البلد الى ولده الافضل وغنم المسلمون ما بقي ممّا لم يطق الفرنج حمله. وفيها ملك صلاح الدين قيسارية وحيفا وصفورية والشقيف والفولة ويافا وتبينين وصيدا وبيروت وجبيل وعسقلان. ولما فرغ صلاح الدين من امر هذه الاماكن سار الى البيت المقدس فلما نزل عليه المسلمون رأوا على سوره من الرجال ما هالم وبقي صلاح الدين خمسة ايام يطوف حول المدينة لينظر من اين يقاتل لانه في غاية الحصانة والامتناع فلم يجد عليه موضع قتال الا من جهة الشمال نحو باب عمود او كنيسة^٢ صهيون^٤ فانتقل الى هذه

١ - محمد و محمود.

٢ - اصلحوا و اصلحوا واصلحوا.

٣ - عمودا او كنيسة و عمودا وكنيسة.

٤ - ان في هذه العبارة غلطاً يبيّن ان كنيسة صهيون كانت في جهة الجنوب. قال العلامة الادريسي في ذكر

بيت المقدس « ولها من جهة الجنوب باب يسمى باب صهيون ومن جهة الشمال باب عمود الفراب ».

٥ - هذه و تلك.

الناحية في العشرين من رجب فزنها ونصب تلك الليلة المنجنقات ونصب الفرنج على سور البلد المنجنقات وتقاتل الفريقان اشد قتال كل منهما يرى ذلك ديناً وحتماً واجباً فلا يحتاج فيه الى باعث سلطاني بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون ويزجرون ولا ينزجرون . فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين ونحكم المنجنقات بالرمي المتدارك وتمكّن النقبّان من النقب ارسلوا باليان بن نيرزان صاحب الرملة الى صلاح الدين يطلب الامان . فابى السلطان وقال : لا افعل بكم الا كما فعلتم بالمسلمين حين ملكتموه سنة احدى وتسعين واربعمائة من القتل والسبي . فقال له باليان : ايها السلطان اعلم اننا في هذه المدينة في خلق كثير وانما يفترون عن القتال رجاء الامان . فاذا رأيت ان الموت لا بد منه فوالله لنتلن اولادنا ونساءنا ونحرق اموالنا ولا نترككم تغنمون منّا ديناراً ولا درهماً ولا تسبون وتأسرون رجلاً او امرأة . فاذا فرغنا من ذلك أخرجنا الصخرة والمسجد الاقصى ثم نقتل من عندنا من اسارى المسلمين وهم خمسة آلاف اسير ولا نترك لنا دابةً ولا حيواناً الا قتلناه ثم خرجنا اليكم كلنا وحينئذ لا يُقتل الرجل منّا حتى يقتل امثاله ونموت اعزّاء او نظفر كرماء فاستشار صلاح الدين اصحابه فأجمعوا على اجابتهم الى الامان وان لا يُخرجوا ويُحملوا على ركوب ما لا يدري عاقبة الامر فيه عن اي شيء ينجلي . فاجاب صلاح الدين حينئذ الى بدل الامان للفرنج واستقرّ ان يزن الرجل عشرة دنائير يستوي فيه الغني والفقير وتزن المرأة خمسة دنائير ويزن الطفل من الذكور والاناث دينارين فن ادّى ذلك الى اربعين يوماً فقد نجا والا صار مملوكاً . فبذل باليان عن الفقراء ثلثين الف دينار فأجيب الى ذلك وسلّمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب .

ولما فرغ صلاح الدين من امر بيت المقدس سار الى مدينة صور وقد خرج اليها المركيس وصار صاحبها وقد ساسها احسن سياسة . فقسم صلاح الدين القتال على العسكر كل جمع لهم وقت معلوم يقاتلون فيه بحيث يتصل القتال على اهل البلد على ان الموضع الذي يقاتلون فيه قريب المسافة تكفيه الجماعة اليسيرة من اهل البلد تحفظه وعليه الخنادق التي قد وصلت من البحر الى البحر فلا يكاد الطائر يطير عليها لان المدينة كالكف في البحر والساعد متصل بالبر والبحر في جانبي الساعد والقتال انما هو في الساعد فلذلك لم يتمكن منها صلاح الدين ورحل عنها . وكان للمسلمين خمس قطع من الشواني مقابل ميناء صور ليمنعوا من الخروج منه والدخول اليه فنازلتهم شواني الفرنج وقت السحر وضايقتهم وأوقعت بهم فقتلوا من ارادوا واخذوا الباقيين بمراكبهم وادخلوهم

ميناء صور والمسلمون من البرّ ينظرون اليهم . ورمى جماعة من المسلمين انفسهم من الشواني فمنهم من سبح ونجا منهم من غرق . وفي سنة اربع وثمانين فتح صلاح الدين جبلة واللاذقية وصهيون وشُعْر بَكاس ودر بساك وبغراس والكرك وصفد . وهادن صلاح الدين البرنس بيموندا^١ صاحب انطاكية وطرابلس ثمانية اشهر .

وفي سنة سبع وثمانين وصلت امداد الفرنج في البحر الى الفرنج النازلين على عكة^٢ يحاصرونها . وكان اول من وصل منهم فيليب ملك افرنسيس وهو من اشرف ملوكهم نسباً وان كان ملكه ليس بالكثير فقويت به نفوسهم اي الذين كانوا على عكة وبلجوا في قتال المسلمين الذين فيها . وكان صلاح الدين على شَقْرَعَم^٣ فكان يركب كل يوم ويقصد الفرنج ليشغلهم بالقتال على مزاحفة البلد وكان فيه الامير سيف الدين الهكاري المعروف بالمشطوب فلما رأى ان صلاح الدين لا يقدر لهم على نفع ولا يدفع عنهم ضرراً خرج الى الفرنج وقرّر معهم تسليم البلد وخروج مَنْ فيه باموالهم وبذل لهم عن ذلك مائتي الف دينار وخمسةائة أسير من المعروفين واعادة صليب الصليبوت^٤ واربعة عشر الف دينار للمركيس صاحب صور فاجابوه الى ذلك وان تكون مدة تحصيل المال والاسراء الى شهرين . فلما حلفوا له سلّم البلد اليهم فدخله الفرنج سلماً واحتاطوا على مَنْ فيه من المسلمين وعلى اموالهم وجبسوهم الى حين ما يصل اليهم ما بذل لهم وراسلوا صلاح الدين في ارسال المال والاسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم . فشرعوا في جمع المال وكان هو لا مال له انما يخرج ما يصل اليه من دخل البلاد اولاً باول فلما اجتمع عنده من المال مائة الف دينار اشار الامراء بان لا يرسل شيئاً حتى يعاود يستحلفهم على الاطلاق من اصحابه . فقال ملوك الفرنج : نحن لا نحلف انما ترسل الينا المائة الالف ديناراً التي حصلت والاسارى والصليب ونحن نطلق من اصحابكم من نريد ونترك من نريد حتى يجي باقي المال فنطلق الباقي منهم . فلم يجبههم^٥ السلطان الى ذلك . فلما كان يوم الثلاثاء السابع والعشرون من رجب ركب الفرنج وخرجوا ظاهر البلد بالفارس والراجل وركب المسلمون اليهم وحملوا عليهم فانكشفوا عن موقفهم واذا اكثر من كان عندهم من المسلمين قتلى قد وضعوا فيهم السيف وقتلوهم واستبقوا الامراء ومن كان له مال وقتلوا مَنْ سواهم من سوادهم واصحابهم ومن لا مال له . فلما رأى صلاح الدين ذلك رحل الى

١ - بيموندا ر فيموند .

٢ - الصليبوت ر المصلوب .

٣ - فلم يجبههم ر فاجابهم .

ناحية عسقلان واخرها . وفي سنة ثمان وثمانين رحل الفرنج نحو عسقلان وشرعوا في عمارتها . وفيها عُدَّت الهدنة بين صلاح الدين والانتكثار ملك الفرنج لمدة ثلاث سنين وثمانية اشهر اوّلها يوم اوّل ايلول .

وفيها منتصف شعبان تُوْفِّي السلطان قلعج ارسلان بن مسعود بن قلعج ارسلان ابن سليمان بن قتلميش بن سلجوق بمدينة قونية^١ وكان ذا سياسة حسنة وهيبة عظيمة وعدلٍ وافر وغزوات كثيرة الى بلاد الروم . فلما كبر فرّق بلاده على اولاده فاستضعفوه ولم يلتفتوا اليه وحجر عليه ولده قطب الدين . ثم اخذه وثار به الى قيسارية لياخذها من اخيه فحصرها مدة فهرب منه ولده ودخل الى قيسارية . ولم يزل قلعج ارسلان يتحول من ولدٍ الى ولد وكل منهم يتبرّم به حتى مضى الى ولده غياث الدين كيخسرو فسار معه في عساكره الى قونية فلكنها وبها تُوْفِّي قلعج ارسلان وبني ولده غياث الدين في قونية مالكا لها حتى اخذها منه اخوه ركن الدين .

وفي سنة تسع وثمانين وخمسة تُوْفِّي صلاح الدين يوسف بن ايوب بن شاذي بدمشق وعمره سبع وخمسون سنة^٢ وكان حليماً كريماً حسن الاخلاق متواضعاً صبوراً على ما يكره كثير التغافل عن ذنوب اصحابه . وحكي انه كان يوماً جالساً وعنده جماعة فرمى بعض المالكين بعضاً بسرموزة فاحطأته ووصلت الى صلاح الدين فوقعت بالقرب منه . فالتفت الى الجهة الاخرى يكلم جلسه هناك ليتغافل عنها . وطلب مرّة الماء فلم يُحضّر فعاود الطلب في مجلس واحد خمس مرّات فلم يحضر فقال : يا اصحابنا والله قد قتلتني العطش . واما كرمه فانه كان كثير البذل لا يقف في شيء يخرجه . ويكني دليلاً على كرمه انه لما مات لم يخلف في خزانته غير دينار واحد صوري واربعين درهماً ناصرية . ولما تُوْفِّي صلاح الدين ملك بعده ولده الاكبر الافضل نور الدين دمشق والساحل والبيت المقدس وبلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين الى الداروم . وكان ولده الملك العزيز عثمان بمصر فاستولى عليها . وكان ولده الملك الظاهر غازي مجلب فلكنها واعمالها مثل حارم وتلّ باشر واعزاز ودربسك ومنبج . وكان بجامة محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب فاطع الملك الظاهر . وكان بمحمص شيركوه ابن محمد بن شيركوه فاطع الملك الافضل . وكان الملك العادل اخو صلاح الدين بالكرك فسار الى دمشق . فجهز الافضل معه عسكرياً وثار الى البلاد الجزرية وهي له

١ - وكانت مدة ملكه نحو تسع وعشرين سنة .

٢ - وكان ملكه مصر سنة اربع وستين وخمسة .

ليمنعها من عزّ الدين صاحب الموصل . وفيها اول جمادى الاولى قُتل سيف الدين بكتمر صاحب خلاط وكان بين قتله وموت صلاح الدين شهران . فانه اسرف في اظهار الشهامة بموت صلاح الدين وفرح فرحاً كثيراً فلم يمهل الله تعالى . وملك بعده ظهير الدين هزارديناري خلاط وهو ايضاً من ممالك شاه ارمن . وفيها سلخ شعبان تُوْفِي اتابك عزّ الدين مسعود بن مودود بن زنكي بن اقسنقر صاحب الموصل بالموصل وملك بعده ابنه نور الدين ارسلان شاه . وكان عزّ الدين خيراً محسناً حليماً قليل المعاقبة حياً كثيراً الحياء لم يكلم جليساً له الا وهو مطروق وما قال في شيء سئله جباناً وكرم طبع .

وفي سنة احدى وتسعين وخمسمائة كتب ألفنش ملك الفرنج ومقرّ ملكه طليطلة الى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن كتاباً يقول فيه : انك امير المسلمين ولا يخفى عليك ما هم عليه رؤساء الاندلس من التخاذل واهمال الرعية واشتغالهم على الراحة وانا اسوهم الخسف وأحلي الديار وأسبي الذراريّ وامثّل بالكهول واقتل الشبّان ولا عندر لك في التخلّف عن نصرتهم وانت تعتقد ان الله فرض عليكم قتال عشرة منّا بواحد منكم . والآن نخفف عنكم فنحن نقاتل عدداً منكم بواحد منّا . ثم بلغني عنك انك اخذت في الاحتفال وتمطل نفسك عاماً بعد عام تقدم رجلاً وتؤخر اخرى ولا ادري ألجبن ابطاً بك أم التكذيب بما أنزل عليك . وانا اقول لك ما فيه المصلحة ان تتوجّه بجملته من عندك في الشواني والمراكب واجوز اليك بجملتي وبارزك في اعزّ الاماكن عندك فان كانت لك فغنيمة عظيمة جاءت اليك وهديةً مثّلت بين يديك وان كانت لي كانت يدي العليا عليك واستحققت ملك المتّين والتقدم على الفتيين . فلما قرأ يعقوب كتابه جمع العساكر وعبر الحجاز الى الاندلس واقتتلوا قتالاً شديداً فكانت البائرة اولاً على المسلمين ثم عادت على الفرنج فانهزموا اقبح هزيمة وغنم المسلمون منهم شيئاً عظيماً . فلا يفخرن ثروان بثروته ولا جبّار بجبروته ومن يفتخر فبالله تعالى فليفتخر كما جاء في الكتاب الالهي . ثم ان ألفنش عاد الى بلاده وركب بغلاً وأقسم انه لا يركب فرساً حتى تنصره ملوك فرنجية فجمعوا الجموع العظيمة وجرت لهم مع المسلمين وقائع كثيرة الى ان ملكوا الآن اكثر مدن الاندلس .

وفي سنة اثنتين وتسعين سار الملك العزيز من مصر الى دمشق وحصرها وارسل الى اخيه الافضل ان يفارق القلعة ويسلم البلد على قاعدة ان تعطى قلعة صرخد له ويسلم

جميع اعمال دمشق . فخرج وتسلم العزيز القلعة ودخلها وأقام بها اياماً ثم سلمها الى عمه الملك العادل وعاد الى مصر فسار الافضل الى صرخد . وفي سنة ثلث وتسعين ملك العادل يافا من الفرنج وملك الفرنج بيروت من المسلمين .

وفي سنة اربع وتسعين توفي عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي بن اقسنقر صاحب سنجار ونصيبين والخابور والرقّة وملك بعده ابنه قطب الدين محمد وملك نور الدين مدينة نصيبين . وفيها قصد خوارزمشاه بخارا وكان قد ملكها الخطا فنازلها وحصرها وامتنع اهلها منه وقتلوه مع الخطا لما رأوا من حسن سيرتهم معهم حتى انهم اخذوا كلباً اعور والبسوه قباء وقلنسوة وقالوا: هذا خوارزمشاه . لانه كان اعور . وطافوا به على السور ثم القوه في منجنيق الى العسكر وقالوا: هذا سلطانكم . فلم يزل هذا دأبهم حتى ملك خوارزمشاه البلد بعد ايام يسيرة عنوة وعفا عن اهله واحسن اليهم .

وفيها حصر الملك العادل ابو بكر بن ايوب قلعة ماردين في شهر رمضان وكان صاحبها حسام الدين يولق ارسلان صديقاً فسلم بعض اهلها الربض بمخامرة فهب العسكر اهلها نهياً قبيحاً فلما تسلم العادل الربض تمكن من حصر القلعة وقطع الميرة عنها وبقي عليها الى ان رحل عنها سنة خمس وتسعين . وفي سنة خمس وتسعين في العشرين من المحرم توفي الملك العزيز صاحب مصر وارسل الامراء من مصر الى الافضل اخيه يدعونه اليهم ليملكوه لانه كان محبوباً الى الناس يريدونه فدخل الى مصر وملكها . وفي سنة ست وتسعين سار العادل فنزل على القاهرة وحصرها فأرسل الافضل اليه في الصلح فقرر ان يسلم الديار المصرية الى عمه ويأخذ العوض عنها مياًفارقين وحاني وجبل جور^١ وتحالفوا على ذلك . وخرج الافضل من مصر وسار الى صرخد وأرسل من يتسلم مياًفارقين وحاني وجبل جور فامتنع نجم الدين ايوب بن الملك العادل من تسليم مياًفارقين وسلم ما عداها . فترددت الرسل في ذلك والعادل يزعم ان ابنه عصاه . فامسك الافضل عن المراسلة في ذلك لعلمه ان هذا فعله بأمر العادل . وفيها في شهر رمضان توفي خوارزمشاه تكش بن ارسلان وولي ملك خوارزم بعده ابنه قطب الدين محمد ولقب علاء الدين لقب ابيه . وفي سنة سبع وتسعين في شهر رمضان ملك ركن الدين سليمان بن قلج ارسلان مدينة ملطية وكانت لاختيه معز الدين قيصر شاه فسار اليه وحصره اياماً وملكها وسار منها الى ارزن الروم وكانت لولد الملك

١ - حاني مدينة بديار بكر والنسبة اليها حنوي . وجبل جور اسم لكورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحي اربنية

محمد بن صلتق^١ وهم بيت قديم قد ملكوا ارض الروم . فلما قاربها ركن الدين خرج صاحبها اليه ثقة^٢ به ليقرر معه الصلح على قاعدة يوترها ركن الدين فقبض عليه واعتقله عنده وأخذ البلد وهذا كان آخر اهل بيته الذين ملكوا . وفيها حصر الملك الظاهر واخوه الملك الافضل ابنا صلاح الدين مدينة دمشق وهي لعمتهم الملك العادل وعادوا الى تجديد الصلح على ان يكون للظاهر منبج وافامية وكفر طاب والمعرة ويكون للافضل سميساط وقلعة نجم وسروج ورأس عين وحمُلين^٣ . وسار الظاهر الى حلب والافضل الى سميساط ووصل العادل الى دمشق . وفي سنة تسع وتسعين وخمسة في المحرم سیر الملك العادل عسكرياً مع ولده الملك الاشرف موسى الى ماردین فحصرها وشحنوا على اعمالها وأقام الاشرف ولم يحصل له غرض . فدخل الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب في الصلح بينهم وأرسل الى عمه العادل في ذلك فأجاب اليه على قاعدة ان يحمل له صاحب ماردین مائة وخمسين الف دينار فجاء صرف الدينار احد عشر قيراطاً من اميري ويضرب اسمه على السكة ويكون عسكريه في خدمته اي وقت طلبه . وفيها وهي سنة الف وخمسة واربع عشرة للاسكندر كان ابتداء دولة المغول وذلك ان في هذا الزمان كان المستولي على قبائل الترك المشاركة اونك خان وهو المسمى ملك يوحنا من القبيلة التي يقال لها كريت وهي طائفة تدين بدين النصرانية وكان رجل مؤيد من غير هذه القبيلة يقال له تموجين ملازماً لخدمة اونك خان من سن الطفولية الى ان بلغ حد الرجولية وكان ذا بأس في قهر الاعداء فحسده الاقران وسعوا به الى اونك خان وما زالوا يغتابونه عنده حتى اتهمه بتغيير النية وهم باعته والقبض عليه . فانضم اليه غلامان من خدم اونك خان فاعلماه القضية وعيّناه له الليلة التي فيها يريد اونك كبسه وفي الحال امر تموجين اهله باخلاء البيوت عن الرجال وتركها على حالها منصوبة وكن هو مع الرجال بالقرب من البيوت . وفي وقت السحر لما هجم اونك واصحابه على بيوت تموجين لقبها خالية من الرجال وكرّ عليه تموجين واصحابه من الكمين ووقعوا بهم وناوشوهم القتال وأثخنوا فيهم وهزموهم وداربوهم مرتين حتى قتلوه وابطاله وسبوا ذراريه . وفي اثناء هذا الامر ظهر بين المغول امير معتبر كان يسيح في الصحارى والجبال في وسط الشتاء عرياناً حافياً ويغيب اياماً ثم يأتي ويقول : كلمني الله وقال لي ان الارض

١ - و يروى : صيق وهو نصيف . و يروى صليق .

٢ - و يروى : حلين .

بأسرها قد اعطيتها لتموجين وولده وسميته جنكزخان فسماه جنكزخان تبت تنكري^١ وكان يرجع الى قوله ولا يعدل عن رأيه . ولما علا شأن جنكزخان ارسل الرسل الى جميع شعوب الترك فن اطاعه وتبعه سعد ومن خالفه خذل وانعم على ذينك الغلامين وذريتهم بان جعلهم ترخانية والترخان هو الحر الذي لا يكلف بشي من الحقوق السلطانية ويكون ما يغنم من الغزوات له مطلقاً لا يؤخذ منه نصيب للملك وزاد لهؤلاء ان يدخلوا على الملوك بغير اذن ولا يعاقبوا على ذنب الى تسعة ذنوب وكان لجنكزخان من الاولاد الذكور والاناث جماعة وكانت الخاتون الكبيرة زوجته تسمى اويسونجين^٢ بيكي . وفي رسم المغول اعتبار ابناء الاب الواحد بالشرف انما يكون بالنسبة الى الامهات . وكان لهذه خاتون اربعة بنين ولأهم جنكزخان الامور العظام في مملكته . الاول توشي ولي امر الصيد والطرده وهو احب الامور اليهم . والثاني جغاتاي ولي امر الحكومات والسياسة اي التاموس والقضاء . والثالث اوكتاي ولي تدبير الممالك لغزارة عقله واصابة رأيه . والرابع تولي ولي امر الجيوش وتجهيز الجنود والنظر في مصالح العساكر . وكان لجنكزخان اخ يقال له اوتكين فعيّن له ولكل واحد من الاولاد بلداً يقيمون بها . اما اوتكين فاقام بحدود الخطا . وتوشي اقام بحدود قباليغ^٣ وخوارزم الى اقصى سقسين وبلغار . وجغاتاي بحدود بلاد الايغور بالقرب من المايغ الى سمرقند وبخارا . واقام اوكتاي وهو ولي العهد بحدود ايميل وقوتاق^٤ وجاوره تولي ايضاً في تلك النواحي وهي وسط مملكتهم كالمركز بالنسبة الى الدائرة .

وفي سنة ستمائة ملك الفرنج مدينة القسطنطينية من الروم^٥ . اقام الفرنج بظاهرها محاصرين للروم من شعبان الى جمادى الاولى وكان بالمدينة كثير من الفرنج مقيمين نحو

١ - وروى : ثبت . وتنكري (ويلفظ طكري) اسم الله تعالى في اللغة التركية و جنكزخان معناه الملك الاعظم .

٢ - وروى : اويسونجين .

٣ - وروى : قباليغ .

٤ - وروى : ايميل وقوتاق .

٥ - كان الكيسيس الثالث نزع الملك من اخيه اسحاق الثاني وسمله وطرحه في السجن فالتجأ الكيسيس الرابع ابن اسحاق الى الصليبيين ووعدهم الوعود الحسنة منها انه يسمى بضم الكينستين الشرقية والغربية وانه يمدم بالجيوش والنفقة . فاجابوه الى سؤاله وفتحوا القسطنطينية بعد حصار ستة ايام . فتسارع الكيسيس الثالث الى الحرب ورجع الملك الى اسحاق ونودي في كنيسة اغيا صوفيا باتحاد الكينستين واقمر البطريك بان البابا خليفة بطرس الرسول ونائب المسيح وكان البابا وقتئذ انونشيسوس الثالث . ثم ان احد الخوارج دوقاس الملقب مورزفلس ومعناه الاقرن اي المقرون الحاجبين هيج الشعب وغضب الملك وتسمى الكيسيس الخامس واغتال الكيسيس الرابع وامات اياه اسحاق كدأ عليه . فاوغرت هذه الفظائع قلوب الصليبيين فثاروا للانتقام من الغاصب الخارجي ففتحوا القسطنطينية ثانية . الا ان ابا الفرج غالى في وصف هذا الفتح ما شامت اغراضه .

ثلثين الفاً ولعظم البلد لا يظهر امرهم فتواضعوا هم والفرنجة الذين بظاهر البلد ووثبوا فيه وألقوا النار فاحترق نحو ربع البلد . فاشتغل الروم بذلك ففتح الفرنج الابواب ودخلوها ووضعوا السيف ثلثة ايام وقتلوا حتى الاساقفة والرهبان والقسيسين الذين خرجوا اليهم من كنيسة ايباً سوفياً العظمى وبأيديهم الاناجيل والصلبان يتوسلون بها ليُبقوا عليهم . فلم يلتفتوا اليهم وقتلوهم اجمعين ونهبوا الكنيسة . وكان الفرنج ثلثة ملوك ذوقس البنادقة وفي مراكبه ركبوا الى القسطنطينية وهو شيخ اعمى اذا ركب يقاد فرسه . والثاني المركيس مقدم الافرنسيس . والثالث كنداflند^١ وهو اكثرهم عدداً . فلما استولوا اقرعوا على الملك فخرجت القرعة على كنداflند فلنكوه عليها وتكون لذوقس البنادقة الجزائر مثل اقريطش ورودس وغيرهما ويكون لمركيس البلاد التي هي شرقي الخليج مثل نيقية ولاذيق وفيلادلف ولم تدم له فانها تغلب عليها بطريق من بطارقة الروم اسمه لشكري^٢ . وفيها في ذي القعدة توفي السلطان ركن الدين صاحب الروم^٣ وملك ابنه قلاج ارسلان وكان صغيراً . وكان غياث الدين كيخسرو اخو ركن الدين يومئذ بقلعة من قلاع القسطنطينية ولما سمع بموت اخيه سار الى قونية وقبض على الصبي وملكها وجمع الله له البلاد جميعها وعظم شأنه وقوي امره وكان ذلك في رجب سنة احدى وستائة . وفيها اغارت الكرج على اذربيجان واكثروا النهب والسبي ثم اغاروا على خلاط وارحيش فأوغلوا في البلاد حتى بلغوا ملازكرد ولم يخرج اليهم من المسلمين احد يمنعم فجاسوا خلال البلاد ينهبون ويأسرون . وفي سنة ثلث وستائة قبض عسكر خلاط على صاحبها محمد بن بكتمر وملكها بلبان مملوك شاه ارمن بن سكرمان . وفي سنة اربع وستائة ملك الملك الاوحد نجم الدين ايوب بن الملك العادل مدينة خلاط . ولما سار عنها الى ملازكرد ليقرر قواعدها وثب اهلها على من بها من العسكر فاخرجوه من عندهم وعصوا ونادوا بشعار شاه ارمن وان كان ميتاً يعنون بذلك ردّ الملك الى اصحابه ومماليكه . فعاد اليهم الاوحد وقتل بها خلقاً كثيراً من اعيان اهلها فذلّ اهل خلاط وتفرقت كلمة الفتيان وكان

١ - كنداflند comte de Flandre هو بودوين (بغدوين او بنغويل) التاسع الذي اختاره الصليبيون ليكون اول ملك للمملكة التي انشأها الافرنج في القسطنطينية وتسمى بودوين الاول . والمركيس هو بونيفاس الثاني مركيس دي مونتفرات marquis de Montferrat ولم يكن فرنسياً انما كان مقدّم جيوش فرنسا وفلاندا .

٢ - وتسميه ايضاً العرب الاشكري وهو Théodore Lascaris .

٣ - يريد سلطان قونية صاحب ديار الروم وهذه البلاد يحيط بها من جهة الغرب بحر الروم وتمامه الخليج القسطنطيني وبحر القرم . ومن جهة الجنوب بلاد الشام والجزيرة . ومن جهة الشرق ارمينية . ومن جهة الشمال بلاد الكرج وبحر القرم . وتعرف بلاد الروم الآن بأسيا الصغرى .

الحكم اليهم وكفي الناس شرهم فانهم كانوا يقيمون ملكاً ويقتلون آخر والسلطنة عندهم لا حكم لها وانما الحكم لهم واليهيم . وفي سنة ست وستائة ملك العادل ابو بكر بن ايوب بلد الخابور ومدينة نصيبين وحصر سنجان ثم عاد عنها .

وفيها استولى جنكزخان على بلاد قراخطا وكان امير بلاد الايغور وهم طائفة كثيرة من الترك في طاعة ملك الخطا فلما صار الصيت لجنكزخان وشاع ذكره في البلاد ارسل اليه امير الايغور وهو الذي يسمونه ايدي قوب^١ اي صاحب الدولة يطلب الامان لنفسه ورعيته والدخول في زمرته . فاكرم جنكزخان رسله وتقدم بوصوله اليه . فبادر ايدي قوب الى الحضور في خدمته من غير توقّف . فأقبل عليه جنكزخان وأحسن قبوله واعاده الى بلاده مكرماً .

وفي سنة سبع وستائة واواخر رجب توفّي نور الدين ارسلان شاه بن مسعود ابن مودود بن زنكي بن اقسنقر صاحب الموصل وكانت مدة ملكه ثماني عشرة سنة وكان شهماً شجاعاً ذا سياسة للرعايا شديداً على اصحابه اعاد ناموس البيت الاتابكي وجاهه وحرمة بعد ان كانت قد ذهبت . ولما حضره الموت رتب في الملك ولده الملك القاهر عز الدين مسعود وأمر ان يتولّى تدبير مملكته ويقوم بحفظها وينظر في مصالحها مملوكه بدر الدين لؤلؤ لما رأى من عقله وسداد رأيه وحسن سياسته وكمال السيادة فيه . وأعطى ولده الاصغر عماد الدين زنكي قلعة العقر الحميدية وقلعة شوش وسيّره الى العقر .

وفي سنة تسع وستائة قصد ثلاثة نفر تجار من البخاريين ديار التاتار ومعهم البضائع من الثياب المذهبة والكرباس وغيرها مما يليق بالقول بما سمعوا ان للمتاع عندهم قيمة وافرة وان الطرق قد اقام بها جنكزخان جماعة يسمونهم قراقجية اي مستحفظين يخفرون المترددين اليهم فقوي عزمهم على ذلك فساروا نحوهم . ولما وصلوا الى نواحيهم واناسهم المستحفظون وقفوا على ما معهم من السلع فأروا قماش واحد منهم اسمه احمد لائقاً للخازن فسيّروه مع صاحبيه اليه . فعرض احمد متاعه على الحجاب وطلب في ثمن كل ثوب كان يشتراه عليه عشرة دنانير الى عشرين ديناراً ثلاثة بواليش . فغضب لذلك جنكزخان وقال: هذا الغافل كأنه يظنّ اننا ما رأينا ثياباً قط وامر الخازن فأراه من الاقشة التي هداها اليه ملوك الخطا اشياء نفيسة وتقدّم ان يكتب ما معه وأنه لن حضر من الحاشية واعتقل احمد . وطلب صاحبيه فعرضاً عليه متاعها برمته وقالوا: هذا

١ - قال دي كوين: ان ملك الايغور لقبه ايدي قوت وتفسيره المرسل من الله .
(Deguignes, Hist. Gén. des Huns, T. II. p. 275).

كله انما اتينا به لنقدمه خدمة للخان لا لنبيعه عليه . فألحقوا عليهما ان يثمنانه فلم يفعلوا . فأمر جنكزخان ان يُعطي لكل ثوب مذهب باليش من ذهب ولكل كرباسين باليش من فضة وعوداً واحداً ايضاً مثل ما اعطاها وتقدم الى الاولاد والحواتين والامراء ان يُنفذوا معهم جماعة من اصحابهم ومعهم بواليش الذهب والفضة ليجلبوا لهم من ظرائف البلاد ونفائسها ما يصلح لهم فامتثلوا ما امرهم به فاجتمع معهم مائة وخمسون تاجراً من مسلم ونصراني وتركّي وارسل معهم رسولاً الى السلطان محمد يقول له : ان التجار وصلوا الينا وقد اعدناهم الى ما منهم سالمين غانمين وقد سيرنا معهم جماعة من غلماننا ليحصلوا من ظرائف تلك الاطراف فينبغي ان يعودوا الينا آمنين ليتأكد الوفاق بين الجانبين وتنحسم موادّ النفاق من ذات البين . فلما وصل التجار الى المدينة اُتّار طمع اميرها غير خان فيما معهم من الاموال فطالع السلطان محمد في امرهم وحسن له ابادتهم واغتنام ما لهم فأذن له في ذلك فقتلهم طراً الا واحداً منهم فانه هرب من السجن . ولما رأى ما جرى على اصحابه لحق بديار التاتار واعلمهم بالمصيبة . فعظم ذلك عند جنكزخان وتأثر منه الى الغاية وهجر النوم وصار يحدث نفسه ويفتكر فيما يفعله . وقيل انه صعد الى رأس تلّ عالٍ وكشف رأسه وتضرّع الى البارئ تعالى طالباً نصره على من باداه بالظلم وبقي هناك ثلاثة ايام بلياليها صائماً . وفي الليلة الثالثة رأى في منامه راهباً عليه السواد ويديه عكازة وهو قائم على بابه يقول له : لا تخف افعل ما شئت فانك مؤيد . فانتبه مذعوراً ذعراً مشوباً بالفرح وعاد الى منزله وحكى حلمه لزوجته وهي ابنة اولك خان . فقالت له : هذا زيُّ اسقف كان يتردد الى ابي ويدعو له ويحييه اليك دليل انتقال السعادة اليك . فسأل جنكزخان من في خدمته من نصارى الايفغور . هل ههنا احد من الاساقفة . فقيل له عن مار دنحا . فلما طلبه ودخل عليه بالبيرون الاسود قال : هذا زيّ من رأيت في منامي لكن شخصه ليس ذاك . فقال الاسقف : يكون الخان قد رأى بعض قديسينا . ومن ذلك الوقت صار يميل الى النصرى ويحسن الظنّ بهم ويكرمهم . وفي سنة عشر وستمائة قصد جنكزخان بلاد السلطان محمد ولما وصل الى نواحي تركستان اتاه الامير ارسلان خان من غيالغ والامير ايدي قوب من ييش باليغ والامير سفتاق من المايلغ وساروا في عساكرهم . ولما اجتمعت العساكر جميعها بقصبة مدينة اترار سير جنكزخان ابنه الكبير في ثومانيين عسكر الى جانب خُجند وتوجّه هو بنفسه الى بخارا ورتب على محاصرة اترار ولديه جفاتاي واوكتاي فدام القتال

عليها مدة خمسة اشهر لان السلطان محمداً كان قد سير إليها غاير خان في خمسة آلاف فارس وقراجا خاص حاجب في عشرة آلاف وكانوا كلهم بها . ولما ضاقت الحيلة بمن في المدينة وعجزوا عن المقاومة شاور قراجا لغاير خان في الصلح وتسليم البلد . فأبى غاير خان الا المجاهدة حتى الموت لعلمه ان المغول لا يقون عليه فلم يرَ في المصالحة مصلحة . فتوقّف قراجا الى هجوم الليل وخرج في اكثر عسكره الى خارج من باب دروازه الصوفي . فعوقوه الى الصبح ثم حمل الى ابني جنكزخان فاستنطقاه واستعلما منه كنه احوال البلد وأمرًا بقتله وقتل كل من معه قائلين : اذا كنت ما ابقيت على مخلدومك وولي نعمتك فلا تبقي ولا علينا . وزحف العسكر الى المدينة فدخلوها واخرجوا اهلها جميعهم الى ظاهرها واغاروا على ما فيها . وبقي غاير خان في عشرين الفاً من عسكره متفرقين في دروب المدينة لم يتمكن منهم المغول وكانوا يخرجون خمسين خمسين يكاحون ويطعنون في عسكر المغول ويقتلون ثم يُقتلون . وكان هذا دأبهم شهراً الى ان بقي غاير خان ومعه نفران يجالدون في سطح دار السلطنة وكان قد برز مرسوم الخان ان لا يُقتل غاير خان في الحرب لكن يُحمل اليه حياً . فلذلك كثر التعب معه وقُتل صاحباة وبقي وحده يقاتل بالاجر الذي كان الجوّاري يناولنه من الجدار . فلما عجز عن المناولة أحاط به المغول وقبضوه وحملوه الى جنكزخان بعد عوده من بخارا الى سمرقند وقُتل هناك في كوك سراي . وفي سنة اثني عشرة في شعبان ملك السلطان محمد مدينة غزنة وكان استولى قبل ذلك على عامّة خراسان وملك باميان .

وفي سنة ثلث عشرة في العشرين من جمادى الآخرة توفّي الملك الظاهر غازي ابن صلاح الدين يوسف بن ايوب وهو صاحب مدينة حلب وخلف اولاداً ذكوراً من حملتهم الملك العزيز محمد من ابنة عمه الملك العادل وكان عمر ولده هذا سنتين وشهوراً ووصّى به الى مملوكه شهاب الدين طغرل الخادم فصار اتابكه وقام بتربيته احسن قيام . وفي سنة خمس عشرة وستائة توفّي الملك القاهر عزّ الدين مسعود بن ارسلان شاه ابن مسعود بن مودود بن زنكي بن اقسنقر صاحب الموصل ليلة الاثنين لثلاث بقين من ربيع الاول وكانت ولايته سبع سنين وتسعة اشهر واوصى بالملك لولده الاكبر نور الدين ارسلان شاه وعمره حينئذ نحو عشر سنين وجعل الوصي عليه والمدبّر لدولته بدر الدين لؤلؤاً . وكان عمّه عماد الدين زنكي بن ارسلان شاه صاحب العقر يحدث نفسه بالملك . فرقع بدر الدين ذلك الخرق ورتق ذلك الفتق وأحسن السيرة مع الخاصّ والعامّ وخلع على كافة الناس وغير ثياب الحداد عنهم فلم يخصّ بذلك شريفاً دون مشروف ولا

كبيراً دون صغير . وبعد ايام وصل التقليد من الخليفة لنور الدين بالولاية ولبدر الدين بالنظر في امور دولته والتشريقات لها ايضاً . وكان مظفر الدين كوكبري بن زين الدين صاحب اربل قام في نصر عماد الدين زنكي فلنكته قلعة العادية وبأقي قلاع الهكارية والزّوزان . فراسله بدر الدين يذكره الايمان والعهود ويطلبه بالوفاء بها ثم نزل عن هذا ورضي منه بالسكوت لا لهم ولا عليهم . فلم يفعل وأظهر معاضدة زنكي . فأرسل بدر الدين الى الملك الاشرف موسى بن الملك العادل وهو صاحب ديار الجزيرة وخلاط وانتمى اليه وصار في طاعته وطلب منه المعاضدة . فأجابته بالقبول وبذل له المساعدة وأرسل الى مظفر الدين يقبّح هذه الحالة ويقول له ان يرجع الى الحق والا قصده هو بنفسه وعسكره . فلم تحصل الاجابة منه الى شيء من ذلك الى ان حضرت الرسل من الخليفة الناصر ومن الملك الاشرف في الصلح فأطاعوا واصطلحوا وتحالفوا بحضور الرسل . ولما تقرّر الصلح توفّي نور الدين ارسلان شاه بن الملك القاهر صاحب الموصل ورُتّب في الملك بعده اخوه ناصر الدين محمود وله من العمر نحو ثلث سنين وحلف له الجند وركبه بدر الدين فطابت نفوس الناس اذ علموا ان لهم سلطاناً من البيت الاتابكي . وفيها توفي الملك العادل ابوبكر بن ايوب سابع جمادى الآخرة وكان عمره ثلثاً وسبعين سنة وكانت مدة مملكته ثمانى عشرة سنة . وحلف ولده الملك الكامل صاحب مصر . والملك المعظمّ صاحب دمشق . والملك الاشرف صاحب حرّان والرها وخلاط . والملك المظفر شهاب الدين غازي صاحب ميّافارقين . والملك الحافظ صاحب قلعة جعبر . والملك العزيز صاحب بانياس . والملك الصالح اسمعيل صاحب بصرى . والملك الفاتر يعقوب والملك الامجد عباس والملك الافضل والملك القاهر .

ولما مات نور الدين الملك القاهر صاحب الموصل وملك اخوه ناصر الدين تجدد لعهاد الدين ومظفر الدين الطمع لصغر سنّ ناصر الدين فجمعوا الرجال وتجهزوا للحركة . فلما بلغ ذلك بدر الدين لؤلؤاً ارسل الى عزّ الدين اييك مقدّم عسكر الاشرف الذي بنصبيين يستدعيهم ليعتضد بهم فساروا الى الموصل رابع رجب سنة خمس عشرة واستراحوا اياماً ثم عبروا دجلة ونزلوا شرقها على فرسخ من الموصل . وجمع مظفر الدين عسكره وسار اليهم ومعه زنكي فعبر الزاب وسبق خبره . وعند انتصاف الليل سار اييك ولم يصبر الى الصبح فتقطعوا في الليل والظلمة والتقوا هم والخصم على ثلاثة فراسخ من الموصل . فامّا عزّ الدين فحمل على ميسرة مظفر الدين فهزمها وبها زنكي . وميمنة مظفر الدين حملت على ميسرة بدر الدين وهزمتها . وبقي بدر الدين في الزفر الذي معه

في القلب وتقدّم اليه مظفر الدين في مَن معه في القلب اذ لم يتفرقوا فلم يمكنه الوقوف فعاد الى الموصل هارباً وعبر دجلة الى القلعة وتبعه مظفر الدين واقام وراء تلّ حصن نينوى ثلاثة ايام ورحل ليلاً من غير ان يضربوا كوساً وبوقاً . ثم ملك عماد الدين قلعة الكواشي وملك بدر الدين تلّ اعفر وملك الاشرف سنجار وسار يريد الموصل ليجتاز منها الى اربل . فقدم بين يديه عسكره ثم وصل هو في آخرهم يوم الثلاثاء تاسع عشر جمادى الاولى سنة ستّ عشرة وستّائة وكان يوم وصوله مشهوداً ترجّل له بدر الدين وحمل الغاشية بين يديه . وأتاه رسل الخليفة ومظفر الدين في الصلح وبذل تسليم القلاع المأخوذة جميعها الى بدر الدين ما عدا قلعة العماديّة وطال الحديث في ذلك نحو شهرين . ثم رحل الاشرف يريد مظفر الدين فوصل قرية السّلاميّة بالقرب من الزاب وكان مظفر الدين نازلاً عليه من جانب اربل فاعاد الرسل الى الاشرف في طلب الصلح وكان عسكر الاشرف قد طال بيكاره والناس قد ضجروا فوعدت الاجابة الى الصلح وعاد الاشرف الى سنجار وكان رحيله عن الموصل ثاني شهر رمضان من سنة سبع عشرة وستّائة . وفي سنة ستّ عشرة وستّائة توفّي السلطان عزّ الدين كيكابوس بن كيكخسرو ابن قلج ارسلان صاحب بلاد الروم ولم يخلف ولداً يصلح للملك لصغر سنّهم . واخرج الجند اخاه علاء الدين كيقباز من قلعة المنشار التي على الفرات بقرب ملطية وكان مسجوناً بها فلنكوه وحلف الناس له فاحسن تدبيره للملكه وكان شديداً على اصحابه ذا عزم وحزم وهيبة عظيمة .

وفي سنة سبع عشرة وستّائة في اوائل المحرمّ نزل جنكزخان في عساكره على مدينة بخارا واحاط بها العساكر من جميع جوانبها . وكان بها من عسكر السلطان محمد عشرون ألفاً مقدّمهم كوك خان وسونج وكشلي خان . ولما تحقّقوا عجزهم عن مقاومة المغول خرجوا من الحصار بعد غروب الشمس فادركهم المحافظون من عسكر المغول على نهر جيحون فاوقعوا فيهم وقتلهم كافة ولم يُبقوا منهم اثراً . فلما فارق المقاتلون المدينة لم يبقَ لاهلها حيلة الاّ التسليم والخروج وطلب الامان فخرج الائمة والاعيان الى خدمة جنكزخان يتضرّعون اليه ويطلبون حقن دماهم حسب . فتقدّم باخراج كل من بالمدينة الى ظاهرها فخرجوا ودخل هو وولده توي الى المدينة فوقف على باب مسجد الجامع وقال : هذا دار السلطان . فقالوا : لا بل خاتة يزدان اي بيت الله . فنزل ودخل الجامع وصعد الى المنبر وقال لا كابر بخارا : ان الصحراء خالية عن العلف فاتم اشبعوا الخيل

مما عندكم في الانبار . ففتحوها وصاروا ينقلون ما فيها من الغلات ورموا ما في الصناديق من الكتب وجعلوها اوارى للخييل واحضروا الطعام والشراب هناك واكلوا وشربوا وطربوا . ثم خرج جنكزخان الى منزله وجمع الائمة والمشايخ والسادات والعلماء وقال لهم : ان الله ملك الكل وضابط الكل ارسلني لاطهر الارض من بغي الملوك الجائرة الفسقة الفعجرة وذكر لهم ما فعله امير اترار باذن سلطانه بالتجار الى غير ذلك ثم امرهم ان يعتزلوا الاغنياء واصحاب الثروة بمعزل عن الفقراء فعزلوهم وكانوا مائتي الف وثمانين الفاً . فقال لهم : ان الاموال التي فوق الارض لا حاجة بنا الى استعمالها منكم وانما نريد ان تظهروا لنا الدفائن التي تحت الارض . فقبلوا بالسمع والطاعة . واكلوا مع كل قوم باساقاً يستخرج المال و اشار سرّاً الى المستخرجين ان لا يكلفوهم ما لا يطيقونه ويرفقوا بهم وذلك لما رأى من حسن اجابتهم الى ما امروا به . ولأن جماعة من عسكر السلطان كانوا مختفين بالمدينة امر فرموا في محالها النار فاحترقت المدينة باسرها لان جلّ عمائرها من خشب فبقيت عرصة بخارا قاعاً صافصفاً وتفرّق اهلها منتزحين الى خراسان .

وفيها في ربيع الاول نزل جنكزخان على مدينة سمرقند وكان قد رتب السلطان محمد فيها مائة الف وعشرة آلاف فارس يقومون بحراستها . فلما نازها منع اصحابه عن المقاتلة وانفذ سنتاي نوين ومعه ثلثون الف محارب في اثر السلطان محمد . وغلاق نوين وبسور^١ نوين الى جانب طالقان . واحاط باقي العسكر بالمدينة وقت سحر فبرز اليهم مبارزو الخوارزمية ونازعهم القتال وجرحوا جماعة كثيرة من التاتار واسروا جماعة وادخلوهم المدينة . فلما كان من الغد ركب جنكزخان بنفسه ودار على العسكر وحثم على القتال فاشتد القتال ذلك اليوم بينهم ودام النهار كله من اوله الى اول الليل ووقف الابطال من المغول على ابواب المدينة ولم يمتكنوا احداً من المجاهدين من الخروج فحصل عند الخوارزمية فتور كثير ووقع الخلف بين اكابر المدينة وتلوت الآراء فبعض مال الى المصالحة والتسليم وبعض لم يأمن على نفسه وان أومن خوفاً من غدر التاتار فقوي عزم القاضي وشيخ الاسلام على الخروج فخرجوا الى خدمة جنكزخان وطلبوا الامان لها ولاهل المدينة فلم يجيبها الا الى امان انفسها ومن يلوذ بهما . فدخلوا الى المدينة وفتحوا ابوابها فدخل المغول واشتغلوا ذلك اليوم بتخريب مواضع من السور وهدم بعض الابرجة ولم يتعرضوا الى احد الى ان هجم الليل فدخلوا الى المدينة وصاروا يخرجون من الرجال والنساء مائة^٢

١ - بسور و بسور س مملوؤة (انظر السطر ٥ من الصفحة ٢٥٥ من هذا الكتاب) .

٢ - من الرجال والنساء مائة و الرجال من النساء من مائة .

مائة بالعدد الى الصحراء ولم ينكفوا الا عن القاضي وشيخ الاسلام وعمّن التجأ اليهما فاحتفى بهما نيف وخسون الفاً من الخلق . ولما اصبح الصباح شرع المغول في نهب المدينة وقتل كل من لحقوه مخبئاً في المغائر ومتوارياً بالسائير وقتلوا تلك الليلة نحو ثلثين الف تركي وقلبي وقسموا بالنهار ثلثين الفاً على الاولاد والامراء واطلقوا الباقي ليرجعوا الى المدينة ويجمعوا من بينهم مائتي الف دينار ثمن ارواحهم وكان المحصل لهذا المال ثقة الملك والامير عميد وهما من اكابر سمرقند والشحنة طايفور . ومن هناك توجه جنكزخان بعساكره الى نواحي خوارزم وانفذ الرسل اليهم يدعوهم الى الايالة والدخول في طاعته وشغلهم اياماً بالوعد والتأميل والتهديد الى ان اجتمعت العساكر ورتب آلات الحرب من منجنيق وما يرمى بها . ولأن صقع خوارزم لم يكن فيه حجر كان المغول يقطعون من اشجار التوت قطعاً كالحجارة ويرمون بها وملأوا الخندق بالتراب والخشب والهشيم وانشبو الحرب واقتال على المدينة من جميع جوانبها حتى عجز من فيها عن المقاومة فلكوا سورها واضرموا النار في محالها فأتت على اكثر دورها وما فيها فأيس المغول من الانتفاع بشيء من غنائمها فاعرضوا عن الحريق وصاروا يملكون محلة محلة لان اهلها كانوا يمتنعون فيها اشد امتناع . ولم يزالوا كذلك الى ان ملك المغول كل المحال واخرجوا الخلائق كافة الى الصحراء وفرزوا الصناع والمخترفين الى الناحية وكانوا مائة الف واسروا البنين والبنات والنساء اللواتي يستنفع بهن وقسموا الباقي من الرجال والنساء العجائز على العسكر ليقتلوهم فقتل كل واحد منهم اربعاً وعشرين شخصاً . وفي اوائل سنة ثماني عشرة وستمائة عبر جنكزخان نهر جيحون وقصد مدينة بلخ فخرج اليه اعيانها وبذلوا الطاعة وحملوا الهدايا وانواعاً من الترخو اي المأكول والمشرب . فلم يقبل عليهم بسبب ان السلطان جلال الدين بن السلطان محمد كان في تلك النواحي يهيئ اسباب الحرب ويستعد للقتال فامر بخروج اهل بلخ الى الصحراء ليعدوهم كالعادة فلما خرجوا بأسرهم رمى فيهم السيف . ومن هناك توجه نحو الطالقان وقتل اكثر اهلها واسر من صلح للاسر وأبقى البعض . وسار الى الباميان فعصى اهلها وقتلوا قتالاً شديداً واتفق ان أصيب بعض اولاد جغتاي بسهم جرح ففضى نجبه وكان من احب احفاد جنكزخان اليه فعظمت المصيبة بذلك واضطرت النيران في قلوب المغول وجدوا في القتال الى ان فتحوها وقتلوا كل من فيها حتى الدواب والبقرة والاجنة التي في بطون

١ - وروى : كايفور .

٢ - كذا في الاصل . والصواب الأليمة اي القام .

الجبالي ايضاً ولم يأسروا منها احداً قط وتركوها ارضاً فقراً ولم يسكنها احد الى اليوم
وسموها ماوالبليغ اي قرية بوئس .

ولما فرغ جنكزخان من تخريب بلاد خراسان سمع ان السلطان جلال الدين قد
استظهر بالعراق فسار نحوه ليلاً ونهاراً بحيث ان المغول لم يتمكنوا من طبخ لحم اذا نزلوا .
فحين وصلوا الى غزنة أخبروا بان جلال الدين من خمسة عشر يوماً رحل عنها وهو عازم
على ان يعبر نهر السند . فلم يستقر جنكزخان ورحل في الحال وحمل على نفسه بالسير
حتى لحقه في اطراف السند فطاف به العسكر من قدامه ومن خلفه وداروا عليه دائرة
وراء دائرة كالقوس الموتورة ونهر السند كالوتر وهو في وسط . وبالعالم في المغول في المكاوحة
وتقدم جنكزخان ان يقبض حياً ووصل جفاتي واوركتاي ايضاً من جانب خوارزم .
فلما رأى جلال الدين انه يوم عمل شهيم وضرغم ابطال المغول وتطلب اطلابهم وحمل
عليهم حملات وشق صفوفهم مرة بعد مرة وطال الامر بمثل ذلك لامتناع المغول عن
رميه بالنشاب ليحضره غير مؤوف بين يدي جنكزخان امثالاً لمرسومه فكانوا
يتقدمون اليه قليلاً قليلاً . فلما عين نضيق الحلقة عليه نزل فودع اولاده بل اباده
من نسائه وخواصه باكياً كثيراً ثم رمى عنه الجوشن وركب جنبيه وهو كالاسد الغيور
وهم بالعبور واقحم فرسه النهر فانقحم وعام وخلص الى الساحل وجنكزخان واصحابه
ينظرون اليه ويتأملونه حيارى . ولما شاهد ذلك جنكزخان وضع يده على فمه متعجباً
والتفت الى ولديه وقال لهما : من اب ا مثل هذا الابن ينبغي ان يولد . اذا نجا من هذه
الوقعة فوقائع كثيرة تجري على يديه . ومن خطبه لا يغفل من يعقل . واراد جماعة من
البهادورية ان يتبعوه في الماء فنعهم جنكزخان قائلاً : انكم لستم من رجاله لانه كان
يرامي المغول بالسهام وهو في وسط الشط . فلما فاتهم اخذوا امر الخان باحضار حرمه
واولاده وتقدم بقتل جميع الذكور حتى الرضع . ولأن جلال الدين عند ما اراد الخوض
في النهر التي جميع ما كان صحبته من آنية الذهب والفضة والنقرة فيه امر الغواصين
فاخرجوا منها ما امكن اخراجه . وكان هذا الامر الذي هو من عجائب الانام ودواهي
الايام في رجب فقيل في المثل : عش رجلاً ترَ عجباً .

وفيها اعني سنة ثمانى عشرة وستائة كان اجتماع الملك المعظم والملك الاشرف مع
نجدة صاحب ماردين وعسكر حلب والملك الناصر صاحب حماة والملك المجاهد صاحب
حمص واتصال الجميع بالملك الكامل على عزم قصد الفرنج ورد دمياط منهم . فحاطوا

بهم وضيقوا السبيل عليهم فاجابوا الى الصلح على تسليم دمياط واطلاق ما بأيديهم من اسراء المسلمين واطلاق ما بأيدي المسلمين من أسراهم وقرّر الصلح عاماً مع الدكاك نائب البابا وملك عكا وملوك فرنجة ومقدمي الداوية والاسبتارية^١ وتسلّم الكامل دمياط يوم الاربعاء تاسع عشر رجب . وكانت مدة مقام الفرنج بها سنة كاملة واحد عشر شهراً . وفي سنة احدى وعشرين وستائة توفي الملك الافضل عليّ بن صلاح الدين وقد نزل عن ملك مصر والشام وقنع بسميساط كرهاً^٢ . وكان عنده علم وفطنة لكنه كان ضعيف الرأي قليل العزم كثير الغفلة عمّا يجب للدول وتدبير الممالك . ولما أخذت منه البلاد كتب الى الخليفة الناصر كتاباً ضمنه شكايه عمه العادل واخيه العزيز حيث اخذنا منه البلاد ونكثنا عهد ابيه له بها . وكتب في اول الكتاب بيتين من الشعر عملهما واحسن فيهما وهما :

مولاي انّ ابا بكر وصاحبه عثمان قد اخذنا بالسيف حقّ علي
فانظر الى حرف هذا الاسم كيف لتي من الاواخر ما لاقى من الاول
يريد بأبي بكر عمه وبعثمان اخاه وبعلي نفسه . فأجابه الناصر عن كتابه بكتاب
كتب فيه :

وافي كتابك يا ابن يوسف معلناً بالصدق يخبر ان اصلك طاهر
غصبوا علياً حقه ان لم يكن بعد النبي له يثرب ناصر
فاصبر فانّ غداً عليه حسابهم وابشر فناصرك الامام الناصر

وكان الملك الافضل قد شغله ابوه في صباه بشي من العلم فحصل منه طرفاً من العربية والشعر وكان ينظمه ويعتني به بالنسبة الى حاله .

وفي سنة اثنتين وعشرين وستائة توفي الخليفة الناصر لدين الله ابو العباس احمد في ليلة عيد الفطر وكان عمره سبعين سنة ومدّة خلافته ستاً واربعين سنة واحد عشر شهراً .

• • •

وكان في الايام الامامية الناصرية الحكيم عبد السلام بن جنكي دوست الجبلي

١ - Les Templiers et les Hospitaliers.

٢ - كان الملك الافضل بعد وفاة والده سنة (٥٨٩) ملك مدينة دمشق والبيت المقدس وغيرها من الشام فأخذ منه كل هذه المدن سنة اثنتين وتسعين . وكان ملك سنة خمس وتسعين ديار مصر فأخذت منه سنة ست وتسعين فانتقل الى سميساط واقام بها .

البغدادي قد قرأ علوم الاوائل واجادها واشتهر بهذا الشأن شهرةً تامةً وحصل له بتقدمه حسد من ارباب الشرّ فثلبه احداهم بانه معطلّ فاوقعت الحفظة عليه وعلى كتبه فوجد فيها الكثير من علوم الفلاسفة وبرزت الاوامر الناصريّة باخراجها الى موضع ببغداد يعرف بالرحبة وان يُحرق الجُمّ منها بحضور الجمع ففعل ذلك وأحضرها عبيد الله التيمي المعروف بابن المارستانية وجعل له منبر وصعد عليه وخطب خطبة لعن بها الفلاسفة ومن يقول بقولهم وذكر الركنَ هذا بشرّ وكان يخرج الكتب التي له كتاباً كتاباً يتكلم عليه ويبالغ في ذمّه وذمّ مصنفه ثم يلقيه من يده لمن يلقيه في النار . قال القاضي الاكرم الوزير جمال الدين بن القفطي رحمه الله: اخبرني الحكيم يوسف السبتي الاسرائيلي قال: كنت ببغداد يومئذٍ تاجراً وحضرت المحفل وسمعت كلام ابن المارستانية وشاهدت في يده كتاب الهيئة لابن الهيثم وهو يقول: وهذه الداهية الدهياء والنازلة الصمّاء والمصيبة العمياء . وبعد اتمام كلامه خرقها والقهاها في النار . فاستدللت على جهله وتعصبه اذ لم يكن في الهيئة كفر وانما هي طريق الى الايمان ومعرفة قدر الله جلّ وعزّ فيما احكمه ودبره . واستمرّ الركن عبد السلام في السجن معاقبة على ذلك الى ان أُفرج عنه سنة تسع وثمانين وخمسمائة .

وفي هذه السنة توفي يحيى بن سعيد بن ماري الطبيب النصراني صاحب المقامات الستين صنفها واحسن فيها وكان فاضلاً في علوم الاوائل وعلم العربية والشعر يرتزق بالطبّ . ومن شعره في الشيب:

نفرت هند من طلائع شبيبي واعترتها سامة من وجوهي
هكذا عادة الشياطين ينفر ن اذا ما بدت نجوم الرجوم .

ومن اطباء الدار الامامية الناصريّة صاعد بن هبة الله بن المؤمل ابو الحسن النصراني الحظيري المتطبّب واخوه ابو الخير الاركيدياقون وهما اخوا الجائليق المعروف بابن المسيحي . اما صاعد فخدم الخليفة الناصر وتقرّب قرباً كثيراً وكانت له المعرفة التامة بالطبّ والمنطق وصنّف كتاباً صغير الحجم سمّاه الصفوة جمع فيه اجزاء الطبّ علميها وعمليها وألحق في آخر الفنّ الاول من الجزء الثاني ثلاثة فصول في الختانة لكونها منوطة بالاطباء ببغداد وان كان لا يسمع لاحد من المتقدمين ولا المتأخرين فيها قولاً بل فيما يطول القلفة . وكان ينسخ بخطه كتب الحكمة . ومات في آخر سنة احدى وتسعين وخمسمائة . واما الاركيدياقون وكان ايضاً فاضلاً صنّف كتاباً مختصراً لخص فيه

مباحث كتاب الكليات من القانون سَمَّاهُ الاقتضاب ثم اختصره وسمَّى المختصر انتخاب^١ الاقتضاب . وحكى لي بعض الاطباء ببغداد ان اباہ حمله وهو مترعرع الى ابن التلميذ ليشغله فقال: هذا ابنك صغير جداً . فقال: غرضي التبرك منك . فأقرأه المسئلة الاولى من مسائل حنين .

وفي سنة اربع وتسعين وخمسمائة توفي محمد بن عبد السلام المقدسي ثم المارديني^٢ كان ابوه قاضي ماردين وجدته قاضي دُتَيْسِرِ قرأ الطب على ابن التلميذ فبلغ منه الغاية حتى ان الملوك كانت تخطبه من النواحي والاقطار وكان على علو السن يكرَّر على كتب كبار . وقرأ عليه الشهاب السهروردي شيئاً من الحكمة . ولم يصنّف كتاباً مع غزارة علمه وتمكنه وحسن تصرفه فيه الا انه شرح ابيات ابن سينا التي اوتها : هبطت اليك . وكان ابو الخير بن المسيحي يفخم امره ويعظم شأنه .

وفي سنة خمس وستمائة مات موسى بن ميمون اليهودي الاندلسي وكان قد قرأ علم الاوائل بالاندلس وأحكم الرياضيات وقرأ الطب هناك فاجاده علماً ولم يكن له جسارة على العمل . وأكره على الاسلام فآظهره وأسرى اليهودية . ولما التزم بجزيات الاسلام من القراءة والصلاة فعل ذلك الى ان امكنته الفرصة في الرحلة بعد ضم اطرافه فخرج عن الاندلس الى مصر ومعه اهله ونزل مدينة القسطاط بين يهودها فآظهر دينه وارترق بالتجارة في الجواهر وما يجري مجراه . ولما ملك العزيز^٣ مصر وانقضت الدولة العلوية اشتمل عليه القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيسانى ونظر اليه وقرَّر له رزقاً وكان يشارك الاطباء ولا ينفرد برأيه لقلَّة مشاركته ولم يكن وفقاً في المعالجة والتدبير . وكان عالماً بشريعة اليهود وصنّف كتاباً في مذهب اليهود سَمَّاهُ بالدلالة وبعضهم يستجيده وبعضهم يذمُّه ويسمِّيه الضلالة . وغلب عليه النحلة الفلسفية وصنّف رسالة في المعاد الجسماني وانكر عليه مقدمو اليهود فاخضاها الا عمن يرى رأيه . ورأيت جماعة من يهود بلاد الفرنج الغتُم بانطاكية وطرابلس يلعنونه ويسمونه كافرين . وله تصنيفات حسنة في الرياضيات ومقاربة في الطب . وابتلي في آخر زمانه برجل من الاندلس فقيه يُعرف بابي العرب وصل الى مصر وحاققه على اسلامه ورام اذاه فنعه عنه القاضي الفاضل وقال له: رجل يُكره لا يصح اسلامه شرعاً . ولما قرب وفاته تقدَّم الى مخلفيه ان يحملوه

١ - انتخاب و انتخاب .

٢ - العزيز و الفز - . و يروى : الفز والمز وكلاهما غلط . والملك العزيز هو عماد الدين عثمان ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب .

إذا انقطعت راحته الى بحيرة طبرية فيدفنوه هناك لما فيها من قبور صالحهم ففعل به ذلك .

وفي سنة ست وستائة في ذي الحجة توفي بهراة الامام الفخر الرازي محمد بن عمر المعروف بابن الخطيب بالري . وكان من افاضل اهل زمانه بزّ القدمات في الفقه وعلم الاصول والكلام والحكمة وردّ على ابي علي بن سينا واستدرك عليه . وكان يركب وحوله السيوف المجذبة وله الممالك الكثيرة والمرتبة العالية والمنزلة الرفيعة عند السلاطين الخوارزمشاهية . وعنّ له ان تهوّس بعمل الكيمياء وضيع في ذلك مالا كثيرا ولم يحصل على طائل . وسارت مصنفاته في الاقطار واشتغل بها الفقهاء . ورحل الى ما وراء النهر لقصد بني مارة ببخارا ولم يلق منهم خيراً وكان فقيراً يومئذ لا جدّة له فخرج من بخارا وقصد خراسان واتفق اجتماعه بخوارزمشاه محمد بن تكش فقربه وادناه ورفع علمه واسنى رزقه . واستوطن مدينة هراة وتملك بها ملكاً وأولد اولاداً واقام بها حتى مات ودُفن في داره . وكان يخشى ان العوام يمثلون بجثته لما كان يظنّ به من الانحلال . وفي مسيره الى ما وراء النهر يقصد بخارا في حدود سنة ثمانين وخمسةائة اجتاز بعبد الرحمن بن عبد الكريم السرخسي الطيب ونزل عليه فاكرمه وقام بحقه مدّة مقامه بسرخس فاراد ان يفيدته مما لديه فشرع له في الكلام على كليات القانون وشرح المستغلق من الفاظ هذا الكتاب ورسمه باسمه وذكره في مقدمته ووصفه واثى عليه . وفي سنة ثمانى وستائة توفي المسيحي ابن ابي البقاء النيلي نزيل بغداد وكنيته ابو الخير ويُعرف بابن العطار وكان خبيراً بالعلاج قيماً به له ذكر وقرب من دار الخليفة يطبّ النساء والحواطي عاش عمراً طويلاً وحصل مالا جزيلاً وخلف ولداً طبيباً لم يكن رشيداً يكنى ابا علي . ولما مات ابوه اتفق ان كان على بعض مسرّاته اذ كبّس في ليلة الجمعة حادي عشر ربيع الاول من سنة سبع عشرة وستائة وعنده امرأة مسلمة تعرف بست شرف . فلما قبض عليه اقرّ على جماعة من المسلمات كنّ يأتينه لاجل دنياه من جملتهنّ زوجة ابن البخاري صاحب الخزن اسمها اشتياق . فخرج الامر بسجن المرأتين بسجن الطرّارات وفدى ابو علي نفسه بستة آلاف دينار .

وفي سنة تسع عشرة وستائة في المحرمّ توفي علي بن احمد ابو الحسن الطيب المعروف بابن هبل وكان من اهل بغداد عالماً بالطبّ والادب وُلد ببغداد ونشأ بها ثم جاز الى الموصل وخرج الى اذربيجان واقام بخلاط عند صاحبها شاه ارمن يطبّه وقرأ

الناس عليه . وفارق تلك الديار لسبب وهو ان بعض الطشترارية قال له يوماً وقد نظر
 قارورة الملك في بعض امراضه : يا حكيم لِمَ لا تنوقها . فسكت عنه . فلما انفصل
 المجلس قال له في خلوة : قولك هذا اليوم عن اصل أم من قول غيرك او هو شيء
 خطر لك . فقال : انما خطر لي لاني سمعت ان شرط اختبار القارورة ذوقها . فقال :
 الامر كذلك ولكن لا في كل الامراض وقد أسأت اليّ بهذا القول لان الملك اذا سمع
 هذا ظنّ انني قد اخللت بشرط واجب من شروط خدمته . ثم انه عمل على الخروج
 لاجل هذه الحركة والخوف من عاقبتها بعد ان رشا الطشت دار حتى لا يعود الى مثلها .
 وخرج وعاد الى الموصل وقد تمول فأقام بها الى حين وفاته . وعمر حتى عجز عن الحركة
 وعدم بصره فلزم منزله قبل وفاته بسنتين ومات وعمره خمس وتسعون سنة . وكان الناس
 يترددون ويقراون عليه . وصنّف كتاباً حسناً في الطب سماه المختار يجي في اربع
 مجلدات .

وفي سنة عشرين وستائة ثامن وعشرين جمادى الاولى ليلة الخميس قُتل ابو الكرم
 صاعد بن توما النصراني الطبيب البغدادي ويُلَقَّب بأمين الدولة . كان فاضلاً حسن
 العلاج كثير الاصابة وكان من ذوي المروآت تقدّم في ايام الامام الناصر الى ان صار
 في منزلة الوزراء واستوثقه على حفظ امواله وخواصه وكان يودعها عنده ويرسله في امور
 خفية الى الوزير ويظهر له كل وقت . وكان حسن الوساطة جميل المحضر تقضى على
 يده حاجات الناس . وكان الامام الناصر في آخر ايامه قد ضعف بصره وادركه سهو
 في اكثر اوقاته . ولما عجز عن النظر في القصص استحضر امرأة من النساء البغداديات
 تُعرف بست نسيم وقرّبها وكانت تكتب خطأ قريباً من خطه وجعلها بين يديه تكتب
 الاجوبة وشاركها في ذلك خادم اسمه تاج الدين رشيق فصارت المرأة تكتب في الاجوبة
 ما تريد فرّة تصيب ومراراً تخطئ . واتفق ان كتب الوزير القمي المدعو بالمؤيد مطالعة
 وعاد جوابها وفيه اخلال بين فتوقف الوزير وانكر ثم استدعى الحكيم صاعد بن توما
 وسأله عن ذلك سرّاً . فعرّفه ما الخليفة عليه من عدم البصر والسهو الطارئ في اكثر
 الاوقات وما يعتمده المرأة والخادم من الاجوبة . فتوقّف الوزير عن العمل باكثر
 الامور الواردة عليه . وتحقّق الخادم والمرأة ذلك وحدها ان الحكيم هو الذي دلّه على
 ذلك . فقرّر رشيق مع رجلين من الجنّد ان يغتالا الحكيم ويقتلاه وهما رجلان يُعرفان
 بولدي قهر الدين من الاجناد الواسطية . فرصدا الحكيم في بعض الليالي الى ان خرج

من دار الوزير عائداً الى دار الخليفة فتبعاه الى باب الغلّة المظلمة ووثبا عليه بسكينيهما وجرحاه وانهبهما . فبصر بهما وصاح : خذوهما . فعادا اليه وقتلاه وجرحا النفاط الذي بين يديه . وحمل الحكيم ابن توما الى منزله ودفن بداره في ليلته . وبعد تسعة اشهر نُقل الى تربة آبائه في البيعة بباب الحوّل . وبحث الخليفة والوزير عن القاتلين فعرفا وامر بالقبض عليهما وفي بكرة تلك الليلة أُخرجوا الى موضع القتل وشقّ بطناهما وصلبا على باب المذبح المحاذي لباب الغلة التي جُرح في بابها .

(الظاهر بن الناصر) : ولما توفي الناصر لدين الله بويغ ابنه الامام الظاهر بامر الله عدّة الدين ابو نصر محمد في ثاني شوال من سنة اثنتين وعشرين وستائة . وكان والده قد بايع له بولاية العهد وكتب بها الى الآفاق وخُطب له بها مع ابيه علي سائر المنابر . ومضت على ذلك مدّة ثم نفر عنه بعد ذلك وخافه على نفسه فانه كان شديداً قوياً ايّداً عالي الهمة فأسقط اسمه من ولاية العهد في الخطبة واعتقله وضيق عليه ومال الى اخيه الصغير الامير عليّ الأ انه لم يعهد اليه . فانفتقت وفاة الامير عليّ الصغير في حياة والده وخلف اولاداً طفلاً فبعث بهم الى ششتر . فعلم الامام الناصر انه لم يبق له ولد تصير الخلافة اليه بعده غيره فعهد اليه وبايع له الناس وهو في الحبس مضبوط عليه وكانت عامّة اهل بغداد يميلون اليه . فلما توفي الناصر اخرجته ارباب الدولة وبايعوه بالخلافة . وقال لما بويغ : كيف يليق ان يفتح الانسان ذكناً بعد العصر . قد نيّفتُ على الخمسين سنة وأقلّد الخلافة . ثم أظهر من العدل والامن ما لم يمكن وصفه وازال الظلم وردّ على الناس اموالاً جزيلة واملاكاً جلييلة كانت قد أخذت منهم وازال مكوساً كثيرة وكانت قد جُددت . وارتفع عن الناس ما كانوا ألفوه من الخوف في زمان والده فأظهروا نعمتهم وامتنع المفسدون من السعيات . وعقد لبغداد جسراً ثانياً عظيماً جديداً وانفق عليه مالاً كثيراً نهاراً في بغداد على دجلتها جسران . وما زالت دولته كذلك عادلة آمنة منذ ولي الى ان توفي في رابع عشر شهر رجب سنة ثلث وعشرين وستائة بعد تسعة اشهر من ولايته .

* * *

وفيه مات يوسف بن يحيى بن اسحق السبتيّ المغربيّ . هذا كان طبيباً من اهل قادس وقرأ الحكمة بجلادة فشدا فيها وعانى شيئاً من علوم الرياضة فأجادها وكانت حاضرة على ذهنه عند المحاضرة . ولما ألزم اليهود في تلك البلاد بالاسلام او الجلاء كتم دينه وارتحل الى مصر بماله واجتمع بموسى بن ميمون القرطبيّ رئيس اليهود بمصر وقرأ

عليه شيئاً وسأله اصلاح هيئة ابن افلح الاندلسي^١ فانها صحبته من سبته فاجتمع هو وموسى على اصلاحها وتحررها . وخرج من مصر الى الشام ونزل حلب وأقام بها واشترى ملكاً قريباً وتزوج وخدم اطباء الخاص في الدولة الظاهرية بحلب وكان ذكياً حاد الخاطر . قال القاضي الاكرم رحمه الله : كان بيني وبين يوسف هذا مودة طالبت مدتها فقلت له يوماً : ان كان للنفس بقاء وتعقل به حال الموجودات من خارج بعد الموت فعاهدني على ان تأتيني ان متَّ قبلي وآتيك ان متَّ قبلك . فقال : نعم . ووصيه ان لا يغفل . ومات واقام سنتين ثم رأيت في النوم وهو قاعد في عرصة مسجد من خارجه في حضيرة له وعليه ثياب جدد بيض من النصف فقلت له : يا حكيم ألسنتُ قررت معك ان تأتيني لتخبرني بما ألفت . فضحك وادار وجهه فأمسكته بيدي وقلت : لا بدَّ ان تقول لي كيف الحال بعد الموت . فقال لي : الكلّي لحق بالكلّ وبقي الجزئي في الجزء . ففهمت عنه في حاله كأنه اشار الى النفس الكلية عادت الى عالم الكلّ والجسد الجزئي بقي في الجزء وهو المركب الارضي^٢ . فتعجبت بعد الاستيقاظ من لطيف اشارته . نسأل الله العفو عند العود اليه بعد الموت .

(المستنصر بن الظاهر) ولا تُوفّي الامام الظاهر بأمر الله بُويع ابنه جعفر المنصور ولُقّب المستنصر بالله بُويع يوم مات والده . ولا بُويع البيعة العامة ركب للناس ركوباً ظاهراً واستمرّ على هذه الحالة مدّة طويلة لا يخفي في ركوبه من الناس وأظهر من العدل وحسن السيرة اضعاف ما اظهره والده وأفاض من الصدقات ما أربى على من تقدمه وتقدّم بانشاء مدرسته المعروفة بالمستنصرية التي لم يعمّر في الدنيا مثلها فعمّرت على اعظم وصف في صورتها وآلاتها واتساعها وزخرفها وكثرة فقهاءها ووقوفها . ووقفها على المذاهب الاربعة ورتّب فيها اربعة من المدرّسين في كل مذهب مدرّساً وثلاثمائة فقيه . لكلّ مذهب خمسة وسبعون فقيهاً . ورتّب لهم من المشاهرات والخبز والطعام في كل يوم ما يكفي كل فقيه ويفضل عنه وبنى لهم داخل المدرسة حمّاماً خاصاً للفقهاء وطيباً خاصاً يتردّد اليهم في بكرة كل يوم يفتقدهم ومخزناً فيه كل ما يحتاج اليه من انواع ما يُطبخ من الاطعمة ومخزناً آخر فيه انواع الاشربة والادوية .

وفي سنة اربع وعشرين وستائة تُوفي الملك المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق في سلخ ذي القعدة وكان عمره ثمانياً واربعين سنة^٣ . وكانت همته عالية وصار

١ - ويروي : المركز الارضي .

٢ - كان ملكه لمدينة دمشق من حين وفاة والده الملك العادل عشر سنين وستة اشهر .

ملكه بدمشق والقدس والسواحل الى ولده الملك الناصر صلاح الدين داود فاستقر ملكه بها وحمل عمه الملك العزيز وعمه الملك الصالح الغاشية بين يديه

وفيها قفل جنكزخان من الممالك الغربية الى منازلها القديمة الشرقية ثم رحل من هناك الى بلاد تنكوت^١ وهناك عرض له مرض من عفونة ذلك الهواء الوخيم ولما قوي مرضه استدعى اولاده جغتاي واوكتاي والغ نوبين وكلكان وجورختساي واوردجار^٢ وقال لهم: اني قد ايقنت مفارقة الدنيا لعجز قوتي عن حمل ما بي من الآلام ولا بد من شخص يقوم بحفظ المملكة على حالها والذَّب عنها. وقد اعلمتكم غير مرة ان ابني اوكتاي يصلح لهذا الشأن لما رأيت من مزية رأيه المتين وعقله المبين والآن فقد جعلته ولي عهدي وقلدته ما بيدي من جميع الممالك فما قولكم في هذا الذي استصوبته. فجثا الاولاد والنوبنية المذكورون على ركبهم وقالوا: جنكزخان هو المالك للرقاب ونحن العبيد السامعون المطيعون في جميع ما يتقدم به على وفق مراده ومرسومه. وعند فراغه من الوصية اشتد وجعه وتوفي لاربع مضي من شهر رمضان سنة اربع وعشرين وستائة وكان مدة ملكه نحو خمس وعشرين سنة^٣. فأرسل الولدان والامراء الرسل الى باقي الاولاد والامراء ليجتمعوا في القوريلتاي^٤ اي في المجمع الكبير.

وفي سنة خمس وعشرين وستائة ترددت الرسل بين الفرنج والملك الكامل في طلب الصلح فاتفق على تسليم البيت المقدس الى الفرنج فسلموه ومواضع كثيرة آخر من بلاد الساحل. وانما اجابهم الكامل لما رأى من كثرة عساكرهم وامداد البحر لهم بالرجال والاموال فخاف على بلاده ان تؤخذ منه عنوة فأرضاهم بذلك.

وفي سنة ست وعشرين وستائة تم اجتماع الاولاد وامراء المغول فوصل من طرف القفجاق الاولاد توشي^٥ هردو باتوا سيان تنكوت بركة بركجار بغاتيمور اقناس جغتاي. ومن طرف اتميل اوكتاي. ومن طرف المشرق عمهم اوتكين وبلكتاي نوبين واجتاي نوبين والغ نوبين. واما الاولاد الصغار فكانوا في اردو^٦ جنكزخان. وفي

١ - تنكوت بلاد شرقي التبت وغربي نهر الصين المسمى «هو» النهر الاصفر.

٢ - اوردجار ووردجان. - وروى: اروجان. وروى في نسخة خطية: اردوجار.

٣ - قال دي كوين في تاريخه انه ملك اثنتين وعشرين سنة وعمر ستاً وستين سنة.

٤ - وروى: القمريلياي.

٥ - يريد توشي واولاده كما سيرد في الصفحة ٢٤٨ من هذا الكتاب. وهناك يروى سيبقان بدل سيان

وفي نسخة خطية: سيقان بدون ياء. ومعنى توشي: الضيف.

٦ - اردو معناها بالتركية المعسكر والمحلة. وقد تستعملها العامة في وقتنا فتقول: اوردى وعرضي.

زمن الربيع حضروا كلهم في عساكرهم وثلاثة ايام متوالية فرحوا جميعاً ثم شرعوا فيما تقدم به جنكزخان من الوصية والعهد بالمملكة الى اوكتاي فامثلوا كلهم الاوامر الجنكزخانية واعترفوا بأهليته لذلك . فاستقاهم اوكتاي الولاية قائلاً : ان امر الوالد وان كان لا اعتراض عليه لكن ههنا اخ اكبر مني واعمام هم اول مني بها . فلم يُقيلوه ايّاهما واصروا على انه لا بد من امثال مرسوم الوالد وداموا على اصرارهم اربعين يوماً وما زالوا يتضرعون اليه ويلحون عليه بالمسئلة حتى اجاب الى ذلك فكشفوا رؤوسهم ورموا مناطقهم على اكتافهم واخذ جفائني اخوه الكبير بيده اليمنى واوتكين عمه بيده اليسرى فأجلساه على سرير المملكة ولقباه قان ولزم له الغ نوبن كأس شراب فسقاه وجثا كل من كان حاضراً داخل الخبز كاه وخارجها على ركبتيه تسع مرّات ودعوا له ثم برزوا كلهم الى خارج وجثوا ثلث مرّات حيال الشمس . وانما اختص الغ نوبن بلزوم الكاس لانه اصغر اولاد جنكزخان وفي عادة المغول ان الابن الصغير لا يقتسم ولا يخرج عن بيت ابيه واذا مات الاب فهو يتولّى تدبير المنزل . ففي تلك الاربعين يوماً كان يقول اوكتاي : ان الغ نوبن هو صاحب البيت واكثر مواظبة لخدمته وابلغ مني تعلماً لسياسته فالمصلحة تفويض هذا الامر اليه . فلذلك سبق الجميع بتصريح الطاعة . واما الامراء فانتخبوا من بناتهم الابكار الصالحة لخدمة قان اربعين بنتاً وحملوهن مزيّنات بالحلي الفاخرة والحيل الرائعة الى خدمته . ولما فرغ من هذه الامور صرف همته الى ضبط المالك وجهز جورماغون في ثلثين الف فارس وسيّرهم الى ناحية خراسان وأنفذ سنتاي بهادر^١ في مثل ذلك العسكر الى جانب قفجاق وسقسين وبلغار وجماعة اخرى الى التبت وقصد هو بنفسه بلاد الخطا .

وفي سنة سبع وعشرين وستائة في اوائلها نزل السلطان جلال الدين خوارزمشاه على خلاط وحاصرها اشد حصار وشتى عليها ونصب عليها عشرين منجنيقاً على ناحية البحر وفيها اخو الملك الاشرف تقي الدين عباس ومجير الدين يعقوب والامير حسام الدين القيمري وعز الدين ايبك مملوك الاشرف . فدام الحصار على اهل خلاط واشتد حتى اكلوا لحوم الكلاب وبلغ الخبز كل رطل بالشامي بدينار مصري قنسلّم خوارزمشاه المدينة والقلعة وانهم حسام الدين القيمري وافلت على فرس وحده ومضى الى قلعة قيمر ثم تجهز الى خدمة الملك الاشرف الى الرقة واقام عز الدين ايبك وتقي الدين ومجير الدين مع خوارزمشاه يركبون معه ويلعبون بالكرة . ولما طارت الاخبار

١ - وروى : سيتاي بهادر . ومعنى بهادر البطل .

الى الملك الاشرف بذلك انزعج وأساراً جريدة الى أبلستين. فتلقاه صاحب الروم علاء الدين كيقباز من فراسخ واجتمعا ولحقت الملك الاشرف عساكره وخرج علاء الدين بعساكره الى اق شهر هو والملك الاشرف وخرج الخوارزمي من خلاط للقائم وكان في اربعين الفاً والتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً في يوم الجمعة وكان الغلبة فيه للملك الاشرف والروميّ وباتوا ليلة السبت على تعبيتهم الى الفجر من يوم السبت فالتقوا واقتتلوا فانكسر الخوارزمي كسرة عظيمة وانهزم وقُتل من اصحابه خلق لا يحصي عددهم الا الله وانهزم مثلهم وأسّر مثلهم وبلغت هزيمتهم الى جبال طرايزون فوقع منهم في شقيف هناك الف وخمسة رجل . وساق خوارزمشاه الى صوب خرتبرت فوصلها في يوم ليلة ونجا بنفسه ومضى الى بلاد العجم فاقام في خوى . وكان قد بعث تقي الدين عباس اخا الاشرف اسيراً مقيداً الى بغداد هدية فأعاده الخليفة المستنصر مكرماً الى الاشرف فوصل الاشرف الى خلاط واصلح احوالها ورمّمها ثم بعث رسولاً الى خوارزمشاه يسأله الاحسان الى من معه من الاسارى فأجابه بأنّ عندي منكم ملوكاً وعندكم منّا ممالك فان اجبتم الى الصلح فانا موافق عليه . فأجابه الملك الاشرف : انك فعلت ببلادنا ما فعلته وما ابقيت من سوء المعاملة والمقابحة شيئاً الا وقد علمته خربت البلاد وسفكت الدماء فان اردت الصلح فانزل عن البلاد التي تغلبت عليها ولم تكن لأبيك لنعمر منها ما خربت . واما قولك بان عندك منّا ملوكاً فالذي عندك اخي مجير الدين يعقوب نحن نقدر انه مات فاخوتي عوضه ونحن بحمد الله في جماعة اهل بيت واولاد واقارب نزيد على التي فارس وانت ابتر ما لك احد وخلقك اعداء كثيرة . فضى الرسول بهذا الجواب فلم يجبه الخوارزمي الى ما طلبه ولا استقرّ بينهما امر . وكان عزّ الدين ايبك قد سجنه خوارزمشاه في قلعة اختار فأحضر وقُتل . ثم وصله خبر عبور جورماغون نوبن نهر امويه في طلبه فتوجّه الى تبريز وأرسل رسولاً الى الخليفة وآخر الى الملك الاشرف وصحبته زوجة الامير حسام الدين القيمري التي كان قد اسرها من خلاط ورسولاً الى السلطان علاء الدين صاحب الروم يستجيشهم ويعلمهم كثرة عساكر التاتار وحدة شوكتهم وشدة نكايتهم وانه اذا ارتفع هو من بين يعجزون عن مقاومتهم وانه كسد الاسكندر يمنعهم عنهم فالرأي ان يساعده كل منهم بفوج من عساكره ليرتبط بذلك جأش اصحابه ويحجم بهم العدو عن البلاد فيحجم . قال من هذا النوع واكثر واستصرخهم فلم يصرخوه واستغاثهم فلم يغيثوه فشتى بأرمية واشتوا . وفي الربيع توجه

الى نواحي ديار بكر وصار يزجي اوقاته بالتمتع باللهو والشراب والطرب كانه يودع الدنيا وملكها الفاني . وبينما هو في ذلك يسر لا بل يغتر فجنه هجوم بايماس نوين في عسكره ليلاً فتكلفت للانتباه وعابن نيران المغول بالقرب من مكانه فتقدم الى الامير اورخان ان يلم به الجماعة ويشغل المغول عند الصبح بالاقدام تارة والاحجام أخرى وفرّ هو مع ثلاثة نفر من مماليكه تائهاً في جبال ديار بكر . فلما اصبحوا ظنّ المغول ان جلال الدين خوارزمشاه فيهم فجدّوا في طلبهم طاردين في اعقابهم وهم منهزمون بين ايديهم ولما تحققوا انه ليس معهم رجعوا عنهم . فاما جلال الدين خوارزمشاه فأوقع به قوم من الاكراد ببعض جبال آمد ولم يعرفوه وقدروه من بعض جند الخوارزمية فقتلوه والمملوكين طمعاً في ثيابهم وخيلهم وسلاحهم . استنبط ذلك من جهة ان بعد مديدة يسيرة دخل بعض اولئك الاكراد الى آمد وعليه من سلاح جلال الدين . فغرفه مملوك له كان قد لجأ الى صاحب آمد فقُبض الكردي وقرّر فأقرّ بما افعله هو واصحابه فأحضرهم وقتلهم حقاً عليهم . وقال قوم ان المقتول لم يكن جلال الدين وانما كان سلاحداره لانه يومئذ لم يحمل سلاحاً ولا كان يلبس ثياب العادة وانما كان بزّي الصوفية مع اصحابه ولذلك دائماً كان يرحف الناس ان جلال الدين خوارزمشاه قد رأوه بالبلد الفلاني وبالمدينة الفلانية حتى انه في سنة اثنتين وخمسين وسمائته اتفق جماعة من التجار عابرين على نهر جيحون وهناك القراغول وهم مستحفظو الطرق فأنكروا على فقير كان صحبة التجار مجهول فلما قرّروه أقرّ انه جلال الدين خوارزمشاه فقبضوه وكرّروا عليه العذاب والسؤال فلم يغيّر كلامه الى ان مات تحت العقوبة . فان لم يكن هو واعتمد ذلك الى هذه الغاية فلا شك ان الجنون فنون .

ولما استقرّ قان في الملك وانقاد له القاصي والداني من جيوش المغول عزم على فتح بلاد الخطا وسيّر في مقدمته اخويه جغاتاي والغ نوين وباقي الاولاد في عساكر عظيمة . فساروا ونازلوا اولاً مدينة يقال لها حرجا بنو يقسين وهي على شط قراموران فأحاطوا بها وحاصروها مدة اربعين يوماً وكان فيها عشرة آلاف من فرسان الخطا فلما عابنوا العجز عن مقاومة المغول ركبو السفن التي كانوا اعدوها هاربين . وطلب اهل البلد الامان فأومنوا ورتب المغول عندهم الشحاني وقصدوا باقي المواضع . وجهاز قان اخاه الغ نوين وولده كيوك وسيّرهم في عشرة آلاف فارس في المقدمة وسار هو بعقبهم

١ - وروي: خوجا .

٢ - معنى قراموران بلغة التتر النهر الاسود .

فتمهل ومعه العسكر الكبير . فجيش التون خان ملك الخطا^١ مائة الف من شجعانه وقدّم عليهم اميراً^٢ من امرائه وأنفذهم للقاء المغول . فلما وصلوا اليهم استحقروهم لقتلهم بالنسبة اليهم وتهاونوا في امرهم وارادوا ان يسوقوهم كما هم الى ملكهم التون خان ليفرجوا بهم عنه نعمه اذا هو ضرب عليهم حلقة وصادهم صيداً . فشغلهم المغول بفتور المكافحة واطمعوهم الى ان وصلت الافواج التي مع قان فأوقعوا بعسكر الخطا ولم يفلت منهم الا النزر . وكان التون خان بمدينة تسمى نامكينك^٣ فلما بلغه الخبر بما جرى على اصحابه ارتاع وأيس من حياة الدنيا وجمع اولاده ونساءه وكل من يعزّ عليه ودخلوا بيتاً من بيوت الخشب وأمر بضرب النار فيه فاحترق هو ومن معه أنفة^٤ من الوقوع في اسر المغول . ودخلت عساكر المغول الى المدينة ونهبوا وأسروا البنين والبنات وأمّنوا الباقي . وفتحوا غيرها من المدن المشهورة ورتّب بها قان الشحاني وقفل الى مواضعه القديمة وبنى بها مدينة سماها اردوباليق وهي مدينة قراقورم واسكنها خلقاً من اهل الخطا وتركستان والفرس والمستعربين . وبينما هم مسرورون بفتح بلاد الخطا توفّي تولى خان وكان احب الاخوة الى قان فاغتم^٥ لذلك كثيراً وأمر ان زوجته المسماة سرقوتى بيكي وهي ابنة اخي اولئك خان تتولّى تدبير عساكره وكان لها من الاولاد اربعة بنين مونككا قوبلاي هولاكو اريغ بوكا . فأحسن تربية الاولاد وضبط الاصحاب وكانت لبيبة مؤمنة تدين بدين النصرانية تعظم محل المطارزة والرهبان وتقتبس صلواتهم وبركتهم وفي مثلها قال الشاعر :

فلو كان النساءُ كمثل هذه لفضّلت النساءُ على الرجالِ

وبعد قليل مات ايضاً الاخ الكبير وهو المسمّى توشي وخلف سبعة بنين وهم تمسل هردو باتوا سيبقان تنكوت برکه بركجار . ومن بين هؤلاء لباتوا سلّم قان البلاد الشمالية وهي بلاد الصقالبة واللآن والروس والبلغار وجعل مخيمه على شاطئ نهر اتل وغزا هذه النواحي فقتل فيها خلائق بلغ عددهم مائتي الف وسبعين الفاً علّم ذلك من آذان القتلى التي قطعوها امثالاً لمرسوم قان لانه تقدّم بقطع الاذن اليمنى من كل قتيل . وبعد فراغ باتوا من امر الصقالبة تجهز للدخول الى نواحي القسطنطينية فبلغ

١ - التون او الطون معناه الذهب وخان هو الملك بلغتهم . والظون خان لقب ملوك الخطا من آل كين ومعنى

كين ايضاً الذهب

٢ - اميراً و اميرين .

٣ - و يروى : نامليك

ذلك ملوك الفرنج فجاءوا حافلين حاشدين والتقوا المغول في اطراف بلد البلغار وحرت بينهم حروب كثيرة انجلت عن كسرة المغول وهزيمتهم وهربهم ففقلوا من غزاتهم هذه ولم يعدوا يتعرضون الى بلاد يونان وفرنجة الى يومنا هذا .

وفي سنة ثلثين وستائة ارسل السلطان علاء الدين كيقباز صاحب الروم رسولا الى قان وبذل الطاعة . فقال قان للرسول : انا قد سمعنا برزاة عقل علاء الدين واصابة رأيه فاذا حضر بنفسه عندنا يرى منا القبول والاکرام ونوليه الاحتاجية في حضرتنا وتكون بلاده جارية عليه . فلما عاد الرسول بهذا الكلام تعجب منه كل من سمعه واستدل على ما عليه قان من العظمة . وفيها اخذ علاء الدين خلاط وسرمارى^١ من الملك الاشرف وغزا الاشرف مدينة حصن منصور واغار عليها واخذ الكامل مدينة آمد من صاحبها وعوضه عنها قرى بالشام . وفيها توفي مظفر الدين كوكبري بن زين الدين علي كوجك صاحب اربل في رمضان وحمل الى مكة فدفن بها وولي اربل انسان شريف يقال له ابو المعالي محمد بن نصر بن صلايا من قبل الخليفة المستنصر . وفي سنة احدى وثلثين وستائة مات ناصر الدين محمود بن القاهر بن نور الدين صاحب الموصل ووصل التقليد من الخليفة لبر الدين لؤلؤ بالولاية فخطب له على المنابر بالسلطنة . وفي سنة اثنتين وثلثين حصر السلطان علاء الدين مدينة الرها وملكها عنوة فدخلها الروميون ووضعوا السيف بها ثلاثة ايام وقتلوا النصارى والمسلمين فتكأ ونهبأ فأصبح الرهاويون فقراء لا يملكون شيئا ونهب البيع وأخذ ما فيها من الكتب والصلبان وآلات الذهب والنقرة وحمل اهل حران مفاتيح قلعتها فلكوها هدنة وملكوا الرقة والبيرة ايضا . فلما عاد عنها عسكر الروم قصد الملك الكامل الرها وحاصرها اربعة اشهر ثم ملكها وهدم برجاً كبيراً من ابرجة قلعتها وحمل من وجد بها من الروميين كل اثنين على حمل وبعث بهم الى مصر مقبدين .

وفي سنة ثلث وثلثين وستائة غزا التاتار بلد اربل وعبروا الى بلد نينوى ونزلوا على ساقية قرية ترجلى^٢ وكرمليس فهرب اهل كرمليس ودخلوا بيعتها وكان لها بابان فدخلها المغول وقعد اميران منهم كل واحد على باب واذنوا للناس في الخروج عن البيعة فن خرج من احد بابيها قتلوه ومن خرج من الباب الآخر اطلقه الامير الذي على ذلك الباب وابقاه فتعجب الناس لذلك .

١ - سرمارى بضم اوله وسكون ثانيه قلعة عظيمة وولاية واسعة بين تفليس وخلاط .

٢ - هي ترجلية . ويروى : على ساقية قرية كرمليس .

وفي سنة اربع وثلثين وستائة تُوفّي السلطان علاء الدين كيقباز صاحب الروم بغتة لانه كان قد صنع دعوة عظيمة حضر بها الامراء الاكابر واتباعهم واكثر الجند .
 فبينما هو يظهر السرور والفرح ويتباهى بما أعطي من الملك اذ حسّ بوجع في احشائه
 واخذته حِلْفَةٌ فاختلف الى المتوضّل فانسهل برازاً دموياً صرفاً كثير المقدار وسقطت
 قوته في الحال . وفي اليوم الثاني من هذا العرض مات وكان ملكه ثماني عشرة سنة وكان
 عاقلاً عفيفاً ذا بأس شديد على حاشيته وامرائه وكانت الدولة السلجوقية قبله محلولة
 بسبب الخلف الواقع بين اولاد قلعج ارسلان فلما وليها علاء الدين اعاد جدّها وجدّد
 ناموسها وألقى الله هيئته في قلوب الخلق فأطاعوه واتسع ملكه جداً ودان له العالم وبحق
 قيل له سلطان العالم وحضر عنده الملوك واذعنوا له بالطاعة وكان قاسي القلب . ولما
 تُوفّي احضر الامراء ولده غياث الدين كيخسروا فبايعوه وحلفوا له . وفيها تُوفّي الملك
 العزيز بن الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب وولي بعده ابنه الملك الناصر
 صلاح الدين وهو آخر الملوك من بيت ايوب قتله هولاءكو في سنة ثماني وخسين وستائة .
 وفيها اعني سنة اربع وثلثين في شهر شوّال غزا التاتار بلد اربل وهرب اهل المدينة الى
 قلعتها . فحاصروها اربعين يوماً ثم أعطوا مالا فرحلوا عنها . ولما ولي السلطان غياث الدين
 كيخسرو السلطنة ببلد الروم قبض على غاير خان امير الخوارزمية فهرب باقي الخوارزمية
 وامراؤهم ولما اجتازوا بملطية وكاختين^١ وخرتبرت^٢ اسروا سيف الدولة السوباشي^٣
 وقتلوا ببرمير^٤ سوباشي خرتبرت واغاروا على بلد سميساط وعبروا الى السويداء فأقطعهم
 الملك الناصر صاحب حلب ما بين النهرين الرها وحرّان وغيرهما فكفّوا عن الفساد
 والغارات . وفي سنة خمس وثلثين وستائة تُوفّي الملك الاشرف بن الملك العادل بن ايوب
 بدمشق وكان عمره ستين سنة وكان كريماً سخياً مقبلاً على التمتع بالدنيا ولذاتها يزجي
 اوقاته برفاغية من العشب . وفيها مات ايضاً الملك الكامل بن الملك العادل بن ايوب
 صاحب مصر بدمشق ودفن بها وكان عمره سبعين سنة وكان عاقلاً فاضلاً حسن السياسة
 كثير الاصابة سديد الرأي شديد الهيبة عظيم الهمة محباً للفضائل واهلها .

١ - لعلها كاختا . قال ابو الفداء: كاختا قلعة عالية البناء لا ترام حصانةً بينها وبين ملطية مسيرة يومين
 وملطية عنها في جهة الغرب .

٢ - خرتبرت هو الحصن المعروف بحصن زياد في اقصى ديار بكر من بلاد الروم بينه وبين ملطية
 مسيرة يومين وبينها الفرات .

٣ - وروى: الزوباشي .

٤ - وروى: تبرمير .

وفيهما غزا التاتار العراق ووصلوا الى تخوم بغداد الى موضع يسمى زنكاباذ والى سرمرآى^١ . فخرج اليهم مجاهد الدين الدويدار وشرف الدين إقبال الشرايى في عساكرهما فلقوا المغول وهزموهم وخافوا من عودهم فصبوا المنجنيقات على سور بغداد . وفي آخر هذه السنة عاد التاتار الى بلد بغداد ووصلوا الى خانقين فلقبهم جيوش بغداد فانكسروا وعادوا منهزمين الى بغداد بعد ان قُتل منهم خلق كثير وغنم المغول غنيمة عظيمة وعادوا . وفيها حدث ببغداد مدّة دجلتها مدّاً عظيماً هائلاً وغرق دور كثيرة وغرق سفينتان فهلك فيهما نحو خمسين نسمة . وفي سنة سبع وثلاثين وستائة جهز السلطان غياث الدين جيوشاً الى ارمينية فامتنع المغول من الدخول الى بلد الروم .

وفي سنة ثمانى وثلاثين وستائة ظهر ببلد اماسيا من اعمال الروم رجل تركمانى ادعى النبوة وسمى نفسه بابا فاستغوى جماعة من الغاغة بما كان يخيل اليهم من الحيل والمخاريق . وكان له مريد اسمه اسحق يتزياً بزى المشايخ فانفذه الى اطراف الروم ليدعو التركمانين الى المصير اليه . فوافى اسحق هذا بلد سميساط واطهر الدعوة لبابا فاتبعه خلق كثير من التركمان خصوصاً وكثف جمعه وبلغ عدد من معه ستة آلاف فارس غير الرحالة فحاربوا من خالفهم ولم يقل كما يقولون لا اله الا الله بابا رسول الله فقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين والنصارى من اهل حصن منصور وكاخنتين وكركر^٢ وسميساط وبلد ملطية ممن لم يتبعهم وكانوا يهزمون كل من لقيهم من العسكر حتى وصلوا الى اماسيا . فانفذ اليهم السلطان غياث الدين جيشاً فيه جماعة من الفرنج الذين في خدمته فحاربوهم وكان الجند المسلمون لم يتجرأوا عليهم ويحجموا عنهم لما توهموا منهم . فأخّر الفرنج المسلمين وتولّوا بانفسهم محاربة الخوارج فكشفوهم ورموا فيهم السيف وقتلوهم طراً واسروا الشيخين بابا واسحق فضرب عنقاها وكفوا الناس شرهم .

وفي سنة تسع وثلاثين حاصر جرماغون نوبن مدينة ارض الروم وملكها عنوةً وقتل فيها خلائق من اهلها وسبى الذراريّ وشنّ الغارة عليها وقتل سنان سوباشها . وفي سنة اربعين وستائة سار السلطان غياث الدين كيخسروا الى ارمينية في جمع كثير وجهاز لم يتجهز احد مثله في عساكره وعساكر اليونانيين والفرنج والكرج والارمن والعرب

١ - وروى: سرّ من رأى.

٢ - قال ابو الفداء: كركر قلعة حصينة شاهقة وترى الفرات منها كالجداول الصغير وهي على جانب الفرات الغربي . وهي بالقرب من كختا من شرقها .

لمحاربة التاتار فالتقى العسكران بنواحي ارزنكان^١ بموضع يسمى كوساذاغ وأول وهلة باشر المسلمون ومن معهم الجيوش النصرانية الحرب وهلوا وادبروا وولوا هارين فانهمز السلطان مبهوتاً فاخذ نساءه واولاده من قيسارية وسار الى مدينة انقورة فتحصن بها . واقام المغول يومهم ذلك مكانهم ولم يقدموا على التقدم فظنوا ان هناك كميناً اذ لم يروا قتالاً يوجب هزيمتهم وهم في تلك الكثرة من الامم المختلفة . فلما تحققوا الامر انتشروا في بلاد الروم فنازلوا اولاً مدينة سيواس فملكوها بالامان واخذوا اموال اهلها عوضاً عن ارواحهم واحرقوا ما وجدوا بها من آلات الحرب وهدموا سورها . ثم قصدوا مدينة قيسارية فقاتل اهلها اياماً ثم عجزوا وفتحوها عنوة ورموا فيها السيف وابادوا اكابرها واغنياءها معاقبين على اظهار الاموال وسبوا النساء والاولاد وخربوا الاسوار وعادوا ولم يتوغلوا في باقي بلاد السلطان . ولما سمع اهل ملطية ما فعل التاتار بقيسارية هلعوا وحزوا فحش الجزع . فاجفل رشيد الدين الخويني^٢ اميرها ومعه اصحابه طالين حلب وكذلك من امكنه الهرب من امائلها . وكان من جملة من يريد الخروج بأهله والدي فأحضر الدواب وكان لنا فيها بغل للسرجه فلما ارادوا شد الاكاف عليه ليحملوه شمس وتفلت . فبينما هم يتبعونه في الزقاق ليلزموه قالوا لهم : ان الفتيان من العامة وثبو في باب المدينة وينهبون كل من رأوه يخرج . فأمسك والذي عن الخروج واجتمع بالمطران دينوسيوس وتشاوروا في مرابطة المدينة وجمعوا المسلمين والنصارى في البيعة الكبيرة وتحالفوا ان لا يخون بعضهم بعضاً ولا يخالفوا المطران في جميع ما يتقدم اليهم من مداراة التاتار والقيام بحفظ المدينة والبيتوتة على اسوارها وكف اهل الشر عن الفساد . فنظر الله الى حسن نياتهم ودفع العدو عنهم ووصلوا بالقرب من ملطية ولم يتعرضوا اليها . واما الذين خرجوا من المدينة مجفلين فادركهم المغول عند قرية يقال لها باجوزة على عشر فراسخ من المدينة فقتلوا الرجال وسبوا النساء والاولاد ومن سلم منهم في المغائر والشعاب والادوية الغائرة من النساء والرجال عاد الى ملطية عرياناً حافياً وكان ذلك في شهر تموز سنة الف وخمسمائة واربع وخمسين للاسكندر . وكر المغول على مدينة ارزنكان وملكوها عنوة وقتلوا رجالها وسبوا الذراري ونهبوها وخربوا سورها ومضوا . ولما رأى السلطان العجز عن مقاومة التاتار ارسل اليهم رسلاً يطلب الصلح فصالحوه على مال وخيل واثواب وغيرها يعطيهم كل سنة مبلغاً معيناً مقاطعة .

١ - ارزنجان واهلها يقولون ارزنكان بالكاف بلدة من بلاد ارمنية بين بلاد الروم وغلط قرية من ارزن الروم .

٢ - وروى : الجويني .

وفيهما تُوفِّي الإمام المستنصر بالله الخليفة ببغداد وكان عاقلاً عادلاً لبيماً كريماً كثير الصدقات عمّر المدارس والمساجد والرباطات القديمة وكان قد تهدّم معظمها ومن شدّة غرامه بمدرسه المعروفة بالمستنصريةً اعمر لصقها بستاناً خاصاً له فقلّ ما يمضي يوم إلا ويركب في السيارة ويأتي البستان ينزه فيه ويقرب من شبك مفتوح في ايوان المدرسة ينظر الى البستان وعليه ستر فيجلس وراء الستر وينظر الى المدرسة ويشاهد احوالها واحوال الفقهاء ويشرف عليهم ويتفقد احوالهم . وكانت مدة خلافته نحو ثمانين عشرة سنة .

• • •

وفي سنة خمس وعشرين وستمائة تُوفِّي حسنون الطبيب الرهاوي وكان فاضلاً في فنه علماً وعملاً ميمون المعالجة حسن المذاكرة بما شاهده من البلاد . وكان اكثر مطالعته في كتاب اللوكري في الحكمة . وكان شيخاً بديناً بهياً دخل الى مملكة قلعج ارسلان وخدم امراء دولته كأمر اخور سيف الدين واختيار الدين حسن واشتهر ذكره . ثم خرج الى ديار بكر وخدم من حصل هناك من بيت شاه ارمن وهزارديناري ثم الداخلين على تلك الديار من بيت ايوب ورجع الى الرها . ولما تحقق ان طغرل الخادم تولّى اتابكية حلب وله به معرفة من دار استاذة اختيار الدين حسن في الديار الرومية جاء اليه الى حلب ولم يجد عنده كثير خير ونخاب مسعاه فانه كان منكسراً عند اجتماعه به وانفصاله عنه . فلما عوّب الخادم على ذلك من احد خواصه قال : انا مقصّر بحقه لاجل النصرانية . ولما عزم على الارتحال الى بلده ادركته حمى اوجبت له اسهالاً سحجياً ثم شاركت الكبد في ذلك فقضى نحبه ودُفن في بيعة العاقبة بحلب .

وفي سنة ستّ وعشرين وستمائة تُوفِّي يعقوب بن صقلان الطبيب النصراني الملكي المقدسي وكان مولده بالقدس الشريف وبه قرأ شيئاً من الحكمة على تاذوري الفيلسوف الانطاكي وسيأتي ذكره بعد هذا التاريخ . واقام يعقوب هذا بالقدس على حالته في مباشرة البيارستان الى ان ملكه الملك الاعظم بن الملك العادل بن ايوب فاخصّ به ولم يكن عالماً وانما كان حسن المعالجة بالتجربة البيارستانية ولسعادة كانت له . ثم نقله الملك المعظم الى دمشق وارتفعت عنده حاله وكثر ماله وادركه نفرس ووجع مفاصل أقعده عن الحركة حتى قيل ان الملك المعظم كان اذا احتاج اليه في امراضه استدعاه

بمحفةٌ تُحمل بين الرجال . ولم يزل على ذلك الى ان مات المعظم صاحبه ومات هو بعده بقليل .

ومن الاطباء المشهورين في هذا الزمان الحكيم ابو سالم النصرانيّ البغداديّ الملقب بالمعروف بابن كرابا ا خدم السلطان علاء الدين كيقباز صاحب الروم وتقدّم عنده وكان قليل العلم بالطب الا انه كان اهلاً لمجلسه لفصاحة لهجته في اللسان الروميّ ومعرفته بأيام الناس وسيّر السلاطين . وفي سنة اثنتين وثلاثين لما سار علاء الدين من ملطية الى خرتبيرة ليملكها تحلّف عنه ابو سالم هذا ولم يسر في ركابه وكان السلطان لا يصبر عنه ساعة . ولما بات السلطان على الفرات ولم يأتِه الحكيم امر الشحنة الذي على الزواريق ان نهار غد ان جاء ابو سالم قبل الزوال فليعبّر وان جاء بعده لا تمكنه من العبور . فلما كان من الغد تأخّر مجيئه الى العصر فاخبره الشحنة بمرسوم السلطان فأحسّ بتغيّر فعاد الى منزله وشرب سماً ومات . ومنهم الحكيم شعون الخرتبرتي وكان ايضاً ضعيف العلم لكنه كان خبيراً ديناً كثير الصوم والصلاة . وانتشى له ولد حسن محصل واجاد الخطّ العربيّ وصار فيه طبقة ومات في حداثة سنة ففجعت مصيبيته أباه .

وفي هذا الزمان كان جماعة من تلامذة الامام فخر الدين الرازي سادات فضلاء اصحاب تصانيف جليلة في المنطق والحكمة كزين الدين الكشي وقطب الدين المصري بخراسان وافضل الدين الخونجي بمصر وشمس الدين الخسروشاهي بدمشق واثير الدين الابري بالروم وتاج الدين الارموي وسراج الدين الارموي بقونية . حكى النجيب الراهب المصري الحاسب بدمشق عن الملك الناصر داود بن الملك المعظم بن الملك العادل ابن ايوب صاحب الكرك انه كان يتردد الى شمس الدين الخسروشاهي يقرأ عليه كتاب عيون الحكمة للشيخ ابي علي بن سينا وكان اذا وصل الى رأس المحلة التي بها منزل الخسروشاهي أوما الى من معه من الحشم والماليك ايقفوا مكانهم ويترجل ويأخذ كتابه تحت ابطه ملتفاً بمنديل ويجيء الى باب الحكيم ويقرعه فيفتح له ويدخل ويقرأ ويسأل عما خطر له ثم يقوم ولم يمكن الشيخ من القيام له .

(المستعصم بن المستنصر): وفي سنة اربعين وستائة ببيع المستعصم يوم مات ابوه المستنصر وكان صاحب هو وقصيف شغف بلعب الطيور واستولت عليه النساء وكان ضعيف الرأي قليل العزم كثير الغفلة عما يجب لتدبير الدول وكان اذا نُبّه على ما ينبغي ان يفعله في امر التاتار اما المدارة والدخول في طاعتهم وتوخي مرضاتهم او تجيش

العساكر وملتقاهم بتخوم خراسان قبل تمكنهم واستيلائهم على العراق فكان يقول: انا بغداد تكفيني ولا يستكثرونها لي اذا نزلتُ لهم عن باقي البلاد ولا ايضاً يهجمون عليّ وانا بها وهي بيتي ودار مقامي . فهذه الخيالات الفاسدة وامثالها عدلت به عن الصواب فأصيب بمكاره لم تخطر بباله .

وفي سنة احدى واربعين غزا يساور نونين^١ الشام ووصل الى موضع يسمّى حيلان على باب حلب وعاد عنها لحفي اصاب خيول المغول واجتاز بملطية وخرّب بلدها ورعى غلاتها وبساتينها وكرموها وأخذ منها اموالاً عظيمة حتى خشّلت النساء وصلبان البيع وجوه الاناجيل وآتية القداس المصوغة من الذهب والفضة ثم رحل عنها . وطلب طبيباً يداويه في سمج عرض له فأخرج اليه والدي وسار معه الى خرتبرت فدبره حتى برأ . ثم جاء ولم يطل المقام بملطية ورحل بنا الى انطاكية فسكنّاها . وأقحطت البلاد بعد ترحال التاتار ووبت الارض فهلك عالم وباع الناس اولادهم باقراص الخبز .

وفي سنة اثنتين واربعين اغار التاتار على بلد بغداد ولم يتمكنوا من منازلها . وفيها سير السلطان غياث الدين جيشاً عظيماً الى مدينة طرسوس فحاصروها مدة وضيّقوا عليها وكادوا يفتحونها عنوة فاتفق ان مات السلطان غياث الدين في تلك الايام . فلما بلغهم موت السلطان رحلوا عنها خائبين وكان الوقت خريفاً وتواترت على الروميين الامطار وتوحلت خيولهم فقال منهم رجالة الارمن وغنموا ابقائهم . وكان السلطان غياث الدين مقبلاً على المحجون وشرب الشراب غير مرضي الطريقة منغمساً في الشهوات الموبقة تزوّج ابنة ملك الكرج فشغفه حبّها وهام بها الى حدّ ان اراد تصويرها على الدراهم فأشير عليه ان يصور صورة اسد عليه شمس لينسب الى طالعه ويحصل به الغرض . وخطف غياث الدين ثلاثة بنين عزّ الدين وأمه روميّة ابنة قسيس وركن الدين وأمه ايضاً روميّة وعلاء الدين وأمه الكرجية . فولى السلطنة عزّ الدين وهو الكبير وحلف له الامراء وخطب له على المنابر وكان مدبره والاتاك له الامير جلال الدين قرطاي^٢ رجل خيّر دين صائم الدهر ممتنع عن اكل اللحم ومباشرة النساء لم ينم في فراش وطبي وانما كان نومه على الصناديق في الخزانة^٣ اصله رومي وهو من ممالك السلطان علاء الدين وتربيته وكان له الحرمة الوافرة عند الخاص والعام . وفي سنة ثلث واربعين تردّدت

١ - ويروي: نساور . ويروي: في نسخة تاريخ مخلوط: يساور .

٢ - ويروي: قرطاي وقرطاي .

٣ - في الخزانة و الخزانة .

رسل المغول في طلب السلطان عز الدين ليحضر بنفسه في خدمة قان. فتعلل محتجاً بمعادة من يجاوره من ملوك اليونانيين والارمن آياه وانه متى فارق بلاده ملكها هؤلاء وكان يرضي الرسل بالهدايا وبذل الاموال ويدافعهم من وقت الى وقت . ثم سير اخاه ركن الدين وفوض تديره الى بهاء الدين الترحمان وجعله اتابكه وارسله صحبته واستوزر عز الدين لنفسه رجلاً اصفهانياً وهو صاحب علم وفضل يلقب بشمس الدين فتمكّن من الدولة الى حد أن تهباً له التزوج بأمة السلطان عز الدين فتقل ذلك على الامراء طراً .

وفيها مرض قان وما اشتد مرضه سير رسولا في طلب ابنه كيوك فاهرع اليه من غير توقف فلم يجهل القضاء ليجتمع بالوالد فأقام بالمكان الذي بلغه فيه وفاته وكانت والدته توراكينا خاتون ذات دهاء كافية فطنة فاتفق جفائني وباقي الاولاد على انها تتصرف في تدبير الممالك الى وقت القوريلتاي لانها أم الاولاد الذين لهم استحقاق الخانية . وفي سنة اربع واربعين وستائة تم اجتماع الاولاد والاحفاد وامراء المغول في وقت الربيع وحضر في المجمع من غير المغول ايضاً ممماً وراء النهر وتركستان الامير مسعود بيك ومن خراسان الامير ارغون اغا^١ وصحبته اكابر العراق واللور واذربيجان وشروان . ومن الروم السلطان ركن الدين^٢ . ومن الارمن الكندسطل اخو التكفور^٣ حاتم . ومن كرجستان الداودان الكبير والصغير . ومن الشام اخو الملك الناصر صاحب حلب . ومن بغداد فخر الدين قاضي القضاة ومن علاء الدين صاحب الاموت محشمو قهستان . فاذا تم هذا المجمع العظيم^٤ الذي لم يعهد مثله وقع الاتفاق على كيوك . وكان له اخوان آخران احدهما يسمّى كوبان والآخر طفل يسمّى سيرامون . وانما اختير هو من دونهما لكونه مشهوراً بالغلبة والشطط والاقترحام والتسلط وكان هو اكبر الاخوة فأهل للولاية وأجلس على سرير الملك وخدموه ودعوا له كالعادة واطاعوه وكيوك خان سموه . وفي سنة خمس واربعين وستائة ولّى كيوك خان على بلاد الروم والموصل والشام والكرج^٥

١ - اغار اقا .

٢ - هو اخو سلطان قونية .

٣ - الكندسطل Comes stabuli, Connétable كانت تعني اولاً وظيفة امير الاخور ثم عتوا بها امير الجيوش . وتكفور لفظه ارمنية *թարգմանչ* معناها ملك .

٤ - فات المؤلف ان يذكر فيمن حضر في هذا المجمع العظيم الراهب Jean du Plan Carpin يوحنا دي بلان كاربين سفير البابا اينوشنسيوس الرابع وكان من رهبنة مار فرنسيس .

٥ - وفي رواية: والكرج والارمن .

نوياً اسمه ايلجيكناي . وعلى ممالك الخطا صاحب بلواج . وعلى ما وراء النهر وتركستان الامير مسعود . وعلى بلاد خراسان والعراق واذربيجان وشروان والور وكerman وفارس وطرف الهند الامير ارغون اغا . وقلد سلطنة بلد الروم السلطان ركن الدين . وامر بعزل السلطان عز الدين . وجعل داود الصغير المعروف بابن قيز ملكاً محكوماً لداود الكبير صاحب تفليس . واما رسول الخليفة فخاطبه خطاب واعد وموعد بل واعظ ومنذر . واما رسل الملاحدة^١ فصرفهم مذليين مهانين . وكتب يرالغ عهد وامان للتكفور والملك الناصر صاحب حلب .

وكان بمقام الاتابكية لكيوك خان امير كبير اسمه قداق وكان معمداً مؤمناً بالمسيح وشاركه في ذلك امير آخر اسمه جينقاي^٢ فهذان احسنا النظر الى النصراري وحسنا يقين كيوك خان ووالدته واهل بيته بالمطارنة والاساقفة والرهايين فصارت الدولة مسيحية وارتفع شأن الطوائف المنتمية الى هذا المذهب من الفرنج والروس والسريان والارمن . والتزم النخاص والعام من المغول وغيرهم ممن هو بينهم ان يقولوا في السلام برخمر^٣ وهو لفظ مركب سرياني معناه بارك مالكي .

وفي سنة ست واربعين وستمائه وصل السلطان ركن الدين وبهاء الدين الترحمان الى بلد الروم ومعهما الفا فارس من المغول . فهم الوزير شمس الدين الاصفهاني ان يأخذ السلطان عز الدين ويصعد الى بعض القلاع التي على البحر ويقبها هناك عاصيين الى ان يفعل الله ما يشاء . فعلم بذلك جلال الدين قرطاي^٤ الرجل الصالح فقبض على الوزير الاصفهاني وسير فاعلم بهاء الدين الترحمان بذلك فانفذ جماعة من امراء المغول فأتوا الى قونية وقرروا الوزير على الاموال والخزائن ثم قتلوه . واجتمع بهاء الدين الترحمان بجلال الدين قرطاي واتفقا على ان توزع البلاد على الاخوين فتكون قونية واقسرا وانقرة وانطاكية وباقي الولايات الغربية لعز الدين . وقيسارية وسيواس وملطية وارزنكان وارزن

١ - الملاحدة ويقال لهم الاسماعيلية والباطنية ايضاً هم من بقايا القرامطة الخوارج واصحاب حسن بن صباح ويعرفون عند الاوروبيين بهذا الاسم Assasins . فبعد موت السلطان ملكشاه قويت شوكتهم وتغلّبوا على عدة حصون وخصوصاً حصن الموت بالقرب من مدينة قزوين . وبث حسن اصحابه الى الجهات فأتى قوم منهم سورية وتمحصنوا في الجبال المجاورة لطرسوس وعليهم امير اسمه ابو طاهر ويُعرف بشيخ الجبل يطبع للامير الكبير الذي في بلاد فارس . ودامت سلطة الاسماعيلية من السنة ٨٣٢ هـ الى سنة ٨٦٣ هـ (١٠٩٠-١٢٥٥ م) .

٢ - وروى: جينقاي .

٣ - برخمر و يارخ مار .

٤ - قرطاي و قرطاي و قرطاي س هؤلاء قرطاي .

الروم وغيرها من الولايات الشرقية لركن الدين . واقطعا لعلاء الدين الاخ الصغير من الاملاك الخاصة ما يكفيه وضربوا السكة باسم الثلاثة وكتبوا السلاطين الاعاظم عزّ وركن وعلاء .

وفي سنة سبع واربعين وستائة توفيت تورا كينا خاتون ام كيوك خان فتشاءم ا كيوك خان بذلك المقام ورحل عنه متوجهاً الى البلاد الغربية . ولما وصل الى ناحية قستكي وبينها وبين مدينة بيش بالغ خمس مراحل ادركه اجله في تاسع ربيع الآخر فارسلت زوجته المسماة اغول غانميش رسولا الى باتوا واعلمته بالقضية وتوجهت هي الى جانب قوتاق واعميل واقامت بالمكان الذي كان يقيم به كيوك خان اولاً . فسيرت سرقوتني بيكي زوجة تولي خان وهي اكبر الخواتين يومئذ اليها رسولا تعزيها وحمل اليها ثياباً وبوقتاياً^٢ . وفيها سار باتوا من بلاده الشمالية متوجهاً الى المشرق ليجتمع بكيوك خان لانه كان يلج اليه بالمسير اليه فلما وصل الى موضع يقال له الاتقاق وبينه وبين مدينة قياليق^٣ ثمانى مراحل بلغه وفاة كيوك خان فأقام هناك وسيّر رسولا الى اغول غانميش زوجة كيوك خان واذن لها بالتصرف في المالك الى ان يقع الاتفاق على من يصلح ان يلي الامر وارسل ايضاً الى الجوانب ليجتمع الاولاد والعشائر والامراء .

وفيها خرج ريدافرنس^٤ ملك فرنجة قاصداً للديار المصرية فجمع عساكره فارسلها وراجلها جمعاً عظيماً وازاح عليهم فسار عن بلاده بأموال جزيلة وأهبة جميلة وارسى بعكاً وانبت اصحابه في جميع بلاد الساحل . فلما استراحوا جاؤوه حاشدين حافلين وساروا في البحر الى دمياط وملكوها بغير تعب ولا قتال لان اهلها لما بلغهم ما هم عليه الفرنج من القوة والكثرة والعدة الكاملة هالم امرهم فرحلوا عنها مخفّين . فوصل اليها الفرنج ولقوها خالية عن المقاتلين غير خاوية من الارزاق فدخلوها وغنموا ما فيها من الاموال . وكان الملك الصالح بن الملك الكامل صاحب مصر يومئذ بالشام يحاصر مدينة حمص . فلما سمع بذلك بأن الفرنج قد ملكوا دمياط رحل عن حمص وسار مسرعاً الى الديار المصرية ومرض في الطريق وعند وصوله الى المنصورة عرض له في فخذة الداء الذي يسمونه

١ - وروى : فشم .

٢ - وروى : بوقتاياً .

٣ - قياليق س قيالغ صحح .

٤ - ريدافرنس لفظه مركبة معناها عند الفرنج ملك فرنسا Roi de France وقد اراد بها الملك لويس التاسع .

الاطباء غانغراناً ثم استحكمت الفساد فيها حتى آل امرها الى سفاقلس وهو موت العضو اصلاً فقطعوها وهو حي . وبينما هو يكابد الشدائد في هذه الحالة وافاه مقدّمو دمياط الذين اخلوها منهزمين فلما قيل له ما صنعوا لانهم فرّوا عنها من غير ان يباشروا حرباً وقتالاً عظم ذلك عليه فأمر بصلبهم وكانوا اربعة وخمسين اميراً فصلبوا كما هم بشياهم ومناطقهم وخفافهم . ثم مات من غد ذلك اليوم . وتولّى تدبير المملكة الامير عزّ الدين المعروف بالتركمانيّ وهو اكبر المماليك الترك . وكان مرجوعه في جميع ذلك ممّا يعتمده من الامور الى حظيّة الملك الصالح المتوفى المسماة شجر الدرّ وكانت تركية داهية الدهر لا نظير لها في النساء حسناً وفي الرجال حزمًا . فانفقا على تملك الملك المعظم بن الملك الصالح . وكان يومئذ مقامه بحصن كيفا من ديار بكر فأرسل رسولاً في طلبه وحشّاه على المصير اليهم . فسار الى الديار المصرية من غير توقف فبايعوه وحلفوا له وسلموا اليه ملك ابيه .

وفي سنة ثمانى واربعين وستائة سيّر ريدافرنس عسكرياً نحو النى فارس نحو المنصورة ليجسّ بهم ما هم عليه المصريون من القوة . فلقيهم طرف من عسكر المسلمين فاقتلوا قتالاً ضعيفاً فانهم بين ايديهم فدخل الفرنج المنصورة ولم ينالوا منها نيلاً طائلاً لانهم حصلوا في مضايق ازقتها وكان العامة يقاتلونهم بالحجارة والاجرّ والتراب ويحيطهم الضخمة لم تتمكن من الجولان بين الدروب . وكان القائد لعسكر المسلمين فخر الدين عثمان المعروف بابن السيف احد الامراء المصريين شيخ كبير احاط به الفرنج وهو في الحمام يصبغ لحيته فقتلوه هناك . وعادوا الى ريدافرنس واعلموه بما تمّ لهم مع ذلك العسكر وبالمدينة . فزاد طمعه وطمع من معه من البطارقة ظانين انه اذا كان الالتقاء خارج الجبلران بالصحراء لم يكن للمسلمين عليهم مقدرة . فعبّى جيوشه وسار بهم طالباً ارض مصر . فصبر المصريون الى ان عبر الفرنج الخليج من النيل المسمى اشمون وهو بين البرين برّ دمياط وبرّ المنصورة . فتوجهوا نحوهم والتقى العسكران واقتل الفريقان قتالاً شديداً . وانجلى الحرب عن كسرة الفرنج وهزموا افحش هزيمة ومنعهم الخليج المذكور من ان يفوزوا وينجوا بارواحهم فغرق منهم خلق كثير وقتل آخرون وأسر الملك ريدافرنس ومعه جماعة من خواصه واكابره . فلما حصل ملك الفرنج في قبضة الملك المعظم قال له المماليك الصغار اقرانه : اننا نرى الامر كله الى شجر الدرّ والامراء وليس لك من السلطنة الا اسمها فلو كنت في الحصن كنت ارفه خاطراً منك وانت صاحب مصر والحكم لغيرك والسبب في هذا ليس الا حاجتك اليهم في مقاومة الفرنج وليس لك

عدو سواهم فالرأي ان تصالح هذا الملك ومن معه من امرائه الى ابي مدّة شئت فانه لا يخالفك في جميع ما تريد منه اذا اصطنعته وهبت له روحه وتأخذ منه الاموال والجواهر التي له في دمياط ويسلم اليك دمياط ويذهب في حال سييله وتأمين شره وشر اهل ملته وتستريح من الامراء واستخدام الجند وتبقي في ملكك من اخترت وتزيل من كرهت . فصفا المعظم الى قولهم واستصوب رأيهم ودبر الامر مع ريدافرنس وحلفه كما اراد من غير ان يشاور الامراء الكبار في شيء من ذلك . فاحسبوا بالقضية وتحققوا تغيير المعظم عليهم وما قد نوى ان يفعل بهم فنقموا عليه ووثبوا به فهرب منهم وصعد الى برج من خشب كان هناك فضربوا فيه النار فلما وصلت اليه وشاطته رمى نفسه الى الخليج النيلي . فجاؤوا اليه ورموه بالنشاب وهو في الماء فمات غريقاً جريحاً .

واتفق الامراء الترك وقدموا عليهم اميراً منهم يُلقب بعز الدين التركماني ونهضوا الى ريدافرنس وجددوا معه اليمين واقتدي منهم بالف الف دينار وتسليم دمياط فاطلقوه ثم سار التركماني من المنصورة الى مصر واقطع الاسكندرية لامير من الترك يقال له فارس اقطاي وتزوج شجر الدر وصار ملك مصر في قبضتهما . واما ريدافرنس لما وصل الى دمياط اخذ اهله ومن تخلف من اصحابه وخرج عنها وسلمها الى المسلمين واقام هو بعكا وبني مدينة قيسارية واصلحها واسكنها جماعة ثم سار الى بلده .

ولما ولي التركماني الديار المصرية كان الامر كله الى شجر الدر لا تمكنه التصرف الا فيما يصدر عن رأيها فكره ذلك ولم يطق احتماله وهم باهلاكها . فشعرت بذلك وسبقته . ففعلت به ما اراد ان يعمل بها واشلت عليه المايك الصغار . وفي بعض الايام لما دخل الحمام وكانوا يسكبون على رأسه الماء ليغتسل جرحوه بالسكاكين فقتلوه . وقيل مقلوا رأسه في الماء داخل الخزانة الى ان اختنق مغبوطاً . وامرت شجر الدر ان يُخرج ويُدفن فاخرجوه ودفنوه في الدار . ولما بلغ ذلك الامراء الكبار عظم عليهم فعلها فوثبوا بها وقتلوا ورموها في الخندق فأكلتها الكلاب . وقدموا عليهم واحداً منهم اسمه قوتوز فحلقوا له وملكوه ولقبوه الملك المظفر . ولما استولى المايك على الديار المصرية سار الملك الناصر صاحب حلب بجريدة الى دمشق فسلمها اليه اهلها فلحقها واقام بها وصارت دار مملكته . ثم راسله بعض المايك من مصر ليسيرو اليهم فيسلموا له مصر فعبى عسكره وسار الى نحو الديار المصرية ليملكها كما ملك دمشق . فلما بلغ امراء الترك ذلك بادروا اليه في عساكرهم والتقوا الشاميين بناحية غزة وكسروهم وهزمهم فعاد الملك الناصر فيمن

معه خائباً خاسراً . وفيها ملك بدر الدين لؤلؤ جزيرة ابن عمر^١ وأسر صاحبها الملك مسعود بن الملك المعظم من بيت اتابك زنكي وسيّره في ركوة الى الموصل وتقدّم الى من وكل به ليرميه ليلة في دجلة فغرقوه واخبروا انه رمى نفسه وهم نيام ولم يحسّوا بما فعل .

وفيها اجتمع اولاد الملوك وامراء المغول فوصل من حدود قراقورم مونككا^٢ بن تولي خان . واما سيرامون وباقي احفاد وخواتين قان فسيروا فقنقورتقاي وكتبوا خطهم انه قائم مقامهم وان باتوا هو اكبر الاولاد وهو الحاكم وهو راضون بما يرضاه . واما اغول غانميش خاتون زوجة كيوك خان ومن معها من اولاد الملوك فوصلوا الى خدمة باتوا ولم يقيموا عنده اكثر من يوم بل رجعوا الى أوردوهم واستنابوا اميراً منهم يقال له تيمور نوين واذنوا له ان يوافق ما يتفق عليه الجمع كله وان اختلفت الاهواء لا يطبع احداً حتى يعلمهم كيفية الحال . فبقي جفاتاي ومونككا وسائر من كان حاضراً من الاولاد والاحفاد والامراء يتشاورون اياماً في هذا الامر وفوضوا الامر الى باتوا لانه اكبر الجماعة واشدهم رأياً . فبعد ثلاثة ايام من يوم التفويض قال : ان مثل هذا الخطب الخطير ليس فينا من يني بحق القيام به غير مونككا فوافقوه كلهم على ذلك واجلسوه على سرير المملكة وباتوا مع باقي الاولاد والاكابر خدموه جاثين على ركبهم كالعادة . وانصرف كل واحد الى مقامه على بناء انهم يجتمعون في السنة المقبلة ويعملون مجعاً كبيراً ليحضره من الاولاد والاكابر من لم يحضر الآن . وفي سنة تسع واربعين وستائة في وقت الربيع حضر اكثر الاولاد مثل بركة اغول واخوه بغاتيمور وعمهم الجتاي الكبير والامراء المعتبرين من اردو جنكزخان . وفي اليوم التاسع من ربيع الآخر كشفوا رؤوسهم ورموا مناطقهم على اكتافهم ورفعوا مونككا على سرير المملكة ومونككا قان سمّوه وجثوا على ركبهم تسع مرات . وكان له حينئذ سبعة من الاخوة : قبلاي ، هولاكو ، اريغبوكا ، موكا ، بوجك ، سبكو ، سونتي . فترتبوا جالسين على يمينه والخواتين على يساره وعملوا الفرحة سبعة ايام . وبينما هم يحسرون ويسرون اذ وصل قدغان اغول وابن اخته^٣ ملك اغول وقراهولاكو وقاموا بمراسم التهئة وشرائط الخدمة . وكان الجماعة بانتظار اغول غانميش زوجة كيوك خان ولدها خواجه اغول وامرائهم ولم يصل بعد احد منهم . وفي سنة

١ - هي بلدة فوق الموصل بينها ثلاثة ايام يحيط بها دجلة الا من ناحية واحدة فعمل هناك خندق اجري فيه الماء فأحاط بها الماء من جميع جوانبها .

٢ - مونككا ر مونككان س **ممنها** ط مونكا خان Mangou Khân .

٣ - اخته و اخيه .

خمسين وستائة توجهت اغول غانميش وجماعتها في عساكرهم نحو اردو مونككا خان . وكان المقدّم على جيوشهم سيرامون وناقوا . ولما قربوا اتفق ان رجلاً من اردو مونككا قان من الذين يربون السباع لاولاد الملك هرب منه اسد فخرج في طلبه دائراً عليه بالجبال والصحاري فاجتاز بطرف من عسكر سيرامون ولقي صبياً منهم قد انكسرت عجلته وهو جالس عندها . فلما رأى السباع المذكور مجتازاً استدعاه ليستعين به في ترميم عجلته فاجابه السباع الى ذلك ونزل من فرسه واخذ يصلح معه العجلة . فوقع بصره على اسلحة مستورة في باطن العجلة فسأل الغلام عنها . فقال له : ما اغفلك كأنك لست منا كيف لم تعرف ان كل العجل التي معنا كهذه مشحونة بالآلات الحرب . فلما تحقق ذلك ترك طلب الاسد الآبق وسار مسيرة ثلاثة ايام في يوم واحد عائداً الى اصحابه واعلمهم بما رأى وسمع . فأمر مونككا قان ان يمضي اليهم منكسار في التي فارس ويستكشف حالهم . فضى وذكر لهم ما نقل عنهم فلم يتمالكوا وداخلهم الرعب ولم يسعهم الا التسليم لما يُفَضَى عليهم . ولما حضر الكبير منهم والصغير وقع السؤال وثبتت الجريمة عليهم فجزوا بما استوجبوا من الهلاك وتقسيم عساكرهم على الاولاد والامراء . ولما فرغ خاطر مونككا قان من امر المخالفين شرع في ترتيب العساكر وضبط الممالك فأقطع بلاد الخطا من حدّ الميري الى سليكاي وتكوت وثبت لقبلاي اغول اخيه . والبلاد الغربية لولاكو اخيه الآخر ومن جهة تحصيل الاموال . وولّى على البلاد الشرقية من شاطى جيجون الى منتهى بلاد الخطا صاحب المعظم يلواج وولده مسعود بيك . وعلى ممالك خراسان ومازندران وهندوستان والعراق وفارس وكرمان ولور وارآن واذربيجان وكرجستان والموصل والشام الامير ارغون اغا . وامر ان المتمول الكبير ببلاد الخطا يؤدي في السنة خمسة عشر ديناراً والوضيع ديناراً واحداً . وبلاد خراسان يزن المتمول في السنة عشرة دنانير والفقير ديناراً واحداً . ومن مراعي ذوات الاربع الذي يسمونه قويجور يؤخذ من كل من له مائة رأس من جنس واحد رأس واحد ومن ليس له مائة لا يؤخذ منه شيء . واطلق العباد وارباب الدين من الوثنيين والنصارى والمسلمين من جميع المؤنات والاوزان والتكليفات .

وفيهما وهي سنة الف وخمسمائة وثلث وستين للاسكندر توجه حاتم ملك الارمن الى خدمة مونككا قان اخذ قربان خميس الفصح ورحل عن مدينة سيس يوم الجمعة ١ الصلבות وخرج متنكراً مع رسول له بزى بعض الغلمان واخذ على يده جنياً يجذبه خلف

الرسول لانه كان خائفاً من السلطان صاحب الروم . وذكر الرسول ابن ما جاء واجتاز من بلد الروم انه قد ارسله الملك حاتم ليأخذ له الامان من مونككا قان فاذا امته توجه هو بنفسه الى حضرته . حدثني الملك حاتم عند اجتماعي به بمدينة طرسوس بعد سنين^١ من عودته من خدمة مونككا قان قال : عبرت بقيسارية وسيواس مع الرسول ولم يعرفني احد من اهلها قط الا لما دخلنا مدينة ارزنكان عرفني رجل من السوقية كان قد سكن عندنا فقال : ان كانا هاتان عيني فهذا ملك سيس . فلما سمع الرسول كلامه التفت اليّ ولطمني على خدي وقال : يا نذل صرت تشبه بالملوك . فاحتملت اللطمة لازيل بها ظن من كان ظنه يقيناً .

وفي سنة احدى وخسين وستائة توجه هولاکو ابلخان من نواحي قراقورم الى البلاد الغربية . وسير معه مونككا قان الجيوش من كل عشرة اثنين وصحبه اخوه^٢ الصغير سنتاي اغول ومن جانب باتوا بلغاي^٣ بن سبقان وقوتار اغول وقولي^٤ في عساكر باتوا . ومن قبل جفاتاي تكودار^٥ اغول بن بوخي اغول . ومن جانب جيحكان بيكي بوقا تيمور في عسكر الاويرات^٦ . ومن ناحية الخطا الف بيت من صنّاع المنجنيقات واصحاب الحيل في اصلاح آلات الحرب . فكان امير الترك كيدبوقا^٧ الباورجي . وكان القائم مقام هولاکو بأردو مونككا قان ولده جومغار بسبب ان امه اكبر خواتين هولاکو ابيه . واخذ صحبته ابنه الكبير اباقسا وابنه الآخر يسمون^٨ ومن الخواتين الكبار دوقوز^٩ خاتون المؤمنة المسيحية والجاي خاتون . وفي سنة اثنتين وخسين وستائة تواترت الايلجية في طلب السلطان عز الدين صاحب الروم ليحضر هو بنفسه في خدمة مونككا قان . فتجهز وسار حتى وصل الى مدينة سيواس . ولما سمع ان الامراء قد مالوا الى ركن الدين اخيه ويرومون تمليكه عاد مسرعاً الى قونية وارسل

١ - سنين و سنتين .

٢ - اخوه و اخاه . سنتاي س سبتاي صحاب .

٣ - بلغاي س بولغاي صحاب .

٤ - و يروي : يلغاي عوض بلغاي وتولا عوض قولي .

٥ - و يروي : توكدار .

٦ - الاويرات و الاويرات .

٧ - كيدبوقا س صحاب .

٨ - يسمون س صحاب . لعل الصواب « يشوت » انظر الصفحة ٢٧٧ . - يروي : تسرون .

٩ - و يروي : طقز . و يروي : قوز .

اخاه علاء الدين وكتب معه كتاباً يذكر فيها : انني قد سيرت اخي علاء الدين وهو سلطان مثلي وانا لم يمكنني المحبي بسبب ان اتابكي ومدبري جلال الدين قرطاي قد مات وظهر لي اعداء من ناحية المغرب فاذا كُفيت شرهم جئت المرة الاخرى . فلما سار علاء الدين توفي في الطريق ولم يصل الى الاردو . واراد عز الدين ان يقتل ركن الدين اخاه الآخر ويأمن غائلته فأحس الامراء بذلك وهربوه بأن البسوه ثياب بعض غلمان الطبائخين ووضعوا على رأسه خوانجه فيها طعام واخرجوه من الدار والقلعة في جماعة من الصبيان قد حملوا طعاماً الى بعض الدور . فلما خرج اركبوه فرساً وساروا به حتى اوصلوه الى قيسارية وانضم اليه هناك جماعة من الامراء وحيشوا وتوجهوا نحو قونية ليحاربوا عز الدين . فبرز اليهم عز الدين بمن معه من العسكر فكسروهم وهزمهم واسر ركن الدين اخاه واعتقله بقلعة دوالوا . وفي سنة ثلث وخمسين وستائة وصل رسول بايجو نوين الى السلطان عز الدين يطلب منه مكاناً يشي به لان بلد موغان الذي كان يشي به صار مشتي هولواكو . فأبى السلطان ان يجيبه الى ذلك وطمع فيه وظننه منهزماً بين يدي هولواكو وحيش وحاربه عند خان السلطان بين قونية واقسرا وانكسر عز الدين وهرب متوغلاً في بلاده الداخلة . فأخرج بايجو اخاه ركن الدين من الحبس وملكه على جميع بلاد الروم .

وفيها وصل الملك حاتم ودخل بلده اول ايلول وكان مجيئه صحبة بايجو نوين . وفيها في شهر شعبان نزل هولواكو بمروج مدينة سمرقند واقام بها اربعين يوماً . وهناك ادرك اخاه سنتاي اغول اجله وأخبر بوفاة اخيه الآخر في طرف بلاد فتكدر خاطره لهاتين الوقعتين فوصل اليه الامير ارغون واكثر اكابر خراسان وقوا وعزمهم فعبروا ماء جيحون وكان الوقت شتاء شديد البرد لا يقشع الغيم ولا ينقطع وقوع الثلج من تلك البقاع الى وقت حلول الشمس برج الحمل . فأمر الامراء ان يقصدوا في عساكرهم قلاع الملاحدة وكان مقدم الاسمعية يومئذ ركن الدين خوزشاه بن علاء الدين فأخرب خمس قلاع من قلاعه التي لم يكن فيها ذخائر للحصار . واقبل رسول هولواكو الى حد قصران . وكان كيدبوقا قد سبق ففتح قلعة شاهديز^٢ وثلاثاً آخر من قلاعهم . ولما وصل ايلخان الى عباساباذ سير ركن الدين الى العبودية صبياً عمره نحو سبع او ثمانين سنين وذكر انه ولده . فلم يخف صنيعه على هولواكو ولكن لم يكاشفه في ذلك بل اعز الصبي واكرمه

١ - وروى : وظهرى .

٢ - شاهديز و شاهدين س شاهديز شاهديز .

ثم اعاده اليه . وبعد وصول هذا الابن المزور الى ركن الدين سير اخاه شيرانشاه في ثلثمائة رجل على سبيل الحشر . فسير هولاء الثلثمائة الى جمالاباذ من بلد قزوين واعاد اخاه محملاً رسالة اليه وهي انه الى خمسة ايام ان لم يصل بنفسه الى الخدمة يُحكّم قلعة ويستعد للحرب . فارسل رسولا يقول : انه لا يتجاسر على الخروج خوفاً من حشمه الذين معه داخل القلعة لثلاثين يوماً فاذا وجد فرصة جاء . فعرف هولاء انه مماطل مدافع من وقت الى آخر فرحل رابع عشر شوال من سنة اربع وخمسين وستائة من بيشكام^١ ونزل على القلعة المحاذية لميمون دره وتقدم بقتل الثلثمائة رجل من الملاحدة الذين كانوا بجمالاباذ قزوين سراً وصار اهل قزوين يضربون بذلك مثلاً لمن يقتل فيقولون : انبعث الى جمالاباذ . ولما عاين ركن الدين نزول هولاء بالقرب سير رسولا يقول : ان سبب تماطلي لم يكن غير انني ما كنت احقق وصوله المبارك والآن انا نازل اليوم او غداً . وكان تلك الليلة ليلة الميلاد . فلما عزم على الخروج ثاوره العلاء^٢ من الملاحدة واثبه الفدائيون ولم يمكنوه من الخروج . فسير الى هولاء واعلمه ما هم عليه من التمرد . فأمره ان يداري الوقت معهم محافظاً نفسه منهم وكيف ما كان يحتمل للزول ولو متكرراً . وتقدم الى الامراء ليحفظوا بالقلعة وينصبوا المنجنيقات ويقاتل كل منهم من يقاتله من الاسمعية . فلما اشتغل الملاحدة بقتال المغول نزل ركن الدين ومعه ولده وخواصه الى عبودية هولاء واطهر الخجلة بل الندامة معترفاً بما اقترفه في الايام الماضية من الجرائم والآثام . فشملته لطائف عواطف ابلخان وبدل ما عند ركن الدين من الاستيحاء والاستنفار بالاستيناس والاستبشار . ولما تحقق من بالقلعة ما نال صاحبهم من الطمأنينة والكرامة سلموا القلعة ونزلوا عنها فحاول المغول هدمها وفتحوا ايضاً جميع القلاع التي في ذلك الوادي . وتوجه ابلجي الى متولي قلعة الموت ليتبع مولاه ركن الدين في توخي الابلية وتسليم القلعة . فأبى العصيان الى ان نازله بلغاي اغول في عساكر جمه فطلب الامان وسلمها وخرج عنها في اواخر ذي القعدة من السنة المذكورة . وفي تلك الايام وصل شمس الدين محتشم قلاع قهستان واخذ يرلياً وسار معه اصحاب ركن الدين الى قهستان ليخرب جميع القلاع التي هناك وهي تريد على خمسين حصناً حصيناً وتسلموها وفتحوها الا قلعتين منها هما كردكوه وكشير^٣ فانهم

١ - وروى : بنسكله .

٢ - العلاء لمل الصواب « الغلاة » .

٣ - وروى : كردكوه وروى لشير وكسر .

لم يطبقوا فتحها في الحال إلا بعد سنتين . ووصل اكابر الديلم وصالحوا المغول على تخريب قلاعهم . وفي اواسط ذي الحجة عاد هولاءكو الى الاردو بناحية همدان وسيّر ركن الدين وبنيه وبناته وازواجه الى قزوین . وفي سنة خمس وخمسين وستائة التمس ركن الدين خوزشاه من هولاءكو ان يسيّره الى عبودية مونككا قان . فاعجبه ذلك وارسله ومعه تسعة نفر من اصحابه صحبة الايلجية . فلما وصلوا الى مدينة بخارا خاصم الايلجية وتسافه عليهم فحقّدوا عليه . فلما وصلوا الى قراقورم لم يؤذن لركن الدين ان يحضر وبرز مرسوم مونككا قان اليه ان: يجب عليك العود الى بلدك والتقدم الى نوابك ليسلموا قلعتي كرزكوه وكشير فاذا سلموهما واخربتها تحضر مرة اخرى ويكون لك التلشميشي اي الاكرام والقبول . فنكص ركن الدين بهذا الرجاء على عقبه . وفي الطريق اهلك مع من كان معه من اصحابه . ووصل يرليغ مونككا قان الى هولاءكو ليقتل الملاحدة باسرههم ولا يبقى منهم اثر . فارسل قراقاي البيكتكجي الى قزوین وقتل بني ركن الدين وبناته واخوته واخواته مع جميع عساكر الملاحدة واوتكوحنا نوين ' ايضاً أخرج من رعايا الاسمعية بحجة الحشر اثني عشر الف رجل وقتلهم كلهم واخلى الارض من كل من ألد في دينه .

وفيها سيّر السلطان عزّ الدين رسولاً الى خدمة هولاءكو شاكياً على بايجو نوين انه ازاحه عن ملكه . فأمر هولاءكو ان يتقاسما المالك هو واخوه ركن الدين . فظهر عزّ الدين فأتى الى قونية ومضى ركن الدين مع بايجو نوين الى مخيمه . وخوف عزّ الدين من بايجو نوين وجه مملوكه طفلاً ٢ الى نواحي ملطية وخرتبرت ليستخدم له عسكرياً من الاكراد والتركان والعرب . فوصل هذا المملوك وسيّر في طلب شرف الدين احمد ابن بلاس من بلد الهكاروشرف الدين محمد بن الشيخ عدي من بلد الموصل الكرديين فاتياه . فاقطع ابن بلاس ملطية وابن الشيخ عدي خرتبرت . اما ابن بلاس فلم يقبله اهل ملطية لانهم كانوا مستحلفين لركن الدين فكان يضطهدهم ويحور عليهم . فما احتملوه وآل امرهم معه الى ان وثبوا باصحابه وقتلوا منهم نحو ثلثائة رجل وهرب هو مع من تبعه من اصحابه واجتازوا ببلد قلوذيا واحرقوا دير ماذيق^٣ يوم الشعانين وعبروا الى بلد آمد وهناك ادركهم صاحب ميفارقين وقتل ابن بلاس واسر اصحابه . واما ابن

١ - وىروى: واىكوجبا وىروى يوحنا .

٢ - وىروى: طغر بلايا . س هههه ساهه . وىروى: مملوكه الى نواحي .

٣ - ماذيق س ههههه . - وىروى: دير ماريق .

الشيخ عدي فرحل من خربت ليتصل بالسلطان عز الدين فادركه انكورك نوبن وقتله ومن معه . ثم ولّى السلطان عز الدين ملطية رجلاً بطلاً شجاعاً يقال له عليّ بهادر فقبله اهل ملطية خوفاً من صرامته . وهذا عليّ حارب الاعجزية^١ وهم قوم مفسدون من التركان كانوا يغيرون على البلاد ويقتلون اهلها ويسبون الذراري فأسر مقدمهم المسمى جوتي بك وسجنه بقلعة المنشار وهزم جيوشهم . فأمن الناس شرهم وانفتحت السبل وامتار الناس الطعام وفرج الله عنهم نعمهم قليلاً . وبينما هم فرحون بذلك اذ وافاهم بايجو نوبن في عساكره وصاروا يقاتلون متسلمي القلاع ليسلموها الى ركن الدين . ونزلوا على مدينة ابلستين وقتلوا من اهلها نحو ستة آلاف رجل واسروا النساء والبنين والبنات . وجاؤوا الى ملطية فهرب عليّ بهادر الى كاخته . وخرج اهل ملطية الى خدمة بايجو نوبن بانواع الترعو^٢ والتحف . وكان ذلك في منتصف ايلول سنة الف وخمسة وثمانين وستين للاسكندر . فحلّفهم لركن الدين ورحل عنهم بعد ان اخذ اموالاً وولّى ركن الدين على ملطية مملوكاً له اسمه فخر الدين اياز^٣ . ولما خرج بايجو من حدود الروم طالباً للعراق عاد عليّ بهادر الى ملطية فاغلق اهلها الابواب ولم يمكنوه من الدخول خوفاً من بايجو . فحصرها اياماً واشتد الغلاء بها وبلغ المكوك من الملح الى اربعين^٤ درهماً والحنطة المكوك بسبعين درهماً . فضجر الناس وضافت بهم الحيلة ففتح العامة الحاكمة وغيرهم باباً من ابواب المدينة في بعض الليالي فدخلها عليّ بهادر واصحابه التركمانيون عنوة واصعد الى المنابر^٥ جماعة ينادون ويقولون : ان الامير قد امنّ الرعية النصراني منهم والمسلمين فليخرج كل واحد الى عمله ودكانه وليشتغل ببيعه وشرائه فانما كلامه مع الحكام . فلما اصبحوا قبض على فخر الدين اياز مملوك السلطان ركن الدين وسجنه واركب شهاب الدين العارض على بهم حقيير وطوّفه بملطية ثم قتله وشدّ احد طرفي رسن في رقبة المعين الايكد بشاسي^٦ والطرف الآخر في رقبة كلب ومشأه بالاسواق ثم ضرب عنقه . وعاقب المستوفي الرومي القسيس قالويان وولده كبيروري^٧ واخويه

١ - الاعجزية من الحاحنة .

٢ - الترعو ر الهدايا .

٣ - اياز من اياض .

٤ - أربعين ص اربعمائة س اربعمائة .

٥ - منابر و منابر .

٦ - الايكد بشاسي س ايجو طاب . - و يروي : بشاسي .

٧ - و يروي : كنوري س كنوري .

باسيل ومانويل واستصفي امواهم ثم قتلهم . وقتل ايضاً الامراء الثلاثة اولاد الامير شهاب الدين ايسو الكردي . واشتد الجوع بمطية وبلدها حتى اكل الناس الكلاب والسنابير وكانوا يتعمون الجلود اليابسة التي لُدِم بها النعال فيأكلونها مطبوخة . واجتاز جماعة من اصحابنا بقرية اسمها باعبدون ببلد جوباس من اعمال مطية فأروا جماعة من النساء قد اجتمعن في بيت وقدامهن ميت ممدود وبايديهن السكاكين وهن يشرحن لحمه ويشوينه ويأكلن . وامرأة اخرى شوت ابنها الصغير في تنور لها ولما كبسها مجاورها حلفت انها لم تقتله وانما ماتت ففعلت به ذلك زاعمة انها به اولى من الديدان . وبعد ما فعل علي بهادر تلك الرزايا بأعيان مطية ومثّل بامثالها لم يهنأ له بها عيش لما كان اهلها عليه من البلاء والجلء والجدب . فخرج عنها مملماً بالسلطان عز الدين .

وفيها مرض ثاوذوروس ملك الروم بمدينة نيقية^١ وكان في خدمته بطريق يقال له ميخائيل ويلقب بيالويوغس اي الكلام المتقدم^٢ . وذلك ان العلماء من الروم بعد تغلب الافرنج على القسطنطينية تقدموا فقالوا ان ملكاً في اسمه الميم والحاء من حروف اليونانيين ينزع الفرنج عنها ويعيدها الى الروم . فكان الملك ثاوذوروس يخاف هذا ميخائيل لثلاً يتغلب على الملك . ولما اشتد خوفه منه سجنه واعتقله ببعض قلاع بلد تسالونيقى ولم يمكنه اهلاكه بغير جريمة تظهر منه . وفي مرضه هذا ارسل بطريقاً يقال له غاذينوس لياتيه به . فلما وصل غاذينوس هذا الى ميخائيل قال له سرّاً: انت الملك فكن ليبياً وأسلم نفسك اليّ ولا تظهر كراهية اصلاً ورأساً ليزول بذلك ما حصل عند الملك من الخيالات في شأنك . فاجاب ميخائيل الى ذلك وحمله مقيداً الى الملك . ولما مثل بين يديه بكى واظهر الكتابة العظيمة . فرق له الملك وحنّ اليه واقبل عليه واوصى اليه في تربية قالويان ابنه وتدريبه وكان الابن وقتئذ طفلاً واشرك معه في ذلك البطريك ارسانيوس . وبعد مدة مديدة توفي ثاوذوروس ودُفن في دير مغنيسيا . وكان له اخت تسمى كيرايونيا ولها ختن على ابنتها يقال له موزالون فخرجت معه الى الدير بحجة زيارة قبر الملك واقاما به اياماً يتشاوران في امر الملك واتفقا على ان يقبضا على ميخائيل ومن يرى رأيه ويتولّى تدبير الطفل موزالون . فشرع ميخائيل بدسيستهما وسير عليهما جماعة من جند الفرنج الذين كانوا في خدمته وأمرهم ان يقتلوهما معاً حيث وجدوهما . فدخل الفرنج

١ - ايسو س ميميه . - وروى : انسو .

٢ - نيقية ر نيقى س ميمه نيمي .

٣ - ان المؤلف ترجم هذا الاسم حرفياً . وبالويوغوس عيلة قديمة شريفة .

الدبر ولقوهما في البيعة وقت صلاة العشاء فقطعهما موضعهما ونادوا بشعار ميخائيل بمدينة نيقيا قائلين: ميخائيل يا منصور ميخائيل ملك يونان بالبولوغس اوطوقراطور رومانيا . ومن هناك سار ميخائيل الى مدينة نيقية وخطب له بالملكة بجميع تلك البلاد واعتقل الطفل قالويان ابن الملك ببعض القلاع ونفى البطريرك ارسانيوس الذي وبخه على فعله هذا . ولما تمكن من الملك لم يكن له اهتمام الا بأخذ قسطنطينية فسار اليها مرة ولم يقدر على فتحها فصبر الى ان ثارت الفتنة بين البنادقة والجنوية بمدينة عكا فسار البنادقة اجمعين عن القسطنطينية الى عكا لنصرة اصحابهم وكانوا هم الحفظة لها . واحتال حيلة اخرى بأن اشار الى متولي بعض قلاع الروم ليكاتب بغدوين الفرنجي صاحب القسطنطينية ويقول له: ان هذا ميخائيل قد تغلب على مملكة الروم بغير استحقاق وهو ظالم معتد على بيت استاذه وانا كاره له وانت اولى بهذه القلعة منه لانك ملك ابن ملك وميخائيل خارجي . فابعث لي عسكرياً وانا اسلمها اليهم ولا بد من منجنيقات تكون معهم فينصبونها ويظهرون القتال والزحف ليكون لي عنذر عند الناس اذا سلمتها . فاغتر بغدوين الفرنجي بكلامه وقدره صادقاً بما قال فارسل من كان عنده من المقاتلين الى تلك القلعة ونزلوها واشتغلوا بنصب المنجنيقات والاستعداد للقتال . وحينئذ عبر ميخائيل في عساكره خليج القسطنطينية ونزل عليها وهي خالية عن رجال الحرب وحال بينها وبين العسكر الذي كان على القلعة المذكورة . فدلّه بعض الرعاة على باب عتيق للمدينة قد عفا اثره ولم يفتح من عهد قسطنطينوس فنبشوه ودخلوا المدينة وملكوها ليلاً وتغافلوا عن بغدوين صاحبها عمداً حتى خرج في اهل بيته وصار الى بلاد الفرنج في البحر . وكان مدة بقاء القسطنطينية بيد الفرنج نحو ثلث وخمسين سنة ثم عادت الى الروم كما كانت اولاً .

وفيها في شهر شوال رحل هولاکو عن حدود همدان نحو مدينة بغداد . وكان في ايام محاصرته قلاع الملاحدة قد سير رسولاً الى الخليفة المستعصم يطلب منه نجدة فاراد ان يسير ولم يقدر ولم يمكنه الوزراء والامراء وقالوا: ان هولاکو رجل صاحب احتيال وخديعة وليس محتاجاً الى نجدتنا وانما غرضه اخلاء بغداد عن الرجال فيملكها بسهولة . فتقاعدوا بسبب هذا الخيال عن ارسال الرجال . ولما فتح هولاکو تلك القلاع ارسل رسولاً آخر الى الخليفة وعاتبه على اهماله تسيير النجدة . فشاوروا الوزير فيما يجب ان يفعلوه فقال: لا وجه غير ارضاء هذا الملك الجبار ببذل الاموال والهدايا والتحف له

ولخواصه . وعند ما اخذوا في تجهيز ما يسيرونه من الجواهر والمرصعات والثياب والذهب والفضة والماليك والجواري والخيل والبغال والجمال قال الدويدار الصغير واصحابه : ان الوزير انما يدبر شأن نفسه مع التاتار وهو يروم تسليمنا اليهم فلا نمكنه من ذلك . فبطل الخليفة بهذا السبب تنفيذ الهدايا الكثيرة واقتصر على شيء نزر لا قدر له . فغضب هولاء وقال : لا بد من محبته هو بنفسه او يسيّر احد ثلثة نفر اما الوزير واما الدويدار واما سليمان شاه . فتقدم الخليفة اليهم بالمضي فلم يركنوا الى قوله فسيّر غيرهم مثل ابن الجوزي وابن محيي الدين فلم يجدوا عنه . وأمر هولاءكو بايجو نوين وسونجاق نوين ليتوجهها في مقدمته على طريق اربل وتوجه هو على طريق حلوان . وخرج الدويدار من بغداد ونزل بجانب يعقوبا ١ . ولما بلغه ان بايجو نوين عبر دجلة ونزل بجانب الغربي ظن ان هولاءكو قد نزل هناك فرحل عن يعقوبا ونزل بجبال بايجو ولقي يرك ٢ المغول اميراً من امراء الخليفة يقال له ابيك الحلبي فحملوه الى هولاءكو فأمنه ان تكلم بالصحيح وطيب قلبه فصار يسير امام العسكر ويهدبهم . وكتب كتاباً الى بعض اصحابه يقول لهم : ارحموا ارواحكم واطلبوا الامان لان لا طاقة لكم بهذه الجيوش الكثيفة . فاجابوه بكتاب يقولون فيه : من يكون هولاءكو وما قدرته بيت عباس من الله ملكهم ولا يفلح من يعاندهم ولو اراد هولاءكو الصلح لما داس ارض الخليفة ولما افسد فيها . والآن ان كان يختار المصالحة فليعد الى همدان ونحن نتوسل بالدويدار ليخضع لامير المؤمنين متخشعاً في هذا الامر لعله يعفو عن هفوة هولاءكو . فلما عرض ابيك الكتاب على هولاءكو ضحك واستدل به على غباوتهم . ثم سمع الدويدار ان التاتار قد توجهوا نحو الانبار . فسار اليهم ولقي عسكر سونجاق نوين وكسرهم وهزمهم وفي هزيمتهم التقاهم بايجو نوين فردّهم وهجموا جميعاً على عسكر الدويدار فاقتتلوا قتالاً شديداً وانجلى الحرب عن كسرة الدويدار فقتل اكثر عسكره ونجا هو في نفر قليل من اصحابه ودخل بغداد .

وفي منتصف شهر المحرم من سنة ست وخمسين وستائة نزل هولاءكو بنفسه على باب بغداد وفي يوم ليلة بنى المغول بجانب الشرقي سبياً اعني سوراً عالياً وبني بوقاتي مور وسونجاق نوين وبايجو نوين بجانب الغربي كذلك وحفروا خندقاً عميقاً

١ - كذا في الاصل . والصواب يعقوبا ويقال لها بمقوبا ايضاً وهي قرية كبيرة على عشرة فراسخ من بغداد .

٢ - ويروى : بركا وهو تصحيف . والبرك رئيس العسس .

داخل السبيا^١ ونصبوا المنجنيقات بازاء سور بغداد من جميع الجوانب وربتوا العرّادات وآلات النفط . وكان بدء القتال ثاني وعشرين محرّم . فلما عين الخليفة العجز في نفسه والخذلان من اصحابه ارسل صاحب ديوانه وابن درنوش^٢ الى خدمة هولاکو ومعهم تحف نزره . قالوا: ان سيرنا الكثير يقول: قد هلعوا وجزعوا كثيراً . فقال هولاکو: لمّا جاء اللويدار وسلیمان شاه . فسیر الخليفة الوزير العقمي وقال: انت طلبت احد الثلاثة وها انا قد سيرت اليك الوزير وهو اكبرهم . فاجاب هولاکو: انني لما كنت مقيماً بنواحي همدان طلبت احد الثلاثة والآن لم اقع بواحد . وجدّ المغول بالقتال بازاء برج العجمي وبوقاتيمور من الجانب الغربي حيث المبلة وسونخاق نوين وبايجو نوين من جانب البيارستان العسدي . وامر هولاکو البيكتنجية ليكتبوا على السهام بالعربية: ان الاركاونية^٣ والعلويين والدانشمدي^٤ وبالجملة كل من ليس يقاتل فهو آمن على نفسه وحرمة وامواله . وكانوا يرمونها الى المدينة . واشتدّ القتال على بغداد من جميع الجوانب الى اليوم السادس والعشرين من محرّم . ثم ملك المغول الاسوار وكان الابتداء من برج العجمي . واحتفظ المغول الشط ليلاً ونهاراً مستيقظين لئلا ينحدر فيه احد . وامر هولاکو ان يخرج اليه اللويدار وسلیمان شاه واما الخليفة ان اختار الخروج فليخرج والّا فليزوم مكانه . فخرج اللويدار وسلیمان شاه ومعها جماعة من الاكابر . ثم عاد اللويدار من الطريق بحجة انه يرجع ويمنع المقاتلين الكامين بالدروب والازقة لئلا يقتلوا احداً من المغول فرجع وخرج من الغد وقُتل . وعامة اهل بغداد ارسلوا شرف الدين المراغي وشهاب الدين الزنكاني ليأخذ لهم الامان . ولما رأى الخليفة ان لا بد من الخروج اراد او لم يرد استأذن هولاکو بأن يحضر بين يديه فأذن له وخرج رابع صفر ومع اولاده واهله . فتقدم هولاکو ان ينزله بباب كلواذ^٥ وشرع العساكر في نهب بغداد ودخل بنفسه الى بغداد ليشاهد دار الخليفة وتقدّم باحضار الخليفة فاحضره ومثل بين يديه وقدم جواهر نفيسة وآلى^٦ ودرراً معبّاة في اطباق ففرّق هولاکو جميعها على الامراء وعند المساء خرج الى منزله وامر الخليفة ان يفرز جميع النساء التي باشرهن هو وبنوه ويعزهنّ عن غيرهنّ ففعل فكنّ سبعائة امرأة فاخرجهنّ ومعهنّ ثلثمائة خادم

١ - وروى: عميقاً ونصبوا الخ .

٢ - درنوش س ودرنوش . - وروى: دونوس ودرنوس .

٣ - اي تباع اركون ومعناه الدهقان العظيم وهي كلمة يونانية αργων

٤ - والدانشمدي ر والدانشمدي .

٥ - لعلّه باب كلواذى .

خصي . وبقي النهب يعمل الى سبعة ايام ثم رفعوا السيف وبطلوا السبي . وفي رابع عشر صفر رحل هولاءكو من بغداد وفي اول مرحلة قتل الخليفة المستعصم^١ وابنه الاوسط مع ستة نفر من الخصيان بالليل وقتل ابنه الكبير ومعه جماعة من الخواص على باب كلواذ وفوض عمارة بغداد الى صاحب الديوان والوزير وابن درنوش . وارسل بوقاتي مور الى الحلة ليمتنحن اهلها هل هم على الطاعة ام لا . فتوجه نحوها ورحل عنها الى مدينة واسط وقتل بها خلقاً كثيراً اسبوعاً . ثم عاد الى هولاءكو وهو بمقام سياكوه^٢ .

* * *

وكان من الفضلاء المعبرين في هذه السنين القاضي الاكرم جمال الدين بن القفطي مصنف كتاب تاريخ الحكماء مولده بقط من اعمال صعيد مصر سنة ثمانى وستين وخمسة رحل به ابوه طفلاً واسكنه القاهرة المعزية وبها قرأ وكتب وشدا شيئاً من الادب . ثم خرج الى الشام فاقام بجلب وصحب بها الامير المعروف بالميمون القصري . واجتمع في هذه المدة بجماعة من العلماء واستفاد بمحاضرتهم وفقه بمناظرتهم . ثم لازم منزله بعد وفاة الامير المذكور الى ان ألزم بالخدمة في امور الديوان في ايام الملك الظاهر فتولّى ذلك وهو كاره للولاية متبرّم بها . فلما مات الملك الظاهر عاد فانقطع في منزله مستريحاً من معاناة الديوان مجتمع الخاطر على شأنه من المطالعة والفكرة منقبضاً عن الناس محباً للتفرد والحلوة لا يكاد يظهر لمخلوق حتى قلده الملك العزيز وزارته سنة ثلث وثلاثين وستائة . فلم يزل في هذا المنصب مدة ايام الملك العزيز والملك الناصر ابنه حتى توفي ثالث عشر رمضان سنة ست واربعين وستائة .

ومن حكماء هذا الزمان نجم الدين النخجواني كان ذا يد قويّة في الفضائل وعارضة عريضة في علوم الاوائل تفلسف ببلاده وسار في الآفاق وطوّف ودخل الروم وولي المناصب الكبار ثم كره كندر الولاية ونصبها فارتحل الى الشام واقام بجلب منقطعاً في دار اتخذها لسكناه لا يمشي الى مخلوق ولكن يمشى اليه الى ان مات بها . وكان شديد الميل الى مذهب التناسخ وله مؤاخذات على منطق الاشارات وشرحها ايضاً وتناول^٣

١ - كانت مدة خلافته نحو ست عشرة سنة تقريباً وهو آخر الخلفاء العباسيين . وكانت مدة ملكهم خمسمائة سنة واربعاً وعشرين سنة هجرية . وعدة خلفائهم سبعة وثلاثون خليفة .

٢ - ويروى : سياكوا ولعلها سياكوه .

٣ - ويروى : وتناوله .

الأفضل الخوجي بالاستنفاص وزيف أقواله في كتاب الكشف فيما يتعلق بعكس النقيض والموضوع الخارجي والحقيقي ومنعه انتاج الصغرى الممكنة في الشكل الاول وانعكاس السالبة الكلية الضرورية كنفسها الى غير ذلك

ومنهم الحكيم ناذري الانطاكي يعقوبي النحلة احكم اللغة السريانية واللاطينية بانطاكية وشدا بها شيئاً من علوم الاوائل . ثم هاجر الى الموصل وقرأ على كمال الدين ابن يونس مصنفات الفارابي وابن سينا وحلّ اوقليدس والمجسطي . ثم عاد الى انطاكية ولم يُطل المكث بها لما رأى في نفسه من التقصير في التحصيل فعاد مرة ثانية الى ابن يونس وانضج ما استنها من علمه وانحدر الى بغداد واتقن علم الطب وقبّد اوابده وتصيّد شوارده وقصد السلطان علاء الدين ليخدمه فاستغربه^١ ولم يُقبل عليه فرحل الى الارمن وخدم قسطنطين ابا الملك حاتم ولم يستطع عشرتهم فسار مع رسول كان هناك للامبرور ملك الفرنج^٢ فقال منه افضالاً ووجد له به نوالاً واقطعه بمدينة كما هي باعمالها . فلما صلح حاله وكثر ماله اشتاق الى بلده واهله ولم يؤذن له بالتوجه فاقام الى ان امكنته الفرصة بخروج الملك في بعض غزواته الى بلاد المغرب فضم اطرافه وجمع امواله وركب سفينة كان قد اعدّها لهربه وسار في البحر مع من معه من خدمه يطلبون برّ عكا . فبينما هم سائرون ذهبت عليهم ريح رمت بهم الى مدينة كان الملك قد ارمى بها فلما أخبر ناذري بذلك تناول شيئاً من سمّ كان معه ومات خجلاً لا رجلاً لان الملك لم يكن يسمح باهلاك مثله .

ومن الاطباء المشاهير في هذا الزمان الحكيم مسعود البغدادي المعروف بابن القس طبيب حاذق نبيل خدم الخليفة المستعصم واختصّ به وطبّ حرمه واولاده وخواصه وارتفعت منزلته لديه . ولما جرى ببغداد ما جرى انقطع عن الناس ولزم منزله الى ان مات . وخلف ولده غرس النعمة ابا نصر^٣ وكان ابو نصر فاضلاً عاقلاً ذا فنون خبيراً باصول الهندسة فاكماً مشكلاتها وكان ضئيلاً مسقاماً لا يقطع استعمال ماء الشعير صيفاً وشتاء وكان غذاؤه دوائياً نزرأ ومات كهلاً .

ومنهم الحكيم عيسى البغدادي المعروف بابن القسيس الحظيري^٤ كان ابوه طبيباً

١ - وفي رواية: فاستمر به . وفي أخرى: فاستثمر به

٢ - كان هذا الملك فريديريكوس الثاني .

٣ - نصر و ناصر .

٤ - الحظيري و الحظيري .

فاضلاً يُقرأ عليه ويؤخذ منه . وكان حادث المزاج يسرع اليه الغضب . جرى لي معه مفاوضة في امر تقديم السريان الليل على النهار مستدلين التوراة وهو قوله تعالى : وصار مساء وصار صباح يوماً واحداً . قلت : هذه الحجة عليهم لا لهم لانها تنبئ عن تقدم نهار آخره مساء وتأخر ليل آخره صباح ليم بمجموعهما يوم واحد لان الحاصل من المساء الى الصباح انما هو ليلة واحدة وهي نصف يوم لا يوم تام . فلم ينصفني في هذا ولا اجاب عنه بشي اكثر من قوله : هذا مذهب اهل ملتك فكيف يسعك تكذيبهم . فقلت : انا تابع فيه الليونانيين واقيم عذر السريانيين وهو ان شهورهم قريّة والقمر انما يرى استهلاله مساء لا صباحاً فجعلوا مبادئ توارينجهم اوائل الليل ومثلهم العبرانيون والعرب لان الليل مقدّم على النهار في نفس الامر . وما يُستدل به على علو همة الحكيم عيسى ابن القسيس انه نسخ كتاب القانون بخطه في شبيته ثم خرجت النسخة عن ملكه بحكم شرعي وحصلت في خزانة المدرسة المستنصرية . فلما اسن طلب النسخة وقابلها وصححها واعادها الى مكانها . فنسبه باغضوه الى فضول ومحبوه الى مثوبة يتوخاها . فقال : كلا الفريقين مخطئ وانما فعلت ذلك لثلاثي زري علي بعد موتي . وعمر طويلاً ومات شيخاً كبيراً .

ومنهم تقي الدين الرأس عيني^١ المعروف بابن الخطّاب^٢ طيب مشهور الذكر متقن لصناعة الطب علمها وعملها غاية الاتقان خدم السلطان غياث الدين وبعده ابنه عز الدين وصار له منزلة عظيمة منهما ورفعاه من حدّ الطب الى المعاشرة والمسامرة واقطعاه اقطاعات جزيلة وكان في خدمتهما بزي جميل وامر صالح وغلان وخدم وصادف من دولتهما كل ما سرّه .

ومنهم شرف الدين بن الرحبي واخوه جمال الدين الدمشقيان . اما شرف الدين فكان بارعاً بالجزء النظري من الطب له معرفة تامة به واطلاع على اصوله تصدّر لافادة هذا الشأن واخذ عنه جماعة من الطلبة وكان قليل التعرّض لمباشرة المرضى . وسمعت وقت تحصيلي بدمشق ان له تعاليق وحواشي على القانون ولم ارها . واما جمال الدين اخوه فكان له عناية تامة في الجزء العملي من الطب وتجارب فاضلة فيه ونفوذ مشهور في المعالجة . صحبته مدة اباشر معه المرضى بالبيمارستان النوري بدمشق وكان حسن الاخلاق لم ار في الجماعات احسن منه زياً وصمتاً ونطقاً ومبسماً .

١ - قال في معجم البلدان في كلامه عن مدينة رأس عين « والمشهور في النسبة اليها راسعي . وقد نسب اليها الراسي » .

٢ - الخطّاب ر الخطّاب .

ومنهم بدر الدين المعروف بابن قاضي بعلبك كان فاضلاً خبيراً بالمباشرة والمعالجة جميل التحيّل للبرء وصنّف كتاباً لطيف الحجم سمّاه مُفْرَحَ النفس جمع فيه جملة ما يتعلّق بالحواس الخمسة من المفرحات واطّاف اليه^١ الادوية المفردة القلبية ومركبات ايضاً حارّة وباردة ومعتدلة للملوك والفقراء واطّاف الناس واخذ فيه على الرئيس في جعله الكسفرة عديدة المفرحات .

ومنهم نفيس الدولة دمشقي النصراني الملكي المعروف بابن طليب وسبّأني ذكره في جملة اطباء هولاء اذ هو اكبرهم .

ومنهم الموفق يعقوب الدمشقي السامري كان طبيباً حاذقاً مصيباً في علاجه مستحضراً للشروح وكان ضنيناً بما يحسنه يشارط من قصده من سائر البلاد للاستفادة على اسماعه اي كتاب اراد قراءته دراهم معلومة . وهذه حساسة مباينة للانفس الفاضلة .

ومن فضلاء هذا الزمان في علوم الاوائل وجميع الفضائل نجم الدين الدمشقي المعروف بابن اللبودي تولّى امور الديوان وقلد الوزارة والغالب عليه الهندسة والعدد .

ومنهم عز الدين الضرير كان من الافاضل والاعيان المعلومين من حسنات الزمان . وله مشاركة حسنة في سائر الانواع الفلسفية والآداب العربية . وكان قوي الذكر والتحصيل بحيث انه كان يُقرأ عليه وهو مكفوف ست مقالات من كتاب اوقليدس وكان يحفظ الاشكال بحروفها ويتكلم في حلها .